الفكر التربوي عند الإمام شمس الدين الذهبي

إعداد

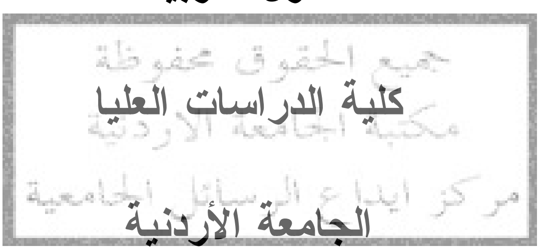
بسّام عمر ذياب غانم

إشراف

الأستاذ الدكتور عبد الله زاهي الرشدان

قدمت هذه الرسالة استكمالا لمتطلبات الحصول على درجة الدكتوراه في

أصول التربية



كلية الدراسات العليا

الجامعة الأردنية

آب / ٢٠٠٣

نوقشت هذه الرسالة وأجيزت بتاريخ ٢١/ ٨ /٢٠٠٣

أعضاء لجنة المناقشة	**التوقيع**
أ. د.عبد الله زاهي الرشدان(رئيسا)	....
أ.د . دلال زهدي ملحس (عضوا)	....
د . ناصر أحمد الخوالدة (عضوا)	....
د . محمد صايل الزيود (عضوا)	....
د . ماجد زكي الجلاد (عضوا) (جامعة اليرموك)	....

الإهـــــــــداء

- إلى روح أبي ، الذي يتراءى لي كالحلم
- إلى أمي ، نبع الحنان ، بقرآن الفجر وابتهالاته الصادقة

{ رَبِّ ارحمهما كَمَا رَبْيَاني صَغيراً }

- إلى زوجتي رفيقة السهر والعناء ، التي صبرت وشجعت وأجزلت العطاء
- إلى أخي وأختي ..... أحبتي
- إلى زهور حياتي أبنائي وبناتي (فاتن ، وبنان ، وعمر، ومحمد)

شكر وتقدير

{ ربِّ أوزعني أن أشكُرَ نِعمَتَكَ التي أنعَمتَ عَلَيّ وعَلَى والدَيَّ وَأن أعمَلَ صَالِحاً تَرضَاهُ وأدخِلنِي برَحمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَالِحينَ } (النمل : ١٩)

فالشكر أولاً لله السميع العليم الذي شاء فقدر ، فكان أنعامه عليّ فائقاً لكل وصف . ولكم أحس بالهيبة من الخالق سبحانه والخجل من ذاته العليّه ، إذ أجدني عاجزاً عن الوفاء بواجب الشكر ، فلست ممن يملكون بياناً يمكن أن يسعف على الإعراب عن جزيل الامتنان لهذا الأنعام، ويليق بجلال قدر رب العالمين فرحماك يا رب !

ولما كان الشكر المنعم واجباً ، ومن البر مقابلة الجميل بالجميل ، فإن الباحث يُعرب في هذا المقام عن شكره الجزيل لأستاذه الفاضل ، الاستاذ الدكتور عبد الله زاهي الرشدان الذي كان له فضل الاشراف على هذه الرسالة فاتسع لها صدره إلى أبلغ مدى، وانتفع الباحث بملاحظاته وتوجيهاته انتفاعاً عظيماً والشكر موصول لأعضاء لجنة المناقشة الاساتذه الاجلاء ، الاستاذة الدكتورة دلال زهدي ملحس ، والدكتور ناصر أحمد الخوالدة ، والدكتور محمد صايل الزيود ، والدكتور ماجد زكي الجلاد من كلية التربية والفنون ،قسم المناهج في جامعة اليرموك ، سائلاً المولى عزت قدرته أن يمتع الجميع بموفور الصحة والعافية .

وثمة جنود مجهولون سبقت أيديهم إليّ بالعون ، وحفزوني بالتشجيع ، فلهم عليّ واجب الاعتراف بفضلهم ، ولهم مني كل معاني الشكر والتقدير ، ومنهم : الدكتور نزار وصفي اللبدي الذي تعلمت منه ، وأخذت عنه وما أكثره ، والعالم الفاضل أبو عبيدة مشهور حسن سلمان الذي فتح لي مكتبته العامرة أنهل من معينها ، وابن الأخت محمد إبراهيم غانم لمساعدته لي في عمليات التنقيح والطباعة وما شابه ، والصديق محمد الشافعي وزملاؤه في مكتبة الجامعة الأردنية ، والزميل الصديق سليمان الكايد مدير منطقة جنوب عمان التعليمية لما قدمه لي من تسهيلات .

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات

المحتويات

الموضوع	الصفحة
• الإهداء	ج
• شكر وتقدير	د
• المحتويات	هـ
• ملخص الرسالة	ح
الفصل الأول : الدراسة خلفيتها وأهميتها	١-٣٧
• الإطار النظري للدراسة:- مقدمة	٢
- أهمية الدراسة ومبرراتها	٣
- أهداف الدراسة	٤
- أسئلة الدراسة	٤
- تحديد المصطلحات	٥
- الدراسات السابقة	٦
- منهجية البحث وخطواته	٩
• الإمام الذهبي ، عصره وحياته:	١٠
- الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية في عصر الذهبي	١٠
- ترجمة الإمام الذهبي	٢٥
الفصل الثاني: العلم والعلوم وأساليب تحصيلها في فكر الذهبي:	٣٨-٩١
• وجوب طلب العلم وتعليمه	٣٩
• أهداف التربية والتعليم عند الإمام الذهبي	٤١
• العلوم وأقسامها عند الذهبي :	٤٨
- العلوم وفق الأحكام التكليفية	٤٨
- العلوم النافعة والعلوم الضارة	٥١
- العلوم من حيث وجوب النشر من عدمه	٥٥
• موقف الذهبي من بعض العلوم التي كانت سائدة في عصره والعاملين بها	٥٧

الموضوع	الصفحة
• موقف الذهبي من أصحاب المدارس والعلوم الدينية التي اشتهرت في عصره	٧٢
• طرق التربية والتعليم وأساليب تحصيلها في فكر الذهبي	٧٨
• سن التعليم	٨٩
• أماكن التعليم والتعلم	٩٠
الفصل الثالث : الآداب والعلاقات التربوية في فكر الذهبي	٩١-١٣٤
• آداب المعلم وواجباته	٩٢
• آداب المتعلم وأخلاقه	١٠٦
• العلاقات التربوية :- العلاقات بين المعلمين والمتعلمين	١١٢
- تلقي العلوم وأخذها وشروط ذلك	١١٧
- أخذ الأجرة على التعليم	١٢٤
- العلاقات بين الآباء والأبناء	١٢٧
- العلاقات بين المعلمين أنفسهم	١٣٠
الفصل الرابع : الفكر التربوي للذهبي بين الأصالة والمعاصرة	١٣٥-٢٠٢
• مقدمة	١٣٦
• وجوب التعليم وإلزاميته	١٣٧
• أهداف التربية والتعليم	١٤٠
• أقسام العلوم وأصحابها	١٤٥
• المبادئ والأسس التربوية :- التربية المستمرة	١٥٩
- استثمار الوقت واغتنامه	١٦٢
- مراعاة الفروق الفردية	١٦٤
• تعليم المرأة في فكر الذهبي	١٦٩
• التربية الأخلاقية عند الذهبي :	١٧١
- الأخلاق العقيدية والفكرية	١٧٣

الموضوع	الصفحة
– الأخلاق الجماعية المجتمعية	١٧٦
– الأخلاق المهنية	١٨٠
• أساليب التعليم ووسائله وقواعده	١٨٧
• أنموذج تربوي وفق المستخلص من أفكار الذهبي التربوية	١٩٨
الفصل الخامس : الاستنتاجات والتوصيات :	٢٠٣
– استنتاجات الدراسة	٢٠٤
– توصيات الدراسة	٢٠٧
• ثبت المراجع	٢٠٩
• Abstract	٢٢٦

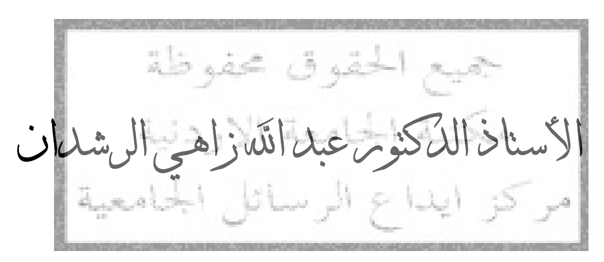
ملخص

الفكر التربوي عند الإمام شمس الدين الذهبي

إعداد

بسام عمر ذياب غانم

إشراف



الأستاذ الدكتور عبد الله زاهي الرشدان

هدفت هذه الدراسة إلى إبراز جوانب الفكر التربوي لدى الإمام الذهبي ، لبيان إسهاماته في مجال التربية والفكر التربوي ، والكشف عن مدى إمتداد أفكاره في الفكر التربوي في العصر الحاضر .

وبالتحديد فإن هذه الرسالة حاولت الاجابة عن السؤال الرئيسي الآتي : ما ملامح الفكر التربوي عند الإمام الذهبي ؟ والذي تفرع عنه أسئلة عدة تدور حول موقفه من علوم عصره والمشتغلين بها ، والطرق والاساليب التربوية المتعلقة بتحصيل العلوم في عصره ، وصوره الآداب والعلاقات التربوية بين أطراف العملية التعليمية/ التعليمة ، ثم مدى إتفاق أفكار الإمام التربوية أو اختلافها مع الفكر التربوي المعاصر .

وللإجابة عن هذه الاسئلة إستخدم الباحث المنهج التاريخي ، مستعيناً بالوصف والتحليل لما تسنّى له النظر فيه من المتوفر من كتب الذهبي ، وما كتب حوله .

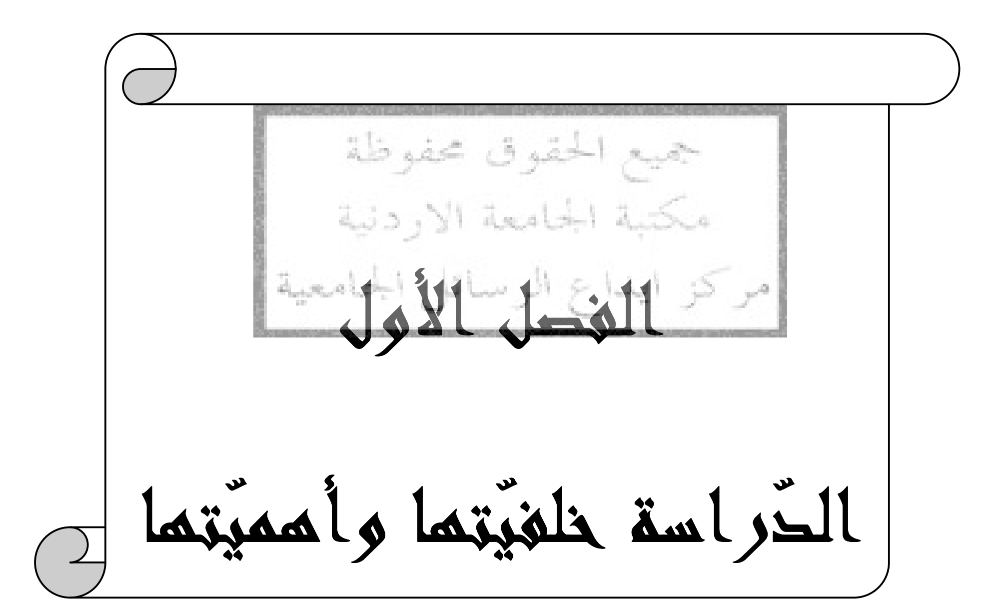
وقد خلصت الدراسة إلى نتائج منها أن فكر الإمام الذهبي المستمد من عقيدته السلفية قد برز بشكل واضح ، سواء في تركيزه على العلوم الدينية ، أو تقسيمه للعلوم وفق الاحكام التكليفية، أو خلال موقفه من علوم عصره والمشتغلين بها ، أو خلال تأكيده على مفهوم التربية الوقائية – الاصلاحية القائمة على مبدأ الخشية لله تعالى . كما قدم الذهبي في كثير من وصاياه التربية على التعليم ، ظهر ذلك خلال تناوله للآداب التي يجب أن يتحلى بها كل من المعلم والمتعلم ، بحيث تحكم العلاقة بينهما .

كما انتهت الدراسة إلى أن بعض نظرات الإمام التربوية التقت مع الفكر التربوي في العصر الحاضر ومن ذلك : تحري الدقة في البحث والتنقيب ، ومراعاة الاولويات والتدرج في طلب المعرفة أو تقديمها ، وإعطاء الحرية للمتعلم لإختيار العلم والمعلم ، ومراعاة الفروق الفردية بين المتعلمين ، وأهمية دور الاسرة في العملية التربوية ،والقول بالزامية التعليم ووجوب طلبه ، وتوظيف أسلوب التفكير التأملي والمحاسبة الذاتية .

وفي الختام توصي الدراسة الباحثين بالاتي :

- إجراء دراسة متخصصة حول التربية الاخلاقية عند الإمام الذهبي .
- إجراء دراسة حول الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكريه وأثرها في تطور الفكر الاسلامي عبر العصور .
- إجراء دراسة حول تأثيرات الاضطرابات السياسية ، والكوارث الطبيعية على العملية التعليمية/التعلمية من حيث العوامل ، وأساليب المواجهة التربوية والتعليمية وآثار ذلك .

- إجراء دراسة حول أسلوب حرية إختيار المواد الدراسية ، ومعلميها في الفكر التربوي الاسلامي ،مقارنة مع المحاولات المعمول بها في التربية في العصر الحاضر .



الفصل الأول

الدّراسة خلفيّتها وأهميّتها

الدراسة خلفيتها وأهميتها

رأى الباحث أن يقسم هذا الفصل إلى مبحثين لتسهيل تناوله ، الأول يتعلق بالإطار النظري للدراسة وأهميتها ، والثاني يتناول عصر الإمام الذهبي وحياته .

أولاً : الإطار النظري للدراسة .

مقدمة :

جادت الحضارة الإسلامية على مر عصورها بالعديد من المفكرين التربويين الذين كانت لهم إسهامات عديدة في خدمة الإسلام والمسلمين ، وبخاصة في الجانب المتعلق بالتربية والتعليم ويعد موضوع المفكرين هؤلاء من المواضيع التي لاقت اهتماماً من قبل الباحثين في التربية ، بهدف الكشف عن جوانب الفكر التربوي لدى كل واحد منهم ، ومدى امتداد أفكارهم في الواقع المعاصر اتفاقا أو اختلافاً ، إضافة إلى أن دراسات كهذه تعد جزءاً أساسياً ورديفاً قويا للتربية الإسلامية التي تشكل عنصراً حيوياً هاماً في المجتمع الإسلامية ، وتمثل بمفهومها العام نظاماً ومنهجاً تربوياً شاملاً لـه أسسه العقدية ، والمعرفية ، والنفسية ، والاجتماعية ، وله نظرياته الخاصة ، وإجراءاته الميدانية ، التي يتم اعتمادها منهجا لتربية الفرد وتكوين المجتمع المسلم ، كما أنها وفق هذا المفهوم تعد مصدراً من مصادر حفظ هوية الأمة ، ومعيناً تربوياً يوجه التربية الحديثة توجيهاً إسلاميا ليقيها من مزالق الانحراف والضياع (الجلاد، ٢٠٠٠) .

ويلاحظ الباحث– رغم طول فترة التاريخ الإسلامية – سواء في عهود الرقي والازدهار أو الجمود والتخلف ما بينهما قلة أعداد أعلام التربية الإسلامية – قياساً مع طول الفترة – حتى يكاد الحديث يقتصر على أسماء بعينها ، فيتم تناولها لأكثر من مرة ، بأساليب متعددة ، ومن جوانب مختلفة ، قد يغلب عليها التكرار ، وهذا لا يعني الانتقاص من أهمية دراسة هؤلاء الأعلام ، والكشف عن إسهاماتهم الجليلة ، ولكن المرء يتساءل ، أفرغت الحضارة إلا منهم ؟ إلا يمكن أن نبحث عن آخرين ونكشف عنهم ، حتى لو كانوا أقل منزلة بأدوارهم ، أو أنهم

يقفون على النقيض بأفكارهم وما يدعون إليه بحكم الخصوصية الزمانيــة والمكانيــة ، ثــم إلا تستفيد الأمة من أخطاء ماضيها ، كما تستفيد من أوجه الصواب فيه ؟

وهكذا فالباحث يرى أن ميدان البحث في التربية الإســلامية وأعلامهــا فــي الإطــار المعاصر يحتاج إلى جهود كبيرة لمزيد من الإحاطة بالجهود المبذولة في مجال الفكر التربــوي الإسلامية . ومن هنا يتقدم الباحث بدراسته حول الإمام الذهبي الذي قضى معظم ســني عمــره متعلماً وعالماً ومعلماً وعاملاً في الجمع والتصنيف والتأليف والاختصار حتى جاوزت مصنفاته المائتين والتي دلت مضامينها المختلفة من قرارات وحديث وتاريخ وســير وتــراجم ووصــايا ومختصرات ،على سعة علمه وتنوع معارفه ، الأمر الذي جعله يتبوأ منزله علمية رفيعة فــي عصره شهد له بها معظم من عاصره ، ومع ذلك فهو لم يلق كبير عناية من الباحثين والدارسين في مجال التربية والفكر التربوي ، لبيان ما انطوت عليه تصانيفه المتعددة من اهتمام في هــذا المجال ، اللهم إلا على بعض الملخصات والإشارات والدراسات التــي قــد لا تفــي بالحاجــة للإحاطة بجهد هذا العالم .

*** أهمية الدراسة ومبرراتها :**

تكمن أهمية هذه الدراسة في الأمور الآتية :

– أنها تحاول إبراز فكر الإمام الذهبي التربوي وما قدمه من إسهامات كثيرة خدمه للإسلام والمسلمين ، من خلال استعراض المتوافر من مصنفاته وتأليفه .

– أن التعرف إلى أفكار هذا الإمام يمكن أن تعطي صورة عن بعض أحوال العصر الذي عاش فيه ، وبخاصة أن فكر الإنسان يتأثر كثيراً بالعوامل المحيطة به .

– أنها تسعى لبيان موقع أفكار الذهبي في الفكر التربوي المعاصر ، ومدى إمدادها فيه اتفاقا أو اختلافا .

أما مسوغات إجراء هذه الدراسة ومبرراتها فتعود إلى الآتي :

– إن الدراسات التراثية الأصلية بشكل عام – رغم الجهود المبذولة فيها – لا تزال قليلة وبخاصة حول أعلام المسلمين الذين كانت لهم إسهامات في الفكر التربوي الإسلامية ، إلا أنه لم تكن لهم مؤلفات صريحة في التربية .

– إن الدراسات التربوية حول فكر هذا الإمام قليلة ولا تفي بالحاجة قياساً مع إسهاماته الكثيرة المتنوعة ، ومن هنا تأتي هذه الدراسة في محاولة لإبراز فكره التربوي وبخاصة فيما يتعلق بالعملية التربوية والتعليمية وما يدور في فلكها .

– إن هذه الدراسة تأتي في إطار الجهود المبذولة لإثراء المكتبة التربوية المعاصرة بالأبحاث والدراسات الأصيلة .

ومما يلزم ذكره أن هذه الدراسة تقتصر على أمرين مترابطين ، أولهما إبراز أفكار الإمام الذهبي التربوية دون سواها ، وثانيهما أنها تقتصر على ما تسنّى للباحث النظر فيه من كتب الذهبي ومصنفاته الكثيرة والمتنوعة .

* أهداف الدراسة :

هدفت هذه الدراسة إلى :

- الكشف عن مؤلفات الذهبي وتصانيفه التي برز فيها فكره التربوي ، وتقديمها لطلبة العلم للإفادة منها .
- إبراز جوانب الفكر التربوي عند الإمام شمس الدين الذهبي ، لبيان إسهاماته في مجال التربية والفكر التربوي منها .
- الكشف عن مدى إمدادات فكر الإمام الذهبي في الفكر التربوي في العصر الحاضر .
- استخلاص أنموذج تربوي من أفكار الإمام التربوية ، يمكن الإفادة منه وتوظيفه إلى جانب المعمول به في هذا العصر .

* أسئلة الدراسة :

في إطار الأهداف المذكورة آنفا ، حاولت هذه الدراسة الإجابة عن السؤال الرئيسي التالي:

ما ملامح الفكر التربوي عند الإمام شمس الدين الذهبي ؟

وقد تفرع عن هذا السؤال أسئلة أخرى مثل :

– ما طبيعة العلم والعلوم وأهدافها في فكر الإمام الذهبي ؟

– ما موقف الإمام الذهبي من العلوم التي كانت سائدة في عصره ، والعاملين المشتغلين بها ؟

– ما الطرق والأساليب التربوية الواردة في فكر الإمام والمتعلقة بتحصيل العلوم في عصره ؟

– ما صورة الآداب والعلاقات التربوية بين أطراف العملية التعليمية/التعلمية في فكر الإمام الذهبي ؟

- ما المبادئ والأسس التربوية المتضمنة في فكر الإمام الذهبي ؟
- بم تتفق أفكار الإمام التربوية مع الفكر التربوي المعاصر وبم تختلف عنه ؟
- ما إمكانية توظيف أفكار الإمام التربوية في هذا العصر ؟

* تحديد المصطلحات :

رأى الباحث ضرورة تحديد المصطلح الوارد في عنوان الدراسة إضافة إلى بعض المصطلحات الأخرى ذات العلاقة ببعض جوانبها :

➢ **الفكر التربوي :** هو دراسة الجانب الفكري التربوي المتعلق بالعملية التعليمية/التعلمية الوارد في المتيسر من كتب الذهبي ومصنفاته ، والذي يتناول طبيعة العلم ، وأقسام العلوم ، والأهداف التربوية ، والموقف من ذلك ، إضافة إلى طرق تحصيل العلوم وأساليبها ، والمبادئ والأسس والآداب والعلاقات التربوية بين أطراف العملية التعليمية/التعلمية .

➢ **الفكر التربوي في العصر الحاضر :** هو الفكر المتعلق بجوانب التربية والتعليم والمتمثلة في الأسس والمبادئ والأهداف التربوية ، والعلاقات التربوية بين أطراف العملية التعليمية/التعلمية والمطبقة في العالم العربي والإسلامية بشكل عام ، والأردن بشكل خاص .

وفي هذا السياق فان كلمات مثل : التربية الحاضرة ، والحديثة ، والمعاصرة حيثما وردت في هذه الدراسة تأتي ضمن المفهوم الوارد .

➢ **الأصالة:** هي مجموعة الأفكار التربوية المستمدة من مصادر الفكر الإسلامي الأصيل كالقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ، وأقوال السلف وأفعالهم ، والتي تمثل رصيداً ثقافياً وحضارياً للأمة الإسلامية .

➢ **المعاصرة :** هي كل رصيد معرفي فكري في الحاضر ، ويقصد بها مجموعة الأفكار التربوية المتعلقة بالعملية التعليمية/التعلمية والمطبقة في العالم العربي والإسلامي في هذا العصر.

أما ثنائية الأصالة والمعاصرة فيقصد بها الباحث في هذه الدراسة محاولة الكشف عن مدى اتفاق أفكار الإمام الذهبي أو اختلافها مع الفكر الإسلامي الأصيل ومصادره من جهة والأفكار التربوية المطبقة في العالم العربي والإسلامي في العصر الحاضر من جهة أخرى .

الدراسات السابقة :

وجد الباحث أن الدراسات ذات العلاقة بهذا الموضوع قليلة جدا ، ولا تعالج إلا بعض الجوانب فيه ، ومن ذلك :

* **دراسة النحلاوي** (١٩٨٨) ، وهدفت هذه الدراسة إلى بيان أهم الآراء والاهتمامات التربوية للذهبي ، إضافة إلى استعراض أهم آرائه النقدية التربوية ، ومبادئه التي بنى عليها تلك الآراء مع التركيز على التربية الوقائية – الإصلاحية التي انتهجها بخاصة في كتابه الشهير " الكبائر " .

وقد استخدم النحلاوي في دراسته المنهج الوصفي التحليلي ، وخلص من ذلك إلى النتائج الآتية :

- كان الإمام الذهبي من أعلم علماء عصره ، وأشدهم ورعا وإخلاصا ، واهتماما بالعلم ، وأقدرهم على التدريس .
- سلك الإمام في تدريسه بعض الأساليب السائدة في زمانه ، مثل الاعتماد على الكتاب قراءة وسماعاً ، وشرحاً ، وإلقاءً ، إضافة إلى الوعظ ، والترغيب والترهيب .
- تميز الإمام الذهبي بتركيزه على موضوع التربية الوقائية – الإصلاحية ، من خلال الانطباعات التربوية لكتاب الكبائر ، وأنه قد وضع ضوابط تربوية وشرعية لهذه الكبائر .
- كان للذهبي وجهة نظر في علوم عصره والقائمين عليها ، والمشتغلين بها ، تمثلت في النقد والتقويم وبيان السليم من السقيم .

- يمكن تلمس بعض المعايير النقدية عند الذهبي ، وهي التي بنى عليها آراءه ، مثل : وجوب التعليم ونشر العلم ، ومبدأ الإخلاص في التعليم وطلب العلم ، ومبدأ العلم والعمل به ، وأهمية الأمانة العلمية والحياد والصدق .

* **دراسة النحلاوي (١٩٨٩)** ، وهدفت إلى بيان أهم المبادئ والوظائف والأساليب التربوية عند الإمام الذهبي مستخدما في ذلك المنهج الوصفي التحليلي .

وقد لاحظ الباحث أن هذه الدراسة لا تختلف كثيراً عن دراسته السابقة وإن كانت هنا مختصرة لضيق المقام الذي كتبت فيه كما يشير هو نفسه بقوله " ولكننا دللنا بما ذكرنا على ما لم نذكر خشية الإطالة والخروج على ما رسم لهذه الدراسة الموجزة "

*أما **دراسة الخداش (١٤١٨هـ)** ، فقد هدفت إلى بيان أبرز نصائح الذهبي للطلبة بقصد إصلاح سلوكاتهم ، وحثهم على المثابرة وتحصيل الخير , حيث كان من أبرز النصائح التي تناولها بشكل مختصر من خلال استخدامه المنهج الوصفي : ضرورة الإخلاص في طلب العلم ، وتحصيل النية في الطلب ، والتقوى مع العلم ، وسلوك الشيخ مع تلميذه والتلميذ مع شيخه ، وغير ذلك من النصائح المفيدة ، مقتصراً على واحد من كتبه وهو سير أعلام النبلاء .

وقد خلص من خلال دراسته إلى أن هذه النصائح لها وقع عظيم الأثر في قلوب طلبة العلم ، ولا أدل على ذلك من استشهاد العديد من العلماء والطلبة بها , كما أن كل من كتب من المعاصرين في هذا الباب هم عيال على الذهبي ومن شاكله من أهل العلم .

ومن الدراسات الأخرى في هذا المقام **دراسة المزروعي (١٩٩٥)** التي هدفت إلى الإجابة عن السؤال الرئيس التالي : ما القيم التربوية في الموضوعات العقدية التي علق عليها الإمام الذهبي في كتابه سير أعلام النبلاء ؟ إضافة إلى أسئلة أربعة أخرى تفرعت عنه ، وهي : ما القيم التربوية المتعلقة بجوانب توحيد الله عز وجل في تعليقاته ؟ وما القيم التربوية المتعلقة بجوانب الغيب ؟ وما القيم التربوية المتعلقة بالتمسك بالسنة النبوية ؟ ثم ما القيم التربوية المتعلقة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؟

وقد خلص المزروعي في دراسته التي قامت على الوصف والتحليل إلى نتائج متعددة حول كل سؤال من أسئلة الدراسة ، حيث تبين له وجود عدد من القيم التربوية عند الإمام متصلة بكل جانب ومن أهمها :

- احترام قيمة العلم والعلماء .
- مراعاة الفروق الفردية بين المعلمين .
- اعتبار أهمية العقل ، وتنمية ملكاته ، عن طريق أعماله في الإطار المناسب لوظائفه ، دون التشعب فيما لا طائل من ورائه .
- اقتضاء العلم العمل ، والتربية بالقدوة الصالحة .
- أثر كل من الترهيب والترغيب في تحسين سلوك الفرد المسلم .
- التوفيق بين لوازم العلم ، وبواعث السلوك ، بغية تحقيق أكبر قدر ممكن من استقرار الشخصية ، في إطار شمولية التربية الإسلامية وواقعيتها .
- التلطف في مخاطبة المتعلمين حسب مقتضى أحوالهم ، أدعى لقبول النصيحة والتوجيه .
- حسن الصمت عند مقتضاه ، والكلام عند الحاجة ، بما يتناسب ومقام الحاضرين .

ومما سبق فقد لمس الباحث أن الدراسات السابقة – وإن كانت أنارت الطريق أمامه في بعض جوانب دراسته – إلا أنها تختلف عنها في جوانب عدة ، إذ إن بعضها اقتصر على جانب القيم التربوية من الناحية العقدية البحتة ، محددا ذلك في كتاب واحد من كتب الإمام وهو "سير أعلام النبلاء " ، بينما جاءت دراستا النحلاوي – وهما الأكثر التصاقا بدراسة الباحث – أقرب إلى الإيجاز والاختصار لضيق المقام الذي كتبتا فيه ، إضافة إلى أن إحداها ركزت على كتاب واحد من كتب الذهبي وهو " الكبائر " .

ومن الاستعراض السابق يجد الباحث أن دراسته تتميز بما يلي :

– لم تقتصر الدراسة على كتاب واحد من كتب الإمام ، أو مجال واحد عينه ، كما في الدراسات السابقة ، بل تتبعت أفكاره التربوية في سائر مؤلفاته ومصنفاته التي وصلت إليها يد الباحث .

- تناولت هذه الدراسة أفكار الذهبي بصورة أكثر شمولا ، وأبعد عمقا ، قياسا مع الدراسات التي تسنى للباحث النظر فيها ، حيث وجد أنها لم تستوف دراسة هذه الأفكار على نحو مقنع ، فقد كانت محكومة بضيق المجال الذي كتبت فيه ، أو بالتخصص والمجال الذي تناولته من أفكار .

- تنظر الدراسة في مدى ملاءمة الأفكار التربوية التي تضمنتها كتب الذهبي للعصر الذي عاش فيه ، ومدى الأثر الذي تركته في العملية التربوية في ذلك الزمن .
- تجري هذه الدراسة مقارنة بين الأفكار التربوية الأساسية عند الذهبي ، وتلك التي تقابلها في الفكر التربوي في العصر الحاضر ، للوقوف على درجة الاتفاق ، أو الاختلاف فيما بينهما .
- تنظر الدراسة في إمكانية توظيف أفكار الإمام التربوية ، في العملية التربوية في العصر الحاضر .

*** منهجية البحث وخطواته :**

يعتمد الباحث في هذه الدراسة المنهج التاريخي ، مستعينا بالوصف والتحليل ، وذلك باتباع الخطوات التالية :

- تحديد مصادر الدراسة المتمثلة بمصنفات الإمام الذهبي والمراجع الأخرى التي كتبت عنه .
- تحديد المفاهيم والمصطلحات الواردة في الدراسة .
- التمهيد بالحديث بصورة مختصرة عن الجوانب المختلفة لعصر الذهبي : السياسية ولاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، لأن الحكم على فكر أي شخصية تربوية يتطلب الإحاطة بظروف العصر الذي عاش فيه ، والعوامل المؤثرة فيه .
- النظر في تراث الإمام وما خلفه من تأليف ومصنفات بصورة متأنية , في محاولة لاستقصاء الأفكار التربوية التي تضمنتها .
- عزو النصوص إلى مصادرها من مؤلفات الذهبي ومصنفاته .
- استعراض أفكار الإمام التربوية ، المتعلقة بالعملية التعليمية/التعلمية ، الواردة في المتيسر من كتبه ومصنفاته .
- مقارنة الأفكار التربوية الواردة عند الإمام ، مع الأفكار التربوية في العصر الحاضر , والنظر في إمكانية توظيف بعضها في العملية التربوية في العصر الحاضر .
- وضع أنموذج تربوي قائم على الفكر المستخلص من فكر الإمام الذهبي .

ثانياً : الإمام الذهبي ،عصره وحياته

أ. الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية في عصر الإمام الذهبي

من المعلوم بداهة أن الظروف المحيطة بالإنسان سواء السياسية ، أو الاقتصادية أو والاجتماعية ،أو الفكرية ، كثيراً ما تنعكس عليه ، وتترك آثاراً فيه ، كما أن هناك تأثيراً متبادلاً بين هذه العوامل بعضها في بعض ، ومن هنا فقد اجتهد الباحث في تناول الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، مبيناً – من خلال بعض الأمثلة – تأثر بعض مظاهر الحياة الثقافية ، والفكرية والتعليمية بتلك الظروف بشكل عام ، ومنوهاً إلى بعض مشاركات الذهبي فيها بشكل خاص .

– الحياة السياسية :

كان السلطان الملك الناصر صلاح الدين ، يوسف بن أيوب (ت ٥٨٩هـ) قد تمكن من توحيد مصر والشام ، في مسعى منه لخلق جبهة قوية لرد عدوان الصليبيين ، وبقي البلدان موحدين في ظل الأسرة الأيوبية التي امتد حكمها حتى سنة ٦٤٨هـ ، وكان آخر سلاطينهم توران شاه ، ابن الملك الصالح نجم الدين أيوب ، الذي قتل على أيدي مماليك أبيه بمؤامرة من سُرِّيّته شجرة الدر ، التي أقيمت بعده في السلطنة ، ليبدأ عهد جديد في حكم البلدين . مصر والشام ، وعرفت الدولة الجديدة باسم " دولة المماليك البحرية " . التي امتد حكمها مائة وستا وثلاثين سنة (٦٤٨–٧٨٤ هـ) وكان عدد من تولى الحكم من أولئك المماليك أربعة وعشرين ذكرا ، ما بين رجل وصبي ، وامرأة واحدة ... (المقريزي ، ١٩٩٨) .

وفي بداية حكم المماليك ، كان شر التتار قد استطار ، فغلبوا على بغداد ، حيث سقطت الخلافة العباسية سنة (٦٥٦هـ) . (السيوطي ، د. ت) فبقيت الأمة بدون خليفة ، والحكم في مصر والشام للمماليك ، فلما كانت سنة ستمائة وتسع وخمسين ، أقيمت في مصر الخلافة ، وانحصرت في ذرية العباسيين ، وكان أول خليفة عباسي في مصر ، المستنصر بالله أحمد ، الذي تولى الخلافة في عهد سلطان مصر والشام الظاهر بيبرس (المقريزي ، ١٩٩٨) ، وقد بلغ عدد الخلفاء في عهد سلطان مصر في عصر المماليك سبعة خلفاء (السيوطي ، د .ت).

ومهما يكن من أمر ، فإن ظهور الخلافة في مصر لم يكن يعني انتقال السلطة للخلفاء ، فالسلطة المطلقة كانت بيد السلطان المملوكي ، والخليفة ليس إلا ستاراً شرعياً يمارس السلطان في ظله الحكم ، وهو أيضا الذي يولي الخليفة ، وهو الذي يخلعه (السيوطي ، د. ت).

أما المماليك أنفسهم ، فكان بأسهم بينهم شديدا ، فبعضهم يثور على بعض رغبة في الحكم ، وإرضاء لشهوة السلطنة ، فقد قتلت شجرة الدر زوجها عز الدين أيبك ، وأقامت مكانه ولدها علياً ، فتمرد عليه قطز (ت٦٥٨ هـ) وخلعه ونفاه وأمه ، وتفرد بالحكم إلى أن قتله بيبرس (ت ٦٧٦هـ) ، وتولى السلطنة من بعده ، ويتوالى مسلسل الغدر والتآمر حتى نهاية دولتهم ، فمن لم تعاجله منيته من السلاطين كان يخلع من الحكم ، فيُقتل أو يُنفى (المقريزي ، ١٩٩٨) .

ولم يكن بأس المماليك بغيرهم ، أقل من بأسهم بينهم ، فقد تحرى المقريزي (١٩٩٨) عن بعض مواقفهم فقال : "ونزل بالناس من المماليك البحرية بلاء لا يوصف ، ما بين قتل ونهب وسبي، بحيث لو مَلَكَ الفرنج بلاد مصر ، ما زادوا في الفساد على ما فعله البحرية ".غير أنه لا ينبغي أن يفهم من هذا أن عصر المماليك كان وبالاً شديداً على العباد بصورة مطلقة ، فثمة مراحل كان لوجودهم فيها أثر فعال في الدفاع عن ديار الإسلام ، وبناء قواعد قوية للدولة، وتحقيق قدر من الاستقرار في حياة الناس ، ولا سيما في المرحلة الأولى من حكمهم ، إذ كان لهم الفضل في صد المد التتري ، وتحقيق النصر العظيم عليهم في عين جالوت سنة ٦٥٨هـ .

توالت إغارات التتار على أرض الشام ، حيث كانت قوات المماليك تقف لهم بالمرصاد في كل مرة فتردهم خائبين (الكتبي،١٩٨٤) . ولم يتمكن التتار من استباحة أرض الشام والعيث فيها فساداً إلا بعد انتهاء دولتهم (الشوكاني ، ١٣٤٨هـ) ، أما الفرنجة فقد حاربهم المماليك في أكثر من موقعة ، واستعادوا عدداً من الثغور والمدن منهم ، مثل : طرابلس ، وعكا.

وقد كان من تأثير ما تقدم – بخاصة إعادة تأسيس الخلافة بالقاهرة ، والنصر في عين جالوت – أن تجاوز المماليك – تقريباً – مسألة شرعيتهم في الحكم ، أو حلها لصالحهم (العمري، ١٩٦٨) حيث كانوا يشعرون بالغربة كونهم ليسوا من أصول عربية ، إضافة إلى مسألة كونهم مماليك بحد ذاتها ، فلما رأوا الناس يلتفون حولهم باعتبارهم المدافعين عن الإسلام وحماته ، زادت ثقتهم بأنفسهم . (خطاطبة ، ١٩٩٨) .

وعلى العموم فقد كان لحكم المماليك سيئات وحسنات فمن سيئاتهم أنهم عدّوا أنفسهم طبقة مميزة ، لها تعاليمها وتقاليدها الخاصة ، إلى جانب تقصيرهم بواجباتهم كحكام يفترض بهم

السهر على رعيتهم ، والمحافظة على كرامتها ، وإنهاضها من عثارها ، وتوجيهها إلى خيرها ، وتزويدها بوسائل القوة المعنوية ، وتقويم أخلاقها بطرق عملية ، وبث التعليم بين طبقاتها بسياسة ثابتة وخطط مرسومة دقيقة ، وإفهامها موضع حقوقها ومكان واجباتها ، إضافة إلى مهمة تثقيف الشعب وحسن توجيهه وإنهاضه ، أي أنهم أهملوا حقوق الشعب ، وقد تجلى هذا الإهمال في عدة مظاهر منها : الوظائف العامة وملكية الأرض ، والجيش ، والتعليم (سليم ، ١٩٤٧) ، فقد كانت الشام مثلا – وهي المملكة الثانية من ممالك الدولة المملوكية – تحكم من قبل سلطان مصر ، ويتولى النظر في شؤونها نائب السلطنة (الكتبي ، ١٩٨٤) ، يتبعه جهاز من المسؤولين الذين كانوا يتولون الإشراف على شؤون الدولة المختلفة ، على نحو ما هو قائم في مملكة مصر ، ففي دمشق " قضاة القضاة الأربعة يمثل كل منهم مذهبا من المذاهب السنية الأربعة ، وقاضٍ للعسكر ، وخزانة تخرج منها الإنفاقات والخلع ، وخزائن سلاح " (العمري ، ١٩٨٦) . وقد كانت معظم الوظائف المهمة بيد المماليك ، فكأنهم أقصوا الشعب عن كل نفوذ أو سلطة فهم جيش الدولة ، وموظفوها ، ولم يشركوا أفراد الطبقات الأخرى من الشعب في شيء من ذلك كله . مع أن لهم حقوقاً طبيعية فيه (سليم ، ١٩٤٧) .

أما الجيش فلم يكن يُسمح لغير طبقة المماليك من الاندماج في عداده ، أو يصبح عضواً فيه ، وكيف يسمح له بذلك ولم يثقف ثقافة عسكرية ، ولم يتدرب التدريب الرياضي المناسب الذي يؤهله لهذه العضوية . وكأنهم ينشدون جيشاً متجانساً بريئاً من كل عضو دخيل ؛ ولذلك فقد عد بعض المؤرخين تسرب عدد من أولاد الناس – كما كانوا يسمون العامة – إلى صفوف الجيش حين فسدت نظمه ، ونظم تعليم جنده في أواخر العصر ، ضربا من ضروب الفساد التي طرأت على نظمه (سليم ، ١٩٤٧) .

وتشير بعض الدراسات حول تاريخ استغلال الأرض وملكيتها لدى المماليك بأن الدولة كانت المالك الأكبر ، ويليها المؤسسات الدينية ، وقد انعكس هذا على شكل طغيان واستبداد على حياة العاملين في الأرض (زعرور ، ١٩٩٠) إضافة إلى الإقطاعات التي كانت تقتطعها الدولة سواء الإقطاعات العسكرية ، أو إقطاعات الأمراء ، والتي كانت تتوارث في أبنائهم (الباز العريني ، ١٩٦٧) .

أما الإهمال في جانب التعليم فقد تمثل بوجود نظامين للتعليم أحدهما لفئة المماليك الصغار وما يتعلق بتربيتهم العسكرية ، فيما يطلق عليه اسم (الطباق) ، وأما الآخر فقد كان

على شكل صدقات يقدمها المماليك وبعض الأمراء يتقربون بها إلى الله سبحانه وتعالى ، من خلال افتتاح بعض المدارس أو الخوانق أو الزوايا أو الربط ، أو المساجد ، أي أن الفرق كبير بين تقديم هذه الخدمات لأبناء الشعب باعتبارها واجبا من واجبات الدولة اتجاهه ، وبين تقديمها على أنها صدقة أو نافلة لا يشعرون بالإثم أو الجناية لو تركوها (سليم ، ١٩٤٧) ولا يعني هذا أن الباحث ينتقص من خدمات بعض السلاطين والأمراء والقادة والكبراء في هذا الشأن ، فهي وإن كانت أعمالا فردية ، فإنها بمجملها من حسنات هذه الدولة ، إلى جانب موقفها في الدفاع عن ديار المسلمين ، وصد الغزاة من التتار والفرنجة ، والمحافظة على استقلال البلاد .

ومما يذكر بالخير لهذه الدولة ، أن الحركة العلمية قد نشطت في زمانهم ، ويعود هذا إلى عدة عوامل ، منها :

- **<u>وقوع كثير من بلاد المسلمين في يد المغول :</u>** حيث أعمل هؤلاء البرابرة أيديهم في تقتيل العلماء وإتلاف الكتب العلمية ، الأمر الذي جعل الناس يلتفون حول المدافعين عنهم من سلاطين المماليك ، ويشدّوا أزرهم ويدعموا ملكهم .

أما العلماء الذين لقوا من الدولة التبجيل والاحترام والعيش السعيد , فقد شعروا بالواجب الملقى على عاتقهم أمام هذا الوضع ، فاجتهدوا في نشر الدين ، وتجديد العلم ، وجمع شتات المعارف ، وتضمينها كتباً تكون عوضاً عما أبيد ، وصدى لما فقد ، ورأوا أنهم إذا لم يغذوا السير في ميدان التدوين والتصنيف ، ويثبتوا ما تعيه قرائحهم ، وما تحفظه صدورهم ؛ أثموا في حق الدين والعلم إثما لا يغتفر ، وأحرجوا أمام التاريخ ؛ ومن هنا فقد امتلأت صدورهم حماسة، وفاضت نفوسهم تحفزاً إلى القيام بالواجب ، والاضطلاع بالمسؤولية ، فأشاعوا حركة إحياء علمية جليلة (سليم ، ١٩٤٩) كل في مجاله المتخصص به ، ومما يسترعي النظر في هذا العهد كثرة العلماء ، ولا سيما في مجال العلوم الدينية ، فاشتهرت أسماء عدد من الأئمة الفقهاء ، والحفاظ البلغاء ، يذكر الباحث منهم : شيخ الإسلام ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ) ، وتلميذه ابن قيّم الجوزية (ت ٧٥١هـ) ، وفي مجال التفسير ، اشتهر أمر ابن كثير (ت ٧٧٤هـ) وتفسيره متداول مشهور ، وفي الحديث ذاع صيت الحافظ المزي (ت ٧٧٤هـ) الذي وصفه الذهبي بأنه خاتم الحفاظ ، وناقد الأسانيد والألفاظ ، وفي مجال طبقات الفقهاء عظم فضل الإمام تقي الدين السبكي (ت ٧٧١هـ) صاحب طبقات الشافعية . وفي التاريخ صنفت في هذا العهد كتب في غاية القيمة ، فبالإضافة إلى كتاب الذهبي نفسه الموسوم بـ (تاريخ الإسلام) . صنف ابن كثير كتاباً أسماه (البداية والنهاية) ، ولعل هذا الكتاب من أفضل المراجع في دراسة تاريخ

الدولة الإسلامية، ووضع ابن الوردي (ت ٧٤٩هـ) تاريخاً عرف باسمه ، وصنف ابن الجزري (ت ٧٣٩هـ) كتابا سماه حوادث الزمان ، وفي المسالك والممالك ، بلغ ابن فضل الله العمري (ت ٧٤٩هـ) قمة المجد ، وكتابه (مسالك الأبصار في ممالك الأمصار) يعد من أفضل المصنفات العربية في هذا المجال.

وقد لفت هذا الوضع انتباه بعض علماء الغرب ، فقد أجابت دوروتيا كرافولسكي محققة كتاب مسالك الأبصار في ممالك إلام صار (دولة المماليك الأولى) لابن فضل الله العمري (ت٧٤٩) عن تساؤل (دي لتل) D.Little [(١)] : " لماذا ظهر هذا العدد الضخم من المؤرخين الكبار في حقبة بدأت كل الفنون والعلوم الأخرى – باستثناء فن العمارة – تتجه نحو الانحطاط ؟ فقالت : " أنه يمكن القول إن مثقفي هذا العصر كانوا مرغمين على الكتابة ، أو وجدوا أنفسهم يكتبون – ويكتبون التاريخ بالذات – بعد أن استطاع المسلمون تجاوز الصدمة المغولية الرهيبة ، وكانت الكتابة التاريخية وكتابة التراجم تعنيان أن المسلمين لا يزالون هنا ، ولا يزالون مؤثرين وفاعلين في التاريخ ، كما كان ذلك يعني ثقة بالنفس ، ووعياً بالذات وبما تحقق من انتصارات (العمري ، ١٩٨٦) .

– **انصراف العناية إلى اللغة العربية** : حيث إنه مما عاون أهل العلم في تلك الآونة ,عناية السلاطين باللغة العربية ، عناية اضطرتهم الظروف إليها اضطراراً ، فأطلقوها تجري كما شاءت لها الأقدار في ضبط أمور الملك والسياسة والقضاء والعلوم ، وذلك لعجز لغتهم التركية أو الجركسية عن أداء ما يتطلبه هذا الملك الواسع من ضبط وأمن وربط ، ونشر تعليمات ، وبعث مراسلات وما إلى ذلك ، قياسا مع اللغة العربية الغنية بمفرداتها ، وتراكيبها ، وطرق الأداء فيها ، ومصطلحاتها . ولهذا فقد استعانوا بطائفة من العلماء الذين تخرجوا في اللغة والدين، وبرعوا في الإنشاء والترسل وأفسحوا لهم مجال العمل والترقي في ديوان الإنشاء

---

(١) هو صاحب كتاب (An Introduction to mamluk Historiography) مسالك الأبصار للعمري ص:٣٠

وأعمال الكتابة والضبط ، مما ساعد على تشجيع الاشتغال باللغة وعلومها ، وأكبر الظن أن السلاطين ما عنوا بفتح المدارس ، وإنشاء المساجد الجامعة ، وتقرير الدروس فيها إلا لضمان استمرار تخريج أفراد من هذه الطبقة العاملة، التي يقع على كاهلها عبء كبير من أعباء الدولة وتصريف أمورها وضبط مشاكلها (سليم ، ١٩٤٩) ، وقد اشتهر في مجال الدراسات اللغوية التي أفاد منها الطلبة في ذلك العصر أسماء عدد من اللغويين ، يذكر الباحث منهم : ابن مالك، صاحب الألفية المشهورة في النحو(ت ٦٧٢هـ) والقزويني صاحب (تلخيص المفتاح) في البلاغة، والفيومي (ت ٧٧٠هـ) صاحب (معجم المصباح المنير) ، والنويري (ت ٧٣٢هـ) مؤلف كتاب (نهاية الأرب في فنون الأدب) ، وجاء في فترة متأخرة القلقشندي (ت ٨٢١هـ) بكتابه (صبح الأعشى في صناعة الإنشا) الذي تكلم فيه حول علم الإنشاء وما يتصل به من علم وأدب وخط ورسم . وللذهبي كما سيأتي لاحقاً تعليقات جميلة على ما يجب أن يتحلى به المنشئ ، والشروط الواجب توافرها فيه ، إضافة إلى رأيه في اللغة وآثار التقصير فيها .

– **إنشاء دور التعليم ونظامها** : أشار الباحث فيما سبق إلى وجود نظامين تعليميين – إن جاز التعبير – في الدولة ، الأول يتعلق بتربية المماليك في الطباق ، والثاني ويتحدث عن أبناء العامة، أما النظام الأول – أي ما يتم في الطباق – وهي اسم يطلق على المكان الذي يتلقى فيه المماليك الصغار تعليمهم ، فقد شرح المقريزي (١٩٩٨) تربيتهم ، وخلاصة ذلك : أن الرسم كان في أول عهد السلاطين المماليك إلا تجلب التجار سوى المماليك الصغار ، فأول ما يبدأ به فيما اصطلح العرف على تسميته " رسم الكتابة " ، هو أن يحفظ أجزاء من القرآن الكريم ، ولكل طائفة فقيه يحضر إليها كل يوم ، ويأخذ في تعليمها القرآن والخط وآداب الشريعة والصلوات والأذكار ، فإذا شب الواحد منهم ، علمه الفقيه شيئا في الفقه ، وأقرأه في مقدمة ، فإذا صار إلى سن البلوغ أخذ معلم في تعليمه أنواع الحرب من رمي السهام ولعب الرمح ونحو ذلك ، وإذا ركبوا إلى لعب الرمح لا يجسر جندي ولا أمير أن يحدثهم أو يدنو منهم، وينقل المملوك بعد تمرينه وعتقه إلى الخدمة ، وينتقل في أطوارها رتبة بعد رتبة حتى يصبح من الأمراء ، فيبلغ ذلك بعد أن تهذبت أخلاقه ، وكثرت آدابه ، وامتزج تعظيم الإسلام وأهله بقلبه ، واشتد ساعده في رماية النشاب ، وجنح بعض المماليك إلى الدراسة الفقهية أو غيرها من الدراسات المدنية ، وصار منهم الفقيه والأديب والشاعر والحاسب .

وتشير بعض الدراسات أن مدة الدراسة في الطباق تمتد بين أربعة أو خمسة عشر شهراً وأحيانا تمتد إلى سنتين ، فإذا انتهت الدراسة اعتق المملوك ، وعمل له احتفال تخريج يحضره

السلطان والأمراء ، ويحصل على شهادة ويسمى " عتيقاً " ، ويعطى فرساً ولباساً خاصاً (خطاطبة ، ١٩٩٨) .

وأشار بعضهم إلى أن تعليم أبناء السلاطين ، والأمراء لم يكن مختلفاً عن مناهج الطباق الكتابية ، بل تعلم بعض المماليك الكتابة فعلاً مع أبناء السلاطين والأمراء في مكتب خاص في بيوتهم (الباز العريني ، ١٩٦٧) . ويلاحظ أن الاهتمام بهذا النوع من التعليم العسكري ، إنما يأتي لحاجة البلاد إليه ، للوقوف في وجه الأعداء ومواجهة التهديدات المستمرة للدولة.

أما النوع الآخر من التعليم الذي كان لأبناء العامة ، والذي كان انعكاساً للأوضاع السائدة ، فيمكن القول أن سياسة التعليم ، وافتتاح المدارس لم تكن سياسة ثابتة للدولة ، وإنما هي سياسة فردية مرتجلة مقيدة برغبة السلطان أو الأمير ، والرغبة العارضة الطارئة التي يدفع إليها – عادة – حب الظهور أو الزلفى إلى الله ، أو الإبقاء على بعض الممتلكات بوقفها على المدرسة المنشأة أو نحو ذلك . ومن المؤسف أن بعض المدارس كانت تعيش بمعيشة مُنشئِها يرعاها ويكفلها ويعنى بشؤونها ، فإذا مات ، لحقها البوار ، ولعبت يد العبث في أوقافها ، وانتابها الإهمال في كل مكان ، حتى يعفى أثرها ويزول خبرها (سليم،١٩٤٩)

وقد تمثلت أماكن التعليم في هذا العصر في الكتاتيب التي كانت تستقبل الطلبة ، فيتعلمون فيها القراءة والكتابة ، والتي أطلق عليها ابن جبير (د.ت) " محاضر لمعلمي الصبيان" والتي كان عدد الملتحقين بها من الصبيان يتراوح بين ٣٠-٤٠ طفلا ، يجلسون القرفصاء حول المعلم (Dodge , 1962) . كما تمثلت فيما أنشئ من مدارس ، أو ما كان يعود تأسيسه إلى عهد الأيوبيين (٥٦٩هـ -٦٤٨هـ) وبقي يستقبل طلبة العلم في العهد المملوكي (ابن خلدون ، د.ت) حيث كان أكثرها مدارس دينية ، تدرِّس الفقه على المذاهب الأربعة ، فثمة مدارس للشافعية ، وأخرى للأحناف ، وثالثة للمالكية ، ورابعة للحنابلة (ابن بطوطة ،١٩٨٥) إلى جانب ما أحصاه ابن طولون في كتابه "القلائد الجوهرية " (١٩٨١) حيث ذكر أكثر من سبعين مدرسة تعنى بتدريس الفقه ، إلى جانب مدارس تعنى ببعض علوم القرآن وأحكامه . ومن أماكن التعليم التي اشتهرت أيضاً ، دور الحديث الشريف ، سواء التي كانت مستقلة بذلك ، أو مشتركة مع دور القرآن الكريم ، وهي عبارة عن بناء مستقل فيه غرف لطلاب الحديث ، أو تكون في أحد الجوامع الكبيرة ، أو جناحاً خاصاً في إحدى المدارس التي يدرس فيها علوم مختلفة، وقد تكون

في إحدى المنشآت الصوفية التي تعد دور عبادة وعلم . ويتبع هذه المنشآت أيضا ما عرف بالخوانق ، والزوايا ، والربط ، والترب (الحجاج ، ١٩٩٧) .

أما المستشفيات والتي كانت تعرف بالمارستانات ، فقد كان بعضها مجالا لتدريس العلوم الطبية (حسن ، ١٩٩١) ، وكان علم الطب يدرس أيضاً في مدارس خاصة عرف منها في هذه المرحلة : المدرسة الدخوارية ، والمدرسة اللبودية نسبة إلى نجم الدين يحيى المعروف بابن اللبودي ، والمدرسة الدنيسرية نسبة إلى عماد الدين محمد بن عباس الدنيسري.(ابن أبي اصيبعة ، د.ت) . و(كرد علي ،١٩٢٨)

وقد ذكر الذهبي – رحمه الله – بعض هذه الأماكن في كتبه ومصنفاته سواء من خلال تعرضه لأماكن تلقيه للعلوم ، أو الأماكن التي عمل فيها مثل دور الحديث.

وتشير بعض المراجع إلى أن بعض المساجد والمدارس قد وضعت بهدف تدعيم المذهب السني ونشره والقضاء على المذهب الشيعي وأتباعه في المنطقة (الخرابشة ،١٩٨٥) ، وهذا ينسجم مع المذهب السني الذي كان يعتقده المماليك ، ويدينون الله به .

كما أشار المقريزي(١٩٩٨) إلى أن بعض المدارس ,كانت تزود بمساكن يأوي إليها شيوخها وطلابها

وأضاف سليم (١٩٤٩) أن دور العلم كانت مفتوحة دون قيود أو إرهاقات مالية ، بل إن المشايخ والطلاب معاً ، كانوا يجدون من صنوف البر ألوانا شتى ، تعينهم على طلب العلم وحبه والاستمرار فيه ، مما أوقف عليهم أو منح لهم أو أهدي إليهم .

وقد مهدت الحوادث التي سبقت هذا العصر كنكبة العباسيين ، والحروب الصليبية ، وغير ذلك من الكوارث التي أصابت المسلمين لحدوث رد فعل في نفوسهم ، دفعهم إلى التمسك بالإسلام ، ومن ثم الالتزام بعلومه وعلوم لغته ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى، عني عظماء العصر بافتتاح المساجد والمدارس ونحوها تقربا إلى الله وزلفى فلا يمكن – والحالة هذه – أن تتقرر فيها دروس غير دينية ، وإذا كان ثمة دروس أخرى ، فلتكن لغوية كونها تمت للأولى بصلة ،ثم تأتي بعد ذلك العناية بالدروس الكونية ،وليس بمستساغ عادة أن يدرس الطب والفلك مثلا في أحد مساجد الله ، وتهمل علوم الدين أو علوم اللغة المرتبطة بها . ولهذا كانت الدروس الدينية في مقدمة الدروس المقررة ، ومن أهمها فقه المذاهب الأربعة وأصولها ، ويليها دروس الحديث ، فدروس التفسير ، ودروس الوعظ والكلام والتصوف ، ثم دروس النحو

والصرف ، وقد عني بغير تلك الدروس عناية فرعية ،كدروس الأدب والطب والفلك والهندسة والتاريخ والتقويم والرياضة ، ولعل الهندسة كانت أحظاها بالعناية للحاجة إليها في البناء

أما العلوم الأخرى كالكيمياء والسيمياء وعلم المنطق ، والفلسفة والحكمة ، وما وراء الطبيعة، فقد كان الناس ينظرون بريبة إلى المشتغلين بها ، إضافة إلى انعدام وسائل التشجيع عليها. ويلاحظ أن ضعف الثقافة العامة ، والاهتمام الشديد بعلوم الدين ، والحروب والفتن الداخلية حالت دون بروز هذه العلوم وانتشارها كما كانت عليه في عصور سابقة .

ولما كان هذا وضع المناهج في ذلك العصر ، فقد رأى الباحث أن الذهبي انبرى لينتقد هذه العلوم والعاملين فيها . ويضع بعض الشروط التي يرى وجوبها لتؤتي العلوم أكلها بشكل سليم .

ومن الجدير بالذكر أن هذا النوع من التعليم قد شابه بعض الفوضى والاضطراب وعدم النظام والدقة المطلوبة ، مثل اختلاط الطلاب الكبير منهم مع الصغير ، والمجد مع الخامل ، وانعدام الامتحانات التي تظهر الكفاءة ، وعدم وجود التقسيم المدرسي الذي يقسم الطلاب إلى سنوات دراسية حسب كفايتهم العلمية ، وغير ذلك مما يراعى في نظم التعليم الحديث (سليم ، ١٩٤٩) .

وقد اعتنى الطلبة في ذلك العصر بتقوية ملكة الحفظ لديهم ، ولعل الرغبة في حفظ أحاديث الرسول عليه السلام كان لها دخل في توجيههم ذلك ، إضافة إلى ما كان يلقاه الحافظون من تقدير في المجتمع الإسلامية حينها .

- الحياة الاقتصادية :

اعتمدت حياة نيابة دمشق الاقتصادية في العصر المملوكي – في الغالب – على الزراعة التي كان بعضها يسقى بمياه الأمطار ، وبعضها بماء الأنهار ، فدمشق معروفة بكثرة أنهارها وجريان الماء في قنواتها ، وقد وصفها ياقوت الحموي (١٩٧٩) فقال : "ومن خصائص دمشق كثرة الأنهار بها ، وجريان الماء في قنواتها ، فَقَلّ أن تمر بحائط إلا والماء يخرج منه في أنبوب إلى حوض يشرب منه ، ويستقي الوارد والصادر ، وما رأيت بها مسجداً ، ولا مدرسة ، ولا خانقاها ، إلا والماء يجري في بركة في صحن هذا المكان ويسح في ميضأة " .

ووصفها ابن جبير (د.ت) في رحلاته بوصف مشابه فقال : " إنها جنة المشرق ، وعروس المدن ، قد تحلت بأزاهير الرياحين ، وتجلت في حلل سندسية من البساتين ، ظل ظليل، وماء سلسبيل "

ولما كانت الدولة من أهم المستفيدين من استغلال الأراضي ، فقد أسهمت في أعمال فتح القنوات ، واستصلاح الأراضي ، وبناء الجسور ، وإنشاء السدود ، وإقامة النواعير (زعرور ، ١٩٩٠).

وقد ساعدت طبيعة المكان ، والماء الوفير ، والتسهيلات المناسبة على أن تجود الأرض بخيراتها بتوفيق الله تعالى ، فتتحقق نعمه ، ويفيض الناتج ، الذي يتم تصديره وفي هذا يقول ياقوت (١٩٧٩) : "وبها فواكه جيدة طيبة ، تحمل إلى جميع ما حولها من البلاد من مصر إلى حرّان " .

كما كان للصناعة دور في حياة دمشق الاقتصادية ، حيث كانت تشتهر بالصنّاع المهرة في كل فن ، وكانت مصر ، وبلاد الروم تستمد من صناعاتها ، ويبدو أن الحرب مع بلاد الفرنج لم تمنع قيام العلاقات التجارية بين رعاياها المتحاربين ، بل إنها بقيت مستمرة كما كانت في عهد صلاح الدين بين دمشق الإسلامية ، وعكا الصليبية (ابن جبير ، د.ت) .

ومن أشهر الصناعات في تلك الفترة ، النحاس المطعم ، والزجاج المذهب ، وجلود الخراف المدبوغة ، كما كانت تصنع في دمشق ، الأقمشة القطنية والحريرية ، والورق المصقول ، إضافة إلى معامل لإنتاج السلاح ، ففي خزائن أسلحتها كان يصنع المنجنيق ، كما يصنع الزرد ، وأنواع القسي (جمع قوس) المختلفة ، والمتأمل يرى أن هذه الصناعات كانت تلبي حاجات تلك الفترة ، ومتطلباتها .

ويشير بعضهم إلى أن قطاعا من الشعب عمل في مجالات تصنيع العقاقير ، والعطور والأشربة ، والتوابل ، واختصوا بها ، كما اختصت جماعات كثيرة ببيعها ، ومع ذلك لم نسمع بذكر الإقبال على صناعة السموم وتحضيرها ، كما كان رائجاً في بعض الأوساط الأوروبية (زعرور ، ١٩٩٠) .

ويستعرض سليم(١٩٤٩) هذه الصناعات والحرف مبينا كثرتها في تلك البلاد ، إلى أنه يشير بأن أغلبها كان مبنيا على التقليد ، والتجارب الشخصية أكثر من بنائه على أسس تعليمية دقيقة منظمة ، وكانت حقائقها فردية جزئية متفرقة ، أكثر من كونها عامة مجموعة ، مؤسسة على قواعد علمية ثابتة ، كما أنها لم تكن منظمة بطريقة يسهل إلقاؤها في دروس مرتبة ، كما كان الشائع في العلوم الدينية ، كما لم تكن دروسها واسعة المجال منتشرة ميسورة كتلك الدروس ومع ذلك فالباحث يجد أنه كانت هناك أصوات تدعو إلى تعلم العلوم النافعة للمسلمين ، فهذا

الإمام الذهبي يعد تعلم مهمات الطب من المستحبات (الذهبي ، ١٩٨٨، ١٣) ، (الذهبي ، ١٩٨٧، ١٥) [1] .

ولا شك أن الوضع الاقتصادي كانت له آثاره على البلاد ، فقد ساعدت وفرة الأموال لدى بعض فئات المجتمع بسبب الثروات الطائلة التي جنوها من التجارة والزراعة ، أو ما شابه على قيام بعضهم بتشييد الجوامع والمساجد والخوانق والزوايا والربط ، وإيقاف بعض الأماكن عليها لخدمة البناء والمعلمين والطلبة ، وتذكر بعض المصادر – مثلا – أن المدرسة التنكزية في القدس ، قد أوقف لها ضيعا ومزارع ، ورتب رواتب للمدرسين فيها بواقع ستين درهما فضة شهريا للمدرس ، وللمعيد عشرين درهما ، والفقيه المتوسط خمسة عشر درهما ، والفقيه المبتدئ أربعة دراهم ، وقارئ الحديث عشرين ، والطلبة سبعة دراهم ونصف ، والصوفية عشرة دراهم،هذا بالإضافة إلى ما كان يخصص لهم من الخبز يوميا ، والذي يتراوح بين نصف رطل أو ثلث رطل يوميا " (خطاطبة ، ١٩٩٨) .

ويذكر ابن جبير (د.ت) أنه رأى في الجامع الأموي في دمشق حلقات تدريس للطلبة ، كان فيها للمدرسين إجراء واسع على عملهم ، كما كان للطلبة الغرباء إجراء معلوم ، أما الصبيان فقد كان لهم على قراءتهم جراية معلومة ، لكن أهل الجده (الأغنياء) من الآباء كانوا ينزهون أبناءهم عن أخذها بينما يأخذها الفقراء (Tritton,1957) وقد عُدَّ العطاء والترفع كلاهما من المفاخر الإسلامية ويذكر أيضا أن الأيتام من الصبيان كان لهم محضرة كبيرة بالبلد، لها وقف كبير يأخذ منه المعلم لتلاميذه ما يقوم بهم ، وينفق منه على الصبيان ويقوم بكسوتهم (ابن جبير , د.ت) .

– الحياة والاجتماعية :

وصف العمري (١٩٨٦) دمشق في ذلك الحين بأنها كانت مدينة حسنة الترتيب ، جليلة البناء ، تعمر أبنيتها بالحجر والخشب والرخام ، وفيها البساتين الأنيقة والعمائر الفخمة ، والقصور الفارهة بتأليف غريب ، وإحكام عجيب ، وهذا يدل على العناية الفائقة التي لاقتها الهندسة وفن العمارة في ذلك العصر .

---

(١) بلغ عدد مؤلفات الذهبي التي اعتمد عليها الباحث في دراسته ٣١ مصنفا ، تم ترتيبها هجائيا في صفحة المراجع ، أما في المتن فسيكون التوثيق على النحو التالي : (الذهبي ، سنة النشر ، ترتيب الكتاب ضمن كتب الذهبي الواردة في المراجع) .

أما أسواقها فكانت مليحة الترتيب ، تعتمد التخصص ، فثمـة سـوق للخيـل ، وآخـر للزرابلية (بائعي الأحذية) ، وثالث للقطانين ، ورابع للنجارين ، وخامس للشـماعين (بـائعي الشمع) وسادس للوراقين ، وسابع للصفارين (المتعاملين بالنحاس وصـنعته) (ابـن بطوطـة ، ١٩٨٥).

ويتبع الترتيب ، ما كان من إبعاد حوانيت الخبازين ، والطباخين والحدادين ، وكل مـا احتاج إلى استخدام النيران ، أو صدر عن عمله روائح قـد تـؤذي ، إلـى أطـراف المدينـة (زعرور، ١٩٩٠) ويراقب عمليات الشراء والبيع ، ومنع اضـطراب الأوضـاع ، والغـش والتدليس وأعمال الوزن والقياس وصحتها ، ما عرف في ذلك الزمان بالمحتسب ، الذي كـان يعين في كل سوق عريفاً يساعده وينوب عنه ويقوم بمهمته .

وينقسم المجتمع في العصر المملوكي إلى فئات اجتماعية هي :

- المماليك الذين كانوا يقفون على رأس السلم الاجتماعي ، وتسميهم المصادر (أرباب السيوف) ولهم مناصب خاصة بهم –إضافة إلى السلطنة– ،مثل أمرة السلاح ، أو نقابة الجيوش ، أو الولاة ، أو أصحاب الشرطة وطبقتهم ، أو تدبير أمور بيوت السلاطين .
- فئة كبار موظفي الدولة من غير العسكريين ، وتسميهم المصادر (أرباب الأقلام) ، ومن الوظائف التي كانت بأيديهم الوزارة ، وكتابة السر وما يتعلق بها مـن قـراءة الكتـب الواردة عن السلطان وإجابتها ، ونظر الخزانة ، ونظر الاصطبلات .
- فئة العلماء والفقهاء والخطباء ، ووظيفتا الحسبة ووكالة بيت المال .
- فئة التجار .
- سائر الناس و العامة وهم الفئة والاجتماعية إلاخيرة . (العمري ،١٩٨٦) .

ويشير المقريزي (١٩٩٨) أن هذا التقسيم قد تأثر بالانهيار الاقتصادي وإلا داري الذي أصاب الدولة والمجتمع مطلع القرن التاسع الهجري ، وما صاحبه من قحط وجفـاف وأزمـات تموين وغلاء ، كما صاحبه أو جاء في سياقه تراجع أخلاقي وفساد ومظالم وسوء اقتصاد ، وقد أدى ذلك إلى ضرب التكوين الاجتماعي وإحداث شروخ عميقة فيه ، وكان من نتائج هذه الهزة والاجتماعية ، تراجع عدة فئات اجتماعية عن مراكز الصدارة لصالح فئات جديدة أو قديمـة , وما يهم هنا أن العلماء والفقهاء الذين كانوا يقفون على الدرجة الثالثة في سلم العمري ، انحطوا إلى الدرجة الخامسة ، بينما تقدم التجار ليحتلوا المرتبة الثانية بعد كبار رجال الدولة من أمـراء المماليك .

ولا شك أن هذا الوضع كانت له آثاره في كلا الترتيبين على الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية ومن ثم على الناحية الثقافية والتعليمية ، مع انعدام السياسة الثابتة للتعليم – كما ذكر الباحث سابقا –

وإذا انتقل الباحث إلى مظاهر الحياة والاجتماعية في هذا العصر ، فالملفت للنظر تلك المجالس التي كانت تعقد للوعظ ، أو الاستماع للقصص الشعبية والتي كان يختلط فيها العلم مع الخرافة ، ومن المظاهر الأخرى العيد ومظاهره سواء عند المسلمين أو النصارى ، والاحتفال بالموالد ، وموسم الحج ومظاهره ، والموت والنواح وزيارة القبور والمزارات وبعض مظاهر التصوف ، والعقائد المنحرفة (زعرور،١٩٩٠)

وقد كانت هذه المظاهر مدار نقاش بين العلماء وطلبة العلم وفي مجالس العلم ، فقد نهى الذهبي في كتابه " تشبه الخسيس بأهل الخميس " عن بعض السلوكات التي كان يقوم بها بعض المسلمين في أعياد اليهود والنصارى . ووجه نصائحه المستمدة من عقيدته السلفية إلى الآباء وأولياء الأمور ليجنبوا أبناءهم ذلك ، كما نصح أولي الأمر بضرورة منع هذه المظاهر لما في ذلك من تعد على المسلمين ومعتقداتهم ، وإظهار لشعائر أهل الذمة الكفرية . ولم ينس أن يبين أهمية التسامح والمعاملة الحسنة مع الجار النصراني ، دون تنازل في العقيدة . وفي الكتاب يجد القارئ آراء الذهبي في موضوعات اجتماعية أخرى كالزيارات وما يشوبها ، وقضايا البيع والشراء والاحتيال .

ومن المظاهر التي سادت في تلك العصر قضية المذهبية والتعصب لها ، حيث انتشرت المدارس المتخصصة بكل مذهب من المذاهب الأربعة ، إضافة إلى المتكلمين والأشاعرة ، وقد رأى الذهبي وهو حنبلي المذهب أن من الخطأ أن يتعصب العالم أو المتعلم لمذهبه ويعادي غيره وفقا لذلك .

أما في الجانب الإنساني ، فقد تميزت دمشق بكثرة الأوقاف التي كان يقفها المحسنون على جهات الخير ، فقد ذكر بعض الرحالة أن الأوقاف كانت لا تحصر أنواعها ومصارفها لكثرتها ، وعدّ منها ، ما كان يوقف لتجهيز العاجزين عن الحج ، وما كان لتجهيز البنات لأزواجهن ، وما كان لأبناء السبيل ، أو لتعبيد الطرق وبناء الجسور ، وعدّ ستة عشر رباطا كانت معدة للعجائز والنساء والأرامل في منطقة واحدة من المدينة . أما الأوقاف التي كانت

توقف على المدارس فهي كثيرة إلى درجة جعلت بعض الدارسين يتوهم أن دمشق وضـــواحيها أصبحت مبثوثة لتلك المدارس (ابن بطوطة , ١٩٨٥) و (شميساني ، ١٩٨٣) .

وفي مجال الرعاية الصحية ، كانت في دمشق بيمارستانات (مستشفيات) توقف عليها الأوقاف الكثيرة ، وتمارس دورها في تقديم الرعاية والعلاج للمرضى ، ومن أشهرها ، بحسب ما ذكرته المصادر : البيمارستان الكبير (البيمارستان النوري) الذي يرجع إلى عهــد الملــك العادل نور الدين زنكي (ت ٥٦٨هـ) ، وبيمارستان باب البريد (ابــن أبــي أصــيبعة ، د.ت) والبيمارستان الشرقي ، والبيمارستان القيمري – نسبة إلى سيف الدين القيمري أحد أكبر أمراء القيامرة – وهو أجل تلك البيمارستانات ، فقد وصف بأنه لم يكن في الدنيا مثله ، وكــان هــذا المستشفى يستقبل النزلاء ، ويصنفهم حسب حالاتهم المرضية ، وألحقت به عيادة خارجية ، هي أشبه بعيادة الطوارئ في أيامنا (ابن طولون ، ١٩٨١) وقد أحصى بعضــهم العــاملين فــي المستشفى من أطباء عامين ، وأطباء عيون ، ومشرفين وصيادلة ، وعمال ، وخدم من الجنسين، إضافة إلى عدد من الأئمة والبنائين ، والبوابين . وبين راتب كل منهم وما كان يصرف له من مواد عينية (Ziadeh , 1953) وتبين بعض الدراسات بأن تاريخ بعض المدارس يشــير إلــى تدريس الطب فيها ، ومن الأمثلة على ذلك جامع ابن طولون الذي قيل بأنه كانت ترتــب فيــه بعض دروس الطب (سليم ، ١٩٤٩) .

ولا شك أن سمات هذا العصر قد تركت آثارها على الإمام الذهبي فقد قام بواجبه فــي المشاركة في حملة حركة الإحياء العلمية من خلال وضعه للعديد من المؤلفات في المواضــيع المختلفة حيث ترك للأمة كتباً تعني بالناحية التاريخية لــذلك العصــر وغيــره مثــل تــاريخ الإسلام،والعبر، ودول الإسلام ،وقد اظهر الذهبي في تلك المؤلفات براعة في العرض ودقة في التحليل والنقد إضافة إلى المعلومات الغزيرة ، وانبرى ليقف في وجه الصوفية وما أشاعه بعض الجهلة من خرافات ، فبين للناس أوجه انحرافاتهم مقارنا ذلك مع تصــرفات الســلف الصــالح – رضوان الله عليهم – وقد ظهر هذا واضحاً في كتابه سير أعلام النبلاء .

ويعد عمله في الأحاديث وعلم تراجم الرجال من أبرز ما قدمه من خــدمات للأمــة لا زالت تلمس آثارها لدى طلبة العلم حتى في العصر الحاضر ، فإمامة الذهبي في هذا الشــأن لا يختلف فيها اثنان فقد ذكر السيوطي في كتابه تذكرة الحفاظ أن المحدثين الآن عيال في الرجــال وغيرها من فنون الحديث على أربعة : المزي ، والذهبي ، والعراقي ، وابن حجر (السلامة ، ٢٠٠٢) ومن أشهر كتبه في هذا المجال : ميزان الاعتدال في نقد الرجال .

وقد ورد في بعض كتبه ما يعد انتقاداً للأوضاع والاجتماعية والاقتصادية في عصره فقد بين رأيه في قضية أخذ الأجرة على التعليم في عصره وان كانت لا توافق المعمول به في هذا العصر . كما انتقد بعض مظاهر الحياة والاجتماعية بخاصة في كتابه : تشبيه الخسيس بأهل الخميس . أما في مجال الرعاية الصحية فقد ترك للأمة كتابه الطب النبوي . الذي جمع فيه بين الصحة الجسمية والنفسية .

أما عن موقف الذهبي من علوم عصره والمنشغلين بها ، فقد كانت مشاركته واضحة في هذا المجال من حيث دعوته إلى أهمية طلب العلم وتعليمه ونشره بين الناس وبخاصة في ظل الظروف التعليمية الصعبة التي عاشتها الأمة في ذلك العصر . إضافة إلى تشدده في رفض بعض العلوم وانتقاده للعاملين بها انطلاقاً من العقيدة التي يحملها ، والظروف التي قد لا تسمح بشيوع تلك العلوم .

وبعد : فهذه أمثلة من تفاعل الذهبي مع ظروف عصره تأثراً وتأثيراً ، حيث ستكون الشواهد في ثنايا الدراسة اكثر.

ب. ترجمة الإمام الذهبي(١) :

– نسبه ومولده :

هو الحافظ والناقد والمقرئ والمحدث والمؤرخ الإمام شمس الدين الذهبي ، ترجم لنفسه فقال : الذهبي ، محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز ابن الشيخ عبد الله التركماني ، الفارقي (٢) ، ثم الدمشقي ، الشافعي ، المقرئ ، المحدث، مخرج هذا المعجم (الذهبي ، ١٩٨٨، ٢٥) .

لم يجد الباحث كثير اختلاف في نسب الإمام وشهرته ، سوى ما أورده بعضهم في نهاية نسبه بقوله : الذهبي ، وابن الذهبي(٣) مستشهدا ببعض ما ورد في بعض المواقع التي نسب الذهبي نفسه فيها بقوله : (ابن الذهبي) ، مثل رسالته: أهل المئة فصاعداً ، وكتاب " تاريخ علماء أهل مصر " وفي كتابيه الشهيرين " السير " ، " وميزان الاعتدال " (سعد , ١٩٨٦)

ولد الذهبي في ربيع الآخر (٤) سنة ثلاث وسبعين وستمائة للهجرة ، بكفر بطنا في دمشق. وكان والد جده قايماز (ت ٦٦١هـ) قد انتقل من (ميافارقين) إلى بلاد الشام ، أيام الملك الشهيد نور الدين محمود زنكي (ت ٥٦٨هـ) فنزل دمشق واتخذها موطناً وسكناً هو وأولاده من بعده (شميساني ، ١٩٩٠) .

---

(١) من مصادر ترجمته ، انظر : البداية والنهاية لابن كثير (١٨:٥٠٠) ، والدرر الكامنة لابن حجر العسقلاني (٣:٣٣٦) ، والوافي بالوفيات للصفدي (٢: ١٦٣) ، وفوات الوفيات للكتبي (٣:٣١٥) وطبقات القراء لابن الجزري (٢:٧١) ، والقلائد الجوهرية لابن طولون (٢:٣٢٨) . وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي (٦:١٥٢) وتاريخ ابن الوردي (٢:٤٩٩) ، وهدية العارفين للبغدادي (٦:١٥٤) ، وطبقات الحفاظ للسيوطي (٥٢١) ، والرد الوافر لابن ناصر (٦٦) ، والدارس في تاريخ المدارس للنعيمي (١:٧٨) ، والبدر الطالع للشوكاني (٢:١١٠)، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي (١٠:١٤٤) ، وطبقات الشافعية الكبرى للسبكي (١:١٠٠)، والتاج المكلل للقنوجي (٤١١) ، والأعلام للزركلي (٥:٣٢٦)، وكنوز الأجداد ، لمحمد كرد علي (٣٥٣)، ومعجم المؤلفين لكحالة (٣:٨٠)، وأعلام التاريخ والجغرافيا عند العرب للمنجد (١٠٤)، وصفحات في ترجمة الحافظ الذهبي لقاسم سعد (٩)، والحافظ شمس الدين الذهبي الشميساني (٣) و (AD-Dhahabi,p.1-2و(Houtsma,V:1(A-D) ,P.954-955) .

(٢) الفارقي : نسبة إلى " ميافارقين" في ديار بكر من الجزيرة الفراتية (ياقوت : معجم البلدان ، ٥ : ٢٣٥) .

(٣) أشار بعضهم إلى احتمالية اتخاذ الذهبي لصنعة والده ، لذلك عرف عند بعض معاصريه بالذهبي ، وعند آخرين بابن الذهبي نسبة لصنعة والده (معروف،١٩٧٦) ، بينما أشار العلامة عبد الفتاح أبو غدة في حاشيته على قاعدة السبكي في الجرح والتعديل (ص ٣٢–٣٦) إلى خطأ من يقول أن الذهبي تعاطى صنعة الذهب في صباه، وبين أن نسبته نفسه إلى الذهبي هي على سبيل الاختصار ، والله أعلم (سعد،١٩٨٦).

(٤) وقال بعضهم في ربيع الأول (الكتبي ،ب،٣:٣١٥) ، وكحالة (٣:٨٠) .

- النشأة والبدايات

قضى الذهبي نشأته في أكناف أسرة علمية ومتدينة وغنية ، فوالـــده أحمـــد المعـــروف بـــ (الشهاب) (ت ، ٦٩٩هـ) ترك صناعة النجارة ، ومال إلى صناعة الذهب المدقوق فتميـــز بها وبرع ، ولهذا سمي بالذهبي ، وقد يسرت له هذه الصنعة رخاء وغنى ، دفعاه إلـــى عمـــل الخير ، والرغبة في طلب العلم ، حيث بلغ منزلة جعلت خلقا كبيرا من أهل دمشق يشيعونه يوم وفاته (شميساني ، ١٩٩٠) .

وكانت مرضعته ، وعمته ، ست الأهل بنت عثمان (ت ، ٧٢٩هـ) قد حصـــلت علـــى الإجازة من أكثر من واحد من علماء عصرها ، وقد قرأ عليها الإمام متعلماً على يـــديها ، أمـــا خاله علي بن سنجر (ت ، ٧٣٦هـ) ، وزوج خالته فاطمة ، أحمد بن عبد الغني الأنصاري (ت ، ٧٠٠هـ) ، فقد عدهما الذهبي من شيوخه ، وترجم لهما .. (الذهبي ، ١٩٨٨ ،٢٤) .

وفي ظل هذه الأسرة الكريمة ، التي كانت تعتني بأبنائها ، انتفع الذهبي بخدمة قدمها له أخوه في الرضاعة ،علاء الدين أبو الحسن علي بن العطار ، تلميذ الإمام النووي (ت،٦٧٧هـ) حيث استجاز لـــه سنة مولده جملة من شيوخ عصره الكبار ، وفي ذلك قال الذهبي ، مترجمـــا لأخيه هذا " انتفعت به ، وأحسن إلي باستجازته لي كبار المشيخة" (الذهبي ، ١٩٨٨ ،٢٥)

ويستذكر الذهبي فضل جده عثمان (ت ، ٦٨٣هـ) الذي كان يعالجه مـــن عيـــب فـــي لسانه، ليحسن منطقه " كان يدمنني على النطق بالراء ليقوم لساني " (الذهبي ، ١٩٨٨، ٢٤) .

لا شك أن تلك العناية قد تركت آثارها في نفس الإمام ، حيث نشأ محباً للعلم ، مكبـــرا لأهله ، ساعياً نحو التحصيل منه ما وسعه جهده . فقد التحق بالكتاتيب ينهل من معين معلميهـــا فتترك آثارها فيه ، وبخاصة مؤدبه علاء الدين علي بن محمد الحلبي المعروف بـــ (البصبص) (ت ، ٦٩٠هـــ) الذي وصفه ، بقوله :" من أحسن الناس خطاً ، وأخبرهم بتعلـــيم الصـــبيان " ، فيقيم بمكتبه أربعة أعوام ، يتلقى من علومه ، ويسمع الشعر منه (الذهبي ، ١٩٨٨، ٢٤)

وينتقل –رحمه الله– بعد ذلك إلى المساجد ، يأخذ من علوم أئمتها ، ومقرئي القرآن فيها فيأخذ عن مسعود بن عبد الله المقرئ إمام مسجد بالشاغور (ت ٧٢٠هـ) ويمدحه ، بأنه "كان براً بصبيانه ، لا يضربهم أبداً " (الذهبي ، ١٩٨٨، ٢٤) .

وهكذا استمر ينتقل من معلم إلى آخر يتلقى القراءات السبع ، ويتعلم مبادئ العربيـــة ، والفقه ، ويختلف إلى مجالس الحديث ، وبخاصة بعد بلوغه الثانية عشرة من عمره ، وكان ممن أثر فيه ، وحبب إليه هذا العلم ، شيخه علم الدين البرزالي (ت٧٣٩ هـ) وفيه يقول " كـــان هـــو الذي حبب إليّ طلب الحديث ، فإنه رأى خطي فقال : خطك يشبه خط المحدثين " فأثر قوله فيّ، وسمعت ، وتخرجت به في أشياء (الذهبي ، ١٩٨٨ ، ٢٤) .

- رحلته في طلب العلم :

لما كانت الرحلة في طلب العلم في العصور الإسلامية من أبرز الوسائل المعينة للعـــالم لإتقان علمه ، وتوسيع آفاقه ، وزيادة معارفه وصقل خبراته ، فقد عزم الذهبي عليها منذ وقـــت مبكر ، إلا أنه لم يجسر على ذلك احتراما لوالده ، الذي كان يمنعه خوفا عليـــه مـــن البعـــد و الفراق[1] ، وفي ذلك يقول مترجماً لعبد الرحمن بن وريدة البغدادي (ت، ٦٩٧هـ) " وقد هممت بالرحلة إليه ثم تركته لمكان الوالد " وقال في ترجمته أيضا " وانفرد عن أقرانه ، وكنت أتحسر على الرحلة إليه ، وما أتجسر خوفا من الوالد، لأنه كان يمنعني[2] (الذهبي ، ١٩٩٧، ١٦) . وتفيد بعض المصادر أن والده كان رفيقه في بعض رحلاته ، وبخاصة رحلتـــه إلـــى بعلبـــك (شميساني ،١٩٩٩, أ) .

ويمكن أن تقسم رحلاته إلى ثلاثة أقسام : الداخلية (في بلاد الشام) ، حيث زار بعلبك ، وحلب ، وحمص ، وحماة ، وطرابلس ، والكرك ، والمعرة ، وبصرى ، ونابلس ، والرملة ، والقدس ، وتبوك . ورحلته إلى البلاد المصرية ، حيث زار الإسكندرية ، وبلبيس ، ورحلته للحج ، حيث سمع في أثناء الطريق من شيوخه ، وسمع من عدد منهم في مكة ، وعرفة ، ومنى، والمدينة .

ويلمس الباحث من خلال تتبعه لهذه الرحلات في أثناء ترجمات الذهبي لشيوخه ومعلميه ومن تلقى عنهم بأنه حصّل العديد من العلوم والمعارف من خلال ذلك سواء في القـــراءات ، أو الحديث ، أو السيرة ، فقد قرأ القرآن جمعاً على الموفق النصيبي (ت ،٦٩٥ هـ) في بعلبك ،

---

(١) أشار بعضهم أن خوف الوالد على ولده من الارتحال ربما يعود إلى أنه قد يكون وحيده ، أو أبـــرز أبنائـــه على الأقل (معروف ، ١٩٧٦)

(٢) أشار الخطيب البغدادي في كتابه : الجامع لأخلاق الراوي والسامع (١٩٨٣) أن آداب طلب العلم تقتضـــي استئذان الأبوين في الرحلة ص: (٢٢٣-٢٤٨) .

وسمع في حلب من سنقر بن عبد الله الحلبي فقال في ذلك : " رحلت إليه وأكثرت عنه ، ونعم الشيخ كان ديناً ومروءةً وعقلاً وتعففاً " (الذهبي ، ١٩٨٨ ، ٢٤) .

- طبيعة دراساته وتكوينه الفكري :

لم ينقطع الذهبي منذ نشأته وحتى وفاته – رحمه الله – عن الدراسة والسماع ، والمتمعن في مضامين كتبه يجد أن دراساته كانت متنوعة ، فهي لم تقتصر على القراءات والحديث فحسب ، بل لقد عني بدراسة النحو ، والسماع لعدد من مجاميع الشعر ، واللغة ، والآداب ، كما اهتم بالكتب التاريخية ، وكتب التراجم ، ويشير بعضهم إلى أنه ربما اطلع على بعض الكتب الفلسفية ، مع الشك بدراسته لكتب في العلوم الصرفة لعدم اعتقاده بجدواها (معروف ، ١٩٧٦)

أما عن عنايته الفائقة بالحديث وسماعه ، فيقال بأنه أصيب بالشره في ذلك ، فقد سمع ما لا يحصى كثرة من الكتب والأجزاء ، ولقي كثيراً من الشيوخ والشيخات ، ورافقه حبه لهذا العلم مدى حياته حتى إنه كان يسمع من أناس قد لا يرضى عنهم ، فقد سمع ممن لم يرتض دينه ، قال في ترجمة علاء الدين أبي الحسن علي بن مظفر الإسكندراني (ت ٧١٦هـ) : "ولم يكن عليه ضوء في دينه حملني الشره على السماع من مثله ، والله يسامحه كان يخل بالصلوات ، ويرم بعظائم الأمور " ، وسمع أيضا من العوام ، فقد قال في ترجمته لشيخه محمد بن النضير المؤذن (ت ٧١٥هـ) " شويخ عامي ، سمعنا منه ولم يكن بذاك " ويذهب به حبه لهذا العلم للقراءة على الصم ، فيقول عن شيخه الخرائطي الأصم (ت ، ٧١٦هـ) قرأت عليه بأعلى صوتي في أذنه ثلاثة أحاديث .. (الذهبي ،١٩٨٨ ، ٢٤) .

وكان لشيوخ الذهبي وشيخاته – الذين بلغ تعدادهم حسبما ورد في معجمه ألف وثلاثمائة شيخ وشيخة –[1] أثر كبير في توسيع مداركه ، وإتاحة الفرصة أمامه لتثبيت سماعاته ومروياته، وبخاصة أنه كان يسمع الرواية من أكثر من عالم ، وكان لعمله في المختصرات أثر بالغ

---

(١) أنظر معجم الشيوخ ، للذهبي وهو المسمى المعجم الكبير ، وفوات الوفيات والذيل عليها – الكتبي ، ٣١٦:٣ .

الاهمية، فقد خلف عددا ضخما من مختصراته لأمهات الكتب المؤلفة ، كتاريخ بغداد للخطيب البغدادي ، وتاريخ دمشق لابن عساكر ، والأنساب للسمعاني ، وأسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير، و... وغيرها ، حيث كانت هذه المختصرات المادة الرئيسة التي كونت شخصيته العلمية ، ومعرفته بالعصور السابقة ، إضافة إلى أنها كانت معينة له في ذلك العدد الضخم من مؤلفاته .

وكان مما ارتبط بتكوينه الفكري العام صلاته الشخصية بعدد من علماء عصره ، كالمزي (ت ٧٤٢هـ) ، وابن تيمية (ت ٧٢٨هـ) ، والبرزالي (ت ٧٣٩هـ) ، حيث كان هو أصغرهم سناً ، مع ذلك فقد كانوا شيوخاً وأقراناً يقرأ بعضهم على بعض ، إضافة إلى ميلهم جميعا وحبهم لطلب الحديث ، ودفاعهم عن مذهب وآراء الحنابلة ، الأمر الذي أدى في كثير من الأحيان إلى إيذائهم والتحامل عليهم بما ليس فيهم ، وبخاصة ما جرته عليهم صحبتهم لابن تيمية وخلافه مع المتصوفة والمشعوذين ، واجتهاداته التي قامت على آثار السلف ، وما نتج عنها من خلافات عقائدية حادة مع علماء عصره من المخالفين له . وكان الذهبي من أكثر المتأثرين به ، ظهر ذلك في مؤلفاته ، ومختصراته ، وموقفه من المتصوفة ، ومن علوم المنطق ، والفلسفة ، وقد أشار بعضهم إلى أن الذهبي خالف شيخه ورفيقه في مسائل أصيلة وفرعية . وأرسل إليه نصيحته الذهبية المشهورة [1] يقرعه فيها ويلومه وينتقد بعض آرائه وآراء أصحابه (معروف , ١٩٧٦) .

– عمله ومناصبه التدريسية

اشتغل الذهبي بالتأليف والتصنيف والتخريج إضافة إلى ملازمة التدريس، وقد تولى الخطابة بمسجد كفر بطنا من سنة (٧٠٣– ٧١٨ هـ) وفيها ألف خيرة كتبه ، ساعده على ذلك تفرغه التام للتأليف في هذه القرية الوادعة .

---

(١) انظر : النصيحة الذهبية لابن تيمية ، وإن كان هناك من ينفي أن تكون هذه الرسالة للذهبي ، مقدما البراهين على ذلك ، ومعتقدا أنها لأعداء الشيخ للطعن فيه وفي أصحابه
انظر : كفاية الحفظة ، شرح المقدمة الموقظة في علم مصطلح الحديث للذهبي (ص١٧–٢٨) .
ويتفق الباحث مع القائلين بعدم نسبة هذه الرسالة للذهبي فالمطلع على ترجمة الإمام لصاحبه ابن تيمية يرى التناقض بين ما ورد في الرسالة وما ذكره الإمام في ترجمته مادحاً إياه ومبيناً عظيم فضله إضافة إلى أن بعض العبارات التي وردت في الرسالة مثل " إن أولياءَك فيهم فجرة وكذبة وعور وبقر، ومعظم أتباعك قعيد مربوط خفيف العقل كذاب بليد الذهن " فهذه مما لا يصدر من العلماء الصلحاء حملة الآثار

النبوية بل هي إلى كلام السوقة أقرب ,

وفي شوال من سنة ٧١٨هـ انتقل الذهبي من التدريس في المسجد إلى التـدريس فـي المدارس ، حيث انتدب للتدريس في مدرسة أم الصالح بعد وفاة مدرسها الشريشي ، وقد اتخذها الذهبي سكناً له ثم مات فيها بعد ذلك (معروف , ١٩٧٦) .

وتوالى عمل الذهبي في أكثر من مدرسة ودار حديث ، بعد أن ذاع صيته ، فشخصـت إليه الأنظار وتعلقت به القلوب ، ويصف بعضهم حاله ، وما وصل إليه بقوله " صار كلما ذهب عالم من العلماء ، أسندت إليه مهام أعماله في العلم والتعليم " (شميساني ، ١٩٩٠) ، فقد ولـي دار الحديث الظاهرية ، بعد شيخها ابن جهبل (ت ٧١٩هـ) ، ونزل عن الخطابة والتدريس فـي كفر بطنا (النعيمي ،١٩٨٨) ، وولي بعد وفاة شيخه ورفيقه علم الدين البرزالي تدريس الحديث بالمدرسة (المشيخة) النفيسية وإمامتها عوضاً عنه ، وباشر مشـيخة دار الحـديث والقـرآن التنكزية [1] بعد أن كمل تعميرها . وولي كذلك دار الحديث الفاضلية التي أسسها القاضي الفاضل وزير صلاح الدين (ت ٥٩٦هـ) وفاتته مشيخة دار الحديث الأشرفية ، بعد أن رشحه السـبكي لها ، بحجة أن ولاية هذه المدرسة لن تكون إلا لأشعري وقد أثارت هذه القضية اختلافـا بـين العلماء ، انتهى بتولية السبكي نفسه من قبل نائب السلطنة بالشام وكان – رحمه الله – قد شاخ ، وقارب السبعين ، ولكنه كان متقد النشاط ، لم يتحول عن آرائه (السبكي ، ١٩٧٤) .

وتشير المصادر إلى أن الذهبي حينما توفي سنة ٧٤٨هـ كان يتولى مشيخة الحديث في خمسة أماكن هي : دار الحديث العروية (مشهد عروة) ، والنفيسية ، والتنكزية ، والفاضـلية ، وتربة أم الصالح ، وقد نزل عن بعضها لتلاميذه في مرض موته (معروف ، ١٩٧٦) .

– آثاره العلمية ومكانته ومنزلته بين العلماء

انصبت اهتمامات الذهبي في حياته العلمية على العلوم الآتية : القراءات والحديث والتاريخ والتراجم .

أما القراءات فقد كانت أول ما اهتم بها في حياته ، وخلال رحلاته ، غير أنه لم يترك سوى أثرين هما : طبقات القراء و مختصر في القراءات .

(١) التنكزية : نسبة إلى الأمير تنكز – نائب الشام (ت ٧٤١هـ) انظر : (ابن حجر: الدرر الكامنة ج٥٢٧/١)

وأما في الحديث فقد أجمع العديد من علماء هذا الفن بأنه كان إمام عصره ، حيث كان له الكثير من الآثار في هذا المجال ، التي انتفع بها الشيوخ والتلاميذ ، وحقق فيها العديد من الوظائف التربوية مثل : النقد والتقويم ، والتلخيص ، والانتقاء ، والتربية على الصدق والأمانة العلمية والإتقان العلمي ، كما حقق من خلال عمله فيها مبادئ تربوية مثل : الإخلاص ، والأمانة ، والتواضع العلمي (النحلاوي ، ١٩٨٨) .

ورغم أن الذهبي عاش في عصر غلب عليه الجمود والنقل والتلخيص ، إلا أن فطنته ، وسعة علومه ومعارفه ، ساعدته على التخلص من هذا بحيث وصفه تلميذه صلاح الدين الصفدي (ت ٧٦٤هـ) بقوله : " لم أجد عنده جمود المحدثين ، ولا كودنة[1] النقلة ، بل هو فقيه النظر ، له دربة بأقوال الناس ،ومذاهب الأئمة من السلف، وأرباب المقالات "(الصفدي، ١٩٤٩).

ومن أبرز آثاره في الحديث ، المختصرات ، كمختصر المستدرك للحاكم ، ومختصر السنن الكبرى للبيهقي ، إضافة إلى أمهات كتبه التي كانت سببا في شهرته مثل " ميزان الاعتدال في نقد الرجال " ، و" المغني في الضعفاء " .

وأما في التاريخ والتراجم فقد ترجم لحياة الخلفاء ، والأمراء ، والوزراء ، والقواد ، والعلماء ، والمعلمين ، والمؤدبين ، والنحاة ، والشعراء و... في العديد من كتبه في هذا المجال مثل تاريخ الإسلام ، والعبر في حوادث من غبر ، وسير أعلام النبلاء ، ومعجميه : الكبير ، والصغير ، إضافة إلى مختصراته لبعض أمهات كتب التاريخ مثل تاريخ بغداد ، ودمشق ، ومصر ، وخوارزم .

وكان عمله العلمي في مؤلفاته قائما على التلخيص ، والانتقاء ، والاقتصاد على الأهم فالمهم ، قاصدا بذلك إفادة المعلمين والمتعلمين ، ففي الاختصار وفر مؤونة التطويل والتأليف ، فقرب بذلك تناول الكتب على المتعلمين ، كما سهل عليهم الإفادة من هذه الكتب والانتفاع بها .

---

(١) كودنة : من كدن ، والكودن هو البرذون يوكف (أي الدابة توضع عليها البرذعة ، تسير قلـيلا قلـيلا) ويشبه به البليد (لسان العرب ، كدن) ويقال كودن في مشيته : أبطأ وثقـل (المعجـم الوسـيط ج٢، كـدن) فالكودنة إذن هي البلادة .

ومع أن كتب الذهبي ومصنفاته قد جاوزت المائتين ، إلا أن بعضها فقد ، ولـم يعثـر عليه، وربما يضيق المقام عن ذكر هذه المؤلفات والمختصرات[١] ، ومـا حوتـه مـن فوائـد ومعارف ولمحات من الفكر التربوي لهذا الإمام موزعة في بطونها . ومن هنا اختصر الباحث حديثه على بعض المؤلفات والتصانيف التي يمكن تلمس أفكاره التربوية من خلالها ومن ذلك :

- **بيان زغل[٢] العلم** : وهي عبارة عن رسالة صغيرة الحجم حققها وعلق عليها محمد بن ناصر العجمي ، ونشرتها مكتبة الصحوة الإسلامية في السعودية سنة ١٤٠٤هـ وقد جاء عنوانها في نسخة برلين (رسالة فيما يذم ويعاب في كل طائفة) ، (رقم ٥٥٧٠) (معروف، ١٩٧٦) وهذه المخطوطة تم تحقيقها أكثر من مرة . وقد تناول فيها الذهبي العلوم المعروفة في زمانه كعلم القراءات والتجويد ، وعلم الحديث ، والفقه والمـذاهب واللغـة. والتفسـير وأصول الدين ، والا نشاء والشعر ، والحساب ، وعلم المنطق ، وعلـم الحكمـة ، وعلـم الوعظ ، وعلم الشروط ، وبين رأيه في هذه العلوم سلباً وإيجاباً ، وقارن بين أحوال علمائها وعلماء الرعيل الأول من الصحابة والتابعين ، وشـدد النكيـر علـى بعـض سـلوكاتهم وتصرفاتهم وأساليبهم في أخذ العلوم ، وأهدافهم من ذلك،ثم توضيح طريقة السلف في طلب العلم وتحصيله .

- **مسائل في طلب العلم وأقسامه** : وهي رسالة ضمن مصنفه (ست رسائل) الذي حققـه جاسم سليمان الدوسري ونشرته الدار السلفية للنشر والتوزيع في الكويت سنة ١٩٨٨ ويقسم الذهبي من خلاله طلب العلم وتعلمه على الأقسام التكليفية الخمسة : فرض ، ومسـتحب ، ومباح ، ومكروه ، وحرام , حيث يتناول كل قسم ، فيعرّفه ، ويذكر أجزاءه إن وجـدت ، ويبين ما يلزم المتعلمين منه ، ويتناول بعض المسائل الواقعة تحته ، ثم يبين أن كل علم من العلوم الإسلامية ينقسم إلى هذه الأقسام وأن بعضه تعلمه حق وواجب ، وبعضـه يحـرم ،

---

(١) انظر تفصيل هذه المؤلفات والتصانيف في "الذهبي ومنهجه في كتابه تاريخ الإسلام ، بشار عواد معروف ، (١٩٧٦) " ، والتذييل والتعقيب والاستدراك الذي وضعه قاسم علي سعد في كتابه صفحات في ترجمة الحـافظ

الذهبي ، (١٩٨٦) ، وانظر كذلك معجم مؤلفات الذهبي المخطوطة بمكتبات المملكة العربية السعودية ، إعـداد ناصر السلامة (٢٠٠٢) .
(٢) الزَّغَلُ : الغش (المعجم الوسيط ، زغل)

وبينهما علوم تقترب من هذا أو ذاك ، ثم يشير إلى علوم هي واجبة ومستحبة في حـق فئـة، ومذمومة في حق فئات أخرى . ويعرض الإمام خلال الرسالة أهمية صلاح النية في طلب العلم، ومتى يجوز أخذ الأجرة على التعليم ، ثم يثبت في خاتمة الرسالة أسماء الشيوخ العلماء الـذين سمعوها عنه .

- **وصية الإمام الذهبي لمحمد بن رافع السلامي**[1] : وهي وصية ذكرها السبكي في كتابه معيد النعم ومبيد النقم ونسبها إلى أستاذه الذهبي فقال : " ورأيت من كلام شيخنا الذهبي في وصية لبعض المحدثين " ، وذكرها ، وقد حققها وعلق عليها جمال عزون ونشرتها دار الريان بالإمارات العربية المتحدة سنة ١٩٩٢ ، وفيها يبين الإمام أهمية إقران العلم بالعمل ، ويرسم صورة للمتعلمين وأخطائهم حال التعلم ، ويوضح عاقبة عـدم سـلامة النية في طلب العلم ، ثم يبين حال بعض الشيوخ الذين يكذبون ويـزورون ويسـرقون وموقف طلبتهم منهم ، وفي خاتمة الرسالة ينصح الذهبي السلامي بضرورة الاسـتعانة بالله في العمل ، والإلحاح بالدعاء ، والتزام الصدق ، وعدم التكبر بالعلم الذي يحملـه ، وإلا أصبح من الجاهلين ، كما ينصحه بالثقة بالله وحسن التوكل عليه .

- **الكبائر** : وهو من أشهر الكتب ، التي تم تحقيقها وطبعها أكثر من مرة[2] ، حيث تناول الذهبي فيه سبعين نوعاً من الكبائر التي يجب على المسلم اجتنابها . وقد عمل النحلاوي (١٩٨٨) على وضع هذه الكبائر ضمن ما أسماه بالتربية الوقائية والإصلاحية ، والتـي تناول أسسها ، وحلل الكبائر على وفقها مبينا بعـض أسـاليب التربيـة الإصـلاحية كالإصلاح بالتوبة ، وإلا صلاح بالتعليم ، ثم ركز على بعض الكبائر المتعلقـة بـالعلم والتعلم ، مثل كتمان العلم ، والتعلم للدنيا، والاستبداد بالرأي دون التقيد بالأدلة العلمية ، والمخالفة بين العلم والعمل ، وتناول الكبائر المتعلقة بالصحة وما يسيء إليها ، واستنبط بعض النتائج التربوية لهذا الكتاب ، وبعض المبادئ والوظائف التربوية المستنتجة مـن خلال ما ورد فيه .

---

(١) هو محمد تقي الدين أبو المعالي محمد بن رافع بن هجرس بن شافع السلامي ولد سنة ٧٠٤ هـ وتوفي سنة

٧٧٤هـ (الوفيات للسلامي ، المقدمة ص:٣)
(٢) تم نقل الكتاب وترجمته إلى الإنجليزية على يد محمود إبراهيم سنة (١٩٩٠) بعنوان (The Chiefsins AL-Kaba`r) .

- **سير أعلام النبلاء :** ويعد هذا الكتاب من أبرز ما كتبه الذهبي ،حيث ترجم خلاله للخلفاء ، والأمراء ، والوزراء ، والقواد ، والأدباء ، والعلماء والشعراء وغيرهم وللذهبي في هذا الكتاب تعليقات مفيدة كان يبدؤها معلقاً بقوله : (قلت) ويمكن الاستدلال من خلالها على بعض أفكاره التربوية المتعلقة بآرائه ومعتقداته مثل : العلوم وأقسامها ، والنافع والضار منها ، وبعض صور العلاقات بين الآباء والأبناء فيما يتعلق بالعلم والتعلم ، وبعض صفات الشيوخ المعلمين كما يراها ، ونقده بعض تصرفاتهم ، ثم ذكره بعض أساليب التعلم وطرقه ، ونصائحه لطلبة العلم ، أو نقد تصرفاتهم ، ويستفاد من تعليقاته أيضا نظرته إلى أخذ الأجرة على التعليم ، وأهمية إتقان المعلم لعلمه ، وغير ذلك من الأمور التي سيجري تناولها لاحقا .

- **المعاجم :**مثل معجم الشيوخ ، والمعجم المختص بالمحدثين ، وطبقات القراء ، وتذكرة الحفاظ ، والأعلام بوفيات الأعلام ، وغيرها ، ويستفاد من هذه المراجع التعرف إلى شيوخ الذهبي وتلاميذه ، أي آثاره ومن تأثر بهم ، وطرق التحصيل .

- وهناك كتب للإمام متخصصة في بعض العلوم وبخاصة الحديث ورجاله ، والجرح والتعديل ويستفيد منها من يعمل في هذا المجال من المعلمين وطلبة العلم . مثل ميزان الاعتدال في نقد الرجال الذي رتبه على حروف المعجم (ليقرب تناوله)[١] ، ووضع رجاله في طبقات مبتدئا بالكذابين الوضاعين المتعمدين ، مرورا بالمزورين ، والمتروكين ، والضعفاء وانتهاءً إلى المحدثين الصادقين فالثقات الإثبات . وكذا بالنسبة لكتابه المعين في طبقات المحدثين ، الذي أوصى طلبته بضرورة تبصره ،والتعرف إلى محتواه لأنه " يقبح بالطلبة أن يجهلوهم "

وهناك العديد من الكتب والمؤلفات والمختصرات والمنتقيات والرسائل مثل (العلو للعلي الغفار (١٩٩٢) وفيه تظهر عقيدة الذهبي واضحة ، وبخاصة ما يتعلق بالأسماء والصفات ، والتأويل ، وكتاب الأمصار ذوات الآثار (١٩٨٦) : وهو جزء ذكر فيه الأمصار وما نسب إليها من العلماء ، أو عاش فيها ، وتكلم فيه على ظهور العناية بالعلم في كل بلد تناولها وما آلت إليه

---

(١) قال الذهبي في مقدمة كتابه المذكور : " والساعة قد استخرت الله في عمل هذا المصنف ، ورتبته على حروف المعجم حتى في الآباء ليقرب تناوله .

على مدى العصور ، ثم تناول أوضاع العلم فيها في زمانه ، وقد ضمنها السخاوي في كتابه (الإعلان).

- تلاميذه :

تتلمذ على يد الذهبي الكثير من التلاميذ الذين أفادوا منه ولعل من أشهرهم : الحافظ ابن كثير (ت ٧٧٤ هـ) صاحب كتاب تفسير القرآن العظيم وكتاب البداية والنهاية ، و ابن رجب الحنبلي (ت ٧٩٥ هـ) ، وخليل بن أيبك الصفدي (ت ٧٦٤ هـ) صاحب كتاب الوافي بالوفيات وتاج الدين عبد الوهاب بن علي السبكي (ت ٧٧١ هـ) صاحب كتاب طبقات الشافعية الكبرى وغيرهم كثير .

- مكانته العلمية وثناء العلماء عليه :

كان الذهبي محط أنظار العلماء ، سواء من معلميه أو رفاقه أو تلاميذه الذين أثنوا عليه بالعديد من الأقوال التي قد لا يتسع المقام لذكرها جميعا ومن ذلك :

- قال الحافظ محمد بن علي الشوكاني (ت١٢٥٠ هـ) :" جميع مصنفاته مقبولة مرغوب فيها ، رحل الناس لأجلها ، وأخذوها عنه وتداولوها ، وقرأوها وكتبوها في حياته ، وطارت في جميع بقاع الأرض ، وبالجملة فالناس في التاريخ من أهل عصره وَمَن بعدهم عيالٌ عليه ". (الشوكاني ، ١٣٤٨هـ) .
- وصفه تلميذه الصفدي (ت ٧٦٤هـ) بأنه : "حافظ لا يجارى ، ولافظ لا يبارى ، أتقن الحديث ورجاله ، وعرف تراجم الناس ، جمع الكثير ، ونفع الجم الغفير ، وأكثر من التصنيف ، ووفر بالاختصار مؤونة التطويل في التأليف " (الصفدي ، ٢٠٠٠)
- وقال عنه السبكي (ت ٧٧١هـ) أستاذنا أبو عبد الله بحر لا نظير له ، رجل الرجال في كل سبيل كأنما جمعت الأمة في صعيد واحد فنظرها ، ثم أخذ يخبر عنها أخبار من حضرها (السبكي ، ١٩٧٤) .
- ويصف ابن حجر (ت ٨٥٢هـ) حاله بعد أن مهر في فن الحديث ، كثرة التصنيف " ورغب الناس في تواليفه ، ورحلوا إليه بسببها ، وتداولوها قراءة ونسخا وسماعا " وقال عن نفسه " وشربت من ماء زمزم لنيل مرتبته ، والكيل بمعيار فطنته " .(ابن حجر ، ١٣٥٠هـ) .

- ووصفه صاحب كتاب (المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي) بقولـه : " الحـافظ ، البارع ، الحجة الرحلة – أي من يرحل إليه – ، مليح التصور ، متواضع ، حسن الخلق ، حلو المحاضرة (ابن تغري بردى، ١٩٩٤) .
- أما قوله في نفسه والذي ورد في معجمه المختص بالمحدثين (١٩٨٨) فيدل على خلـق جم وتواضع ، " جمع تواليف يقال مفيدة ، والجماعة يتفضلون ويثنون عليه ، وهو أخبر بنفسه ، وبنقصه في العلم والعمل ، فالله المستعان ، ولا قوة إلا به ، وإذا سلم لي إيماني فيا فوزي " .

– عقيدته

تشكل عقيدة الفرد الإطار المرجعي لأفكاره وأحكامه ،ومن هنا يتبـين للمطلـع علـى تعليقات الذهبي المتناثرة في ثنايا كتبه ، أو بعض مؤلفاته وتصانيفه المتخصصـة ، أنـه كـان سلفي[١] المذهب والمعتقد ، فقد كانت غايته من تأليفه لكتابه (العلو للعلـي الغفـار) (١٩٩٢) إثبات عقيدته في الصفات ، وعدم قبول التأويل بما ثبت لله تعالى من نعـوت كالإيمـان بذاتـه المقدسة ، باعتبار أن الصفات تابعة للموصوف ، وأن الإيمان بها وبوجودها واجب مـن غيـر الخوض فيها أو تشبيهها بصفات خلقه ، وأما كتابه (الأربعين فـي صـفات رب العـالمين) (١٤١٣هـ) فقد جمع فيه أربعين حديثا في صفات الخالق – عز وجل – وضمنه توحيد الأسماء والصفات الذي يعد أحد أبواب التوحيد الثلاث . ومن تعليقاته التي تظهر معتقده ، دفاعه عن ابن حبان (ت ٣٥٤هـ) ضد متهميه بدينه ، وبإنكاره الحد لله بقوله : إنكاركم عليه بدعة ، والخوض في ذلك مما لم يأذن به الله ، ولا أتى نص بإثبات ذلك ، ولا بنفيه " ومن حسن إسـلام المـرء تركه ما لا يعنيه " وتعالى الله أن يحد أو يوصف ، إلا بما وصف هو نفسه ، أو علمـه رسـله بالمعنى الذي أراد بـلا مثـل ولا كيـف . **{ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْء وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ}** (الشورى :١١) .(الذهبي، ١٤:٢٠٠١) .

---

(١) السلفية : هي فلاتجاه الذي كان عليه الصحابة والتابعون لهم بإحسان والأئمة الأربعة ومن سلك منهجهم دون من انحرف إلى مسلك مبتدع كالخوارج والروافض والمرجئة والجهمية والمعتزلة ، (انظر : الزنيدي ، السلفية وقضايا العصر ،ص٣١) ووصفها آخر بأنها الاتجاه المقدم للنصوص الشرعية على البدائل الأخرى منهجاً وموضوعاً ، والملتزم بهدي الرسول ﷺ وهدي أصحابه علماً وعملاً ، المطرح للمناهج المخالفة لهذا الهدي في العقيدة والعبادة والتشريع (انظر : ابن الحسين ، السلفية وأعلامها في موريتانيا ،ص ٤٩) .

وقال معلقا على ما اتهم به الحافظ عبد الغني بن عبد الواحد (ت ٦٠٠هـ) " والأكمل في التعظيم والتنزيه الوقوف على ألفاظ الكتاب والسنة ، وهذا هو مذهب السلف رضي الله عـــنهم" (الذهبي ،٢٠٠١: ١٤) .

وهكذا فالشواهد كثيرة ، وقد يضيق المقام عن استعراضها بأكملها ، لتوضـــيح عقيدتـــه بصورة أكمل ، ولكن يمكن القول أن الإمام كان يدعو إلى التمسك بهذه العقيدة علمـــاً وعمـــلاً وتعليماً ، ويدافع عنها ضد أصحاب البدع والأهواء ، مهما أصابه منهم جرّاء ذلك .

- ذكر أولاده ووفاته :

ترك الذهبي ثلاثة أولاد عرفوا بالعلم وهم :

- ابنته أمة العزيز ، وقد أجاز لها غير واحد باستدعاء والدها ، ويظهر أنها تزوجت فـــي حياته ، وأنجبت ولداً أسمته عبد القادر سمع مع جده ، وأجاز له رواية كتابـــه (تـــاريخ الإسلام) .
- ابنه أبو الدرداء (ت ٧٥٤هـ) أسمعه أبوه من خلق كثير ، وحدّث .
- ابنه شهاب الدين ، أبو هريرة عبد الرحمن (ت ٧٩٩هـ) سمع مع والـــده ، وحـــدّث . وخلّف ولدا أجاز له جده (معروف ، ١٩٧٦) .

أما عن وفاته فقد أضر في أخريات سني حياته ، قبل موته بأربع سنين أو أكثر بماء نزل فـــي عينيه وتوفي – رحمه الله – بتربة أم الصالح ، ليلة الاثنين ثالث ذي القعدة قبل نصف ليل سنة ٧٤٨هـ . ودفن بمقابر الباب الصغير (السلامي ، ١٩٨٥) .



الفصل الثاني

العلم و العلوم وأساليب تحصيلها
في
فكر الإمام الذهبي

العلم والعلوم وأساليب تحصيلها في فكر الإمام الذهبي

سيحاول الباحث في هذا الفصل الاجابة عن أسئلة الدراسة الآتية :

أ. ما طبيعة العلم والعلوم وأهدافها في فكر الامام الذهبي ؟

ب.ما موقف الإمام الذهبي من العلوم التي كانت سائدة في عصره، والمشتغلين بها ؟

ج.ما الطرق والاساليب التربوية الواردة في فكر الامام والمتعلقة بتحصيل العلوم في عصره؟

أ. طبيعة العلم والعلوم وأهدافها في فكر الامام الذهبي :

سيتناول الباحث ضمن هذا المبحث ثلاثة مواضيع هي : وجوب طلب العلم وتعليمه ، وأهداف التربية والتعليم لدى الامام ، والعلوم وأقسامها في فكر الامام .

<u>أولا</u> : وجوب طلب العلم وتعليمه :

اهتم الذهبي – كغيره من علماء التربية المسلمين – بالعلم ووجوب طلبه ، ثم نقله ، وتعليمه للآخرين ، والشواهد على ذلك كثيرة ومنها :

- قوله نظماً : العلم قال الله ، قال رسوله   إن صحّ والإجماع فاجهد فيه
  (القنوجي ، ١٩٨٣)
- نصيحته لطلبة العلم بعدم التقاعس عن طلب العلم " وأن لا يفتر من طلب العلم إلى الممات " (الذهبي ، ٢٠٠١ ، ١٤)
- تفضيله لطلب العلم على الصلاة النافلة ، والذكر ، في حالات " فأما من كان مخلصا لله في طلب العلم ، وذهنه جيد ، فالعلم أولى ، ولكن مع حظ من صلاة وتعبد .
  (الذهبي ، ٢٠٠١ ، ١٤) .
- تقسيمه للعلوم ، وحال طلبها ، بقوله : " طلب العلم وتعليمه على الأقسام الخمسة : فرض ، ومستحب ، ومباح ، ومكروه ، وحرام " ثم تعليقه في معرض تناوله للعلوم المفروضة – بعد ذكر الحديث النبوي الشريف "طلب العلم فريضة على كل

مسلم "[١] – بأن " معنى الحديث صحيح ، وهو محمول على العلم اللازم لكل أحد " (الذهبي، ١٩٨٨ ، ١٣)

- تعليقه على غيرة الإمام سفيان الثوري (ت ١٢٦هـ) على الشيوخ الذين يتكاسلون ، أو لا يسمعون العلم[٢] بقوله : " والنية في العلم عزيزة " . (الذهبي ،١٩٩٣، ٢٧) .

ويحتمل أن يكون قصد الامام من هذه العبارة تمنيه أن يكون سفيان حسن النية في عمله أو أن المتكاسلين مقصرون حتى في النية فهي قليلة في عملهم وبخاصة في طلب العلم .

أما عن وجوب نقل العلم ، وتعليمه ، ونشره بين الناس ، فللذهبي آراء ، تدل على دراية وفهم لأهمية الموضوع وعوائده على المعلم والمتعلم ، ومن ذلك :

تفضيله لتعليم العلم ونشره على نوافل الصوم والصلاة ، قال في ترجمة الإمام مالك (ت ١٧٩هـ) معلقاً على قول ابن المبارك (ت ١٨١هـ) فيه : " ما رأيت أحدا ارتفع مثل مالك ، ليس له كثير صلاة ولا صيام ، إلا أن تكون له سريرة " ، قال معلقاً –أي الذهبي– :" ما كان عليه من العلم ونشره ، أفضل من نوافل الصوم والصلاة ، لمن أراد به الله " . (الذهبي ،١٤،٢٠٠١)

- عدّ الذهبي أن كتمان العلم ، وعدم نشره كبيرة من الكبائر التي يلزم اجتنابها ، مستشهدا على ذلك بآيات وأحاديث ذات صلة بالموضوع (الذهبي ، ١٩٨٨ ، ٢٠)
- حضُّه على تعلم العلوم الواجبة وبثها ونشرها حيث قال : "إن العلم الواجب ، يجب بثه ونشره ، ويجب على الأمة حفظه ، و العلم الذي في فضائل الأعمال مما يصحَ إسناده ، يتعين نقله ويتأكد نشره ، وينبغي للأمة نقله " (الذهبي، ٢٠٠١ ، ١٤)

---

(١) رواه ابن ماجه من حديث أنس بن مالك ، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم ، حديث رقم ٢٢٤ ص ٥٦ وقال الالباني – الذي حكم على أحاديث السنن وعلق عليها – بأنه حديث صحيح .
ورد تفصيل لهذا الحديث وطرقه ، وإثبات صحته . أنظر للمزيد : جزء فيه طرق حديث طلب العلم فريضة على كل مسلم ، للحافظ السيوطي .

(٢) كان سفيان إذا لقي الشيخ سأله ، هل سمعت من العلم شيئا ، فإن قال : لا ، قال : لا جزاك عن الإسلام خيراً : (مناقب الإمام سفيان الثوري ، الذهبي ، ١٩٩٣ ، ص ٣٢)

- تركيزه على بعض الواجب نشره ، فقد قال معلقا على الحديث الشريف : " **أَفضَلُكُم مَن تَعَلَّمَ القُرآنَ وَعَلَّمَهُ** "[١] "يا سبحان الله ، وهل نشر للعلم يقارب تعليم القرآن ؟ " (الذهبي ، ٢٠٠١ ،١٤)
- قوله : " إن إلهام الذكر أفضل من الكرامات ، وأفضل الذكر ما يتعدى إلى العباد ، وهو تعليم العلم والسنة " (الذهبي ،٢٠٠١ ،١٤)
- جاء التركيز على " تعليم العوام " من ضمن جوانب المعروف التي حث عليها ورغب بها ، واعتبرها من أبرز سمات الشريعة . (الذهبي ، ٢٠٠١ ،١٤) .

ثانياً : أهداف التربية والتعليم عند الامام الذهبي :

يرى الذهبي – رحمه الله – أن للعلم – طلباً و تعليماً –أهدافا يلزم السعي نحو تحقيقها، بكل صدق وإخلاص وعزم ، ومن ذلك :

خشية الله و تقواه ، والسعي نحو إرضائه : اعتبر الذهبي أن التعلم للدنيا من كبائر الذنوب ، مستشهدا على ذلك بقوله – صلى الله عليه و سلم – : " من تعلم علماً مما يبتغي به وجه الله ، لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا ، لم يجد عَرف الجنة يوم القيامة "[٢] . (الذهبي ، ١٩٨٨، ٢٠) .

ويصف الذهبي أهداف بعض طلبة العلم في زمانه مبينا عاقبة سوء مقاصدهم بقوله : "فما حظ الواحد من هؤلاء إلا أن يسمع ليروي فقط ، فليعاقبنَ بنقيض قصده و ليشهرنَه الله تعالى ، بعد أن ستره مرات ، و ليبقينَّ مضغة في الألسن ، وعبرة بين المحدثين " (الذهبي ، ١٩٩٢ ، ٣١) .

- ويرى الإمام ضرورة تقوى الله ، والخشوع له في كل ما يطلب من العلوم ، فها هو في علم القراءة والتجويد يعيب على القراء الذين لا تتحقق فيهم خشيته – سبحانه – في أثناء القراءة فيقول : " إن المجود القارئ يبقى مصروف الهمة إلى مراعاة الحروف والتنطع

---

(١) رواه البخاري عن عثمان بن عفان رضي الله عنه بهذه الألفاظ : " إن أفضلكم من تعلم القرآن وعلمه " وفي رواية : " خيركم من تعلم القرآن و علمه " ، كتاب فضائل القرآن ، باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه ، حديث رقم ٥٠٢٧ ، ٥٠٢٨ ، ج٨ /٦٩٢ .
(٢) ذكره الآجري : أخلاق العلماء،كتاب اخلاق العالم الجاهل المفتتن بعلمه،ص:٦٥ ، والخطيب:اقتضاءالعلم العمل ،باب ذم طلب العلم للمباهاة به والمماراة فيه...ص:٦٥

في تجويدها ، بحيث يشغله ذلك عن تدبر معاني كتاب الله تعالى ، ويصرفه عن الخشوع في التلاوة لله " ويتابع بقوله : " فليت شعري أنت ماذا عرفت ؟! وما علمك ؟ أما عملك فغير صالح، وأما تلاوتك فثقيلة عرية عن الخشية والحزن والخوف ، فالله يوفقك ويبصرك رشدك ، ويوقظك من رقدة الجهل والرياء " (الذهبي ، ١٤٠٤هـ ، ١٢) .

وأما في علم الإنشاء فهو ينصح بأن يكون رأس مال المنشئ تقوى الله تعالى ومراقبته، وأن " يكمل براعة البلاغة بإرضاء الله ، وبنصح رب الأمر " (الذهبي ، ١٤٠٤هـ ،١٢) .

- العمل بالعلم ، وقطف ثمرته : قال معلقا على مرة الهمداني الملقب مرة الطيب (ت حوالي ٨٠هـ) . وما كان فيه من عبادة ، وخير ، وعلم " ما كان هذا الولي ، يكاد يتفرغ لنشر العلم ولهذا لم تكثر روايته ، وهل يراد من العلم إلا ثمرته ." (الذهبي ،٢٠٠١، ١٤) .

ويرتبط بما سبق ، ضرورة استحضار النية في حال طلب العلم ، أو تعليمه ، بحيث تكون هذه النية سليمة ، واضحة ، خالصة لوجه الله تعالى ، بعيداً عن حظوظ الدنيا ، والشواهد على ذلك كثيرة ، ومنها :

- قال معلقاً على من كانت همتهم في الطلب ، الجدل والمراء وتحصيل العلو " فأنت أنت وإن كانت همتك في طلب الفقه ، الجدل والمراء والانتصار لمذهبك على كل حال ،وتحصيل المدارس والعلو ، فما ذا (ليس هذا) فقها أخرويا ، بل ذا فقه الدنيا ، فما ظنك تقول غدا بين يدي الله تعالى : تعلمت العلم لوجهك وعلمته فيك ، فاحذر أن تغلط وتقولها ، فيقال لك: كذبت إنما تعلمته ليقال عالم ، وقد قيل . ثم يؤمر بك مسحوبا إلى النار" [١] . (الذهبي ، ١٤٠٤هـ ، ١٢) .
- ويقول في موضع آخر مبرزاً عاقبة سوء النية : " وإن كانت همتك كهمة إخوانك من الفقهاء البطالين الذي قصدهم المناصب والمدارس ، والدنيا والرفاهية ، والثياب الفاخرة ، فما ذا بركة العلم ، ولا هذه نية خالصة ، بل ذا بيع للعلم بحسن عبارة ، وتعجل للأجر ، وتحمل للوزر ، وغفلة عن الله " (الذهبي ، ١٤٠٤هـ ، ١٢) .

---

(١) رواه مسلم ، كتاب الامارة ، باب من قاتل للرياء والسمعة ٥٠/١٣

- وقال أيضا مبيناًعاقبة سوء النية : "من طلب العلم للمدارس ، والإفتاء ، والفخر ، والرياء ، تحامق واختال ، وازدرى بالناس ، وأهلكه العجب ، ومقتته الأنفس " (الذهبي ،٢٠٠١، ١٤)

والذهبي إذ يقول هذا فهو يهتدي بهدي المصطفى ﷺ : " من طلب العلم ليجاري به العلماء ، أو ليماري به السفهاء ، ويصرف به وجوه الناس إليه ، أدخلــه الله النار "(الذهبي ، ١٩٨٨، ١١) .

- وإخلاص النية مطلوب من الجميع معلمين ومتعلمين ، بل إنه شرط أساسي ، قال الذهبي : "الذي يحتاج إليه الحافظ ، أن يكون تقياً ، وأن لا يفتر من طلب العلم إلى الممـــات ، بنيـــة خالصة ، وتواضع " (الذهبي ، ٢٠٠١ ، ١٤).
- ويرى الذهبي أن بالإمكان ، بل من الواجب تصحيح النية الفاسدة ، والتوبة منها ، بخاصـــةً إذا كان لا يعلم وجوب الإخلاص في الطلب ، وصدق النية في ذلك " فإذا علم حاسب نفسه ، وخاف من وبال قصده ، فتجيئه النية الصالحة كلها أو بعضها ، وقد يتوب من نيته الفاســـدة ويندم ، وعلامة ذلك أنه يقصر من الدعاوى وحب المناظرة . " (الذهبي ، ٢٠٠١ ، ١٤)
- ومن الأهداف أيضا : الكسب ، وطلب القوت للأهل وللعلم ذاته ، وقد اشترط الذهبي لـــذلك شروطا " من طلب العلم لينال به ما يقوم به ، ويقوته بالمعروف وبأهلـــه ، ليتفـــرغ بـــذلك المعلوم لتكملة المعارف ، وليتوفر على العلم ، فهذا قد يباح – إن شاء الله – لمـــن حســـنت نيته ، وغلبت عليه محبة العلم لذاته " (الذهبي ، ١٩٨٨ ، ١٣) .
- وقد يطلب العلم لذات العلم محبة فيه – كما ورد في الشاهد أعلاه – وقد تابع الذهبي قوله : " فإن العلم قد يحب محبة لا توصف مع قطع نظر محب العلم عن الرياسة والمال ، ومثـــل هذا يرجـــــى له أن يؤول علمه إلى الخير والنفع به ، كما قال مجاهد – وغير واحـــد – طلبنا هذا العلم وما لنا فيه نيَة ، ثم رزق الله النية بعد ، أي طلبوه بلا نية دينية ولا دنيوية ، بل محبة في العلم ، إذ الجهل تأباه النفوس الزكية ، والفطر الذكية "(الذهبي ، ١٩٨٨ ، ١٣)

ويرتبط بما سبق تطلع الذهبي إلى تحقيق بعض الجوانب الهامة[١] لدى المتعلمين خلال طلبهم للعلم ثم عملهم فيه ، ومن ذلك :

---

(١) أطلق عليها النحلاوي في كتابه الإمام الذهبي دراسة موضوعية عنوان : الوظائف التربوية والمنهجية عند الإمام الذهبي ، ص٧٨-٨٩ .

أ- تربية العواطف الربانية : مثل خشية الله ، والخشوع له ، حيث إن تحقيق هـذا الأمـر مطلب من مطالب التربية الإسلامية ، قـال تعـالى :**{إنَّمَا يَخشَى اللهَ مِن عِبَادِهِ العُلَماءُ}** (الحديد : ١٦) وهذه الآية فيها إشارة واضحة صريحة إلى التلازم بين العلم وخشية الله .

وقد تم تناول بعض الشواهد من كلام الذهبي حول هذا الموضوع خلال الحديث عن اهداف العلم واخلاص النية في طلبه

وهذه الوظيفة كما أشير سابقا لها علاقة بمبدأ الإخلاص في طلب العلم ، فبينهما تأثير متبادل ، فكلما كان المربي يستهدف وجه الله والإخلاص في تعليمه ، كان تحقيقه لتربية الربانية في طلابه أكثر ، وكذلك طالب العلم يربي في نفسه خشـية الله كلمـا قصـد التـدين (النحلاوي , ١٩٨٨)

ب – تربية النفس على الصدق والضبط والاتقان والدقة والأمانة العلمية :

يقول الذهبي منتقداً وموجهاً طلبة العلم إلى ضرورة تحري الصدق ، والأمانة، والبحث الدؤوب " وأي خيرٍ في حديث مخلوط صحيحه بواهيه ، وأنت لا تفلِّيه ، ولا تبحث عن ناقليه " (الذهبي ، ١٤٠٤ ، ١٢) .

أما عن تربية الدقة والاتقان فقد غدت من الضرورات بعد أن صارت الكتب وسيلة ضرورية لنقل العلم إلى الأجيال ، وانتشر الخطأ والتصحيف والجهل باللغة العربية .

وقد عني العلماء – والذهبي من أبرزهم – بضبط الألفاظ بالشكل والنقط ، وكذلك ضبط الأسماء المتشابهة ، فقال في كتابه المشتبه في الرجال (١٩٦٢) " هذا كتاب مبارك جم الفائدة في معرفة ما يشتبه ويتصحف من الأسماء والأنساب والكنى والألفاظ ، مما اتفق وضعا واختلف نطقا .. وقد اخترته وقربت لفظه ، وبالغت في اختصاره .. وأعلم أن العمدة في مختصري هذا على ضبط القلم ، إلا فيما يصعب ويشكل ، فيقيد ويُشكَل " [1]

---

(١) ضبط القلم : يقصد به تسمية الحروف و الحركات بأسمائها ، مخافة التعرض للخطأ عند الاقتصار على وضع النقط والحركات ، فيقول العالم مثلاً عند ضبط كلمة (نافع) ، (بالنون بعدها ألف ، ثم فاء فعين مهملة) أما (شافع) فهي (بالشين المعجمة و– يشكل : أي يعرض فيه إشكال والتباس (النحلاوي ، ١٩٨٨) .

ولعل هذه الأمور تعد من أهم ما تسعى التربية إلى تحقيقه لدى الطلبة بخاصة في دروس الإملاء والخط والكتابة .

ج- التربية والتدريب على مهارات الانتقاء والتلخيص :

اهتم الذهبي نظرياً وعملياً بتحقيق هذا الأمر ، فهو يدعو الطلبة المبتدئين بالاطلاع على بعض المختصرات قبل الانتقال إلى الكتب المطولة ، ويمكن ملاحظة هذا في رسالته الشهيـــرة زغل العلم (١٤٠٤هـ) حيث يقول : وطالب الحديث اليوم ينبغي له أن ينسخ أولاً ، الجمع بين الصحيحين [١] ، وأحكام عبد الحق [٢] ، والضياء [٣] ، ويدمن النظر فيها ، ويكثر من تحصيل تواليف البيهقي (ت ٤٥٨هـ) فإنها نافعة ، ولا أقل من مختصر كالإلمام[٤] .

أما من الناحية العملية فقد أسهم الذهبي في تحقيق هذه الوظيفة من خلال انتقائه بعض الكتب والمصنفات ذات الأهمية سواء في الحديث ، أو السيرة ، أو التراجم ، أو التاريخ ، أو الأنساب ، أو غيرها والتي يحتاجها طلبة العلم خاصة ، والناس عامة ، ثم قيامه باختصارها لتسهيل الإفادة منها ، وقد ذكر معروف (١٩٧٦) في معرض تناوله لمؤلفات الذهبي وتصانيفه – بأن الإمام انتقى واختصر قرابة ستين كتاباً في مختلف المواضيع ، ولم يكتف بذلك بل إن بعض كتبه ومصنفاته هي نفسها جاءت مختصرة ومرتبة بهدف مزيد من المنفعة والفائدة ، يقول في مقدمة كتابه المشتبه في الرجال (١٩٦٢) " وقربت لفظه ، وبالغت في اختصاره " ، وفي مقدمة كتابه المغني في الضعفاء (١٩٨٧) يقول : " هذا كتاب صغير الحجم كبير القدر كثير النفع ، هذبته وقربته وبالغت في اختصاره تيسيرا على طلبة العلم ". أما في كتابه تاريخ الإسلام ووفيات مشاهير الأعلام (١٩٩٣) فقد قدم له بقوله ، فهذا كتاب نافع إن شاء الله ، ونعـــوذ بالله

---

(١) الجمع بين الصحيحين لمحمد بن أبي نصر الحميدي (ت ٤٨٨هـ) ، وقد جمع فيه أحاديـــث الصـــحيحين ، مختصراً منها الأسانيد ، إلا التابعي عن الصحابي ، إضافة إلى تعيين مواطن اتفاق الشيخين (البخاري ومسلم)

(٢) (الأحكام) كتاب للحافظ عبد الحق بن عبد الرحمن الاشبيلي (ت٥٨١ هـ) وقد انتقى أحاديثه مـــن موطـــأ مالك والكتب الخمسة (ويعني بها البخاري ومسلم وسنن أبي داوود والترمذي والنسائي) وغير ذلك ، ويحـــوي الكتاب أحاديث في الترغيب والترهيب ، والأدعية والاذكار ، وجمل في الفتن ، ونبذ من التفاسير.

(٣) هوالإمام الحافظ ضياءالدين أبوعبد الله محمد بن عبد الواحد السعدي المقدسي (ولد سنة ٥٦٩ هـ) ومـــن أشهر كتبه " الأحاديث المختارة " التي استخرجها مما ليس في الصحيحين ، ورتبها على مسانيد الصحابة .

(٤) (الإلمام في أحاديث الأحكام) لابن دقيق العيد ، مختصر نافع ، وقد عني بتلخيصه واصلاحه الشيخ عبـــد الكريم الحلبي في كتاب (الاهتمام بتلخيص الالمام)

لمزيد من التعريف بهذه الكتب أنظر : الذهبي : زغل العلم ، كلام المحقق محمد بن ناصر العجمـــي الهـــامش ص : ٢٩ و النحلاوي : الامام الذهبي ، الهامش ص : ٨٥ .

من علم لا ينفع ، ويقول : جمعته وتعبت عليه ، واستخرجته من عدة تصانيف ، من غير تطويل ولا استيعاب .

د – التدريب على مهارات التنقيح والتطهير والتقويم :

إن من أبرز الأغراض التربوية للمربين والمؤسســـات التربويـــة ، محاربـــة الجهـــل والخرافات ، وإزالة الشوائب الملتصقة بثقافة الأمة ، إضافة إلى التصحيح بعد التنقيح ، والمتابع لمؤلفات الذهبي ، والمتمعن في محتوياتها ، يجد أنه نذر نفسه – كواحد من أقطاب الفكر السلفي – لمحاربة الجهل والجهلاء ، والأفكار الفاسدة ومروجيها بقصد أو دون قصد ، وتقـــديم العقيـــدة الصافية السليمة ، والدفاع عن الفكر السليم ، والحض على العلوم النافعة المعينة، والتحذير من العلوم التي يرى أن ضررها أكثر من نفعها .سائلاً الله العظيم تعالى في ذلك حسن النية والقصد، كما يشير إلى ذلك في كثير من كتبه [(١)] . ومن الشواهد على ذلك :

- قال معيباً على بعض علماء عصره وتلاميذهم ، بأنهم يقلدون دون تمحيص أو تفكر وتعقل : " وصار علماء العصر في الغالب عاكفين على التقليد في الفروع من غيـــر تحريـــر لهـــا، ومكبين على عقليات من حكمة الأوائل وآراء المتكلمين من غير أن يتعقلوا أكثرها ، فعـــمّ البلاء واستحكمت الأهواء " (الذهبي ، ١٣٧٤ ، ٥) .
- استنكاره بعض القصص الخرافية التي تتعارض مع العقل ، ومثاله : انتقاد من يقولون بأن محمد بن الحسن العسكري دخل سرداباً منذ سنة ٢٧٥هـ ولا يزال حياً ، بقوله : " نعوذ بالله من زوال العقل،هذاهوَس بيّن إن سلطناه على العقول ضلّت وتحيرت " (الـــذهبي،٢٠٠١ ، ١٤) .
- قال مبينا و محذرا : " اعلم أن فـــي كل طائفة من علماء الأمة ما يذم ويعاب ، فتجنبه " . (الذهبي ، ١٤٠٤هـ ، ١٢) .
- ذمَه بعض تصرفات العامة الذين يعتقدون الولاية في بعض الذين اختلطت عقولهـــــم ، أو

---

(١)قال في مقدمة كتابه المغني في الضعفاء : فهذا كتاب صغير الحجم ، كبيرالقدر ، كثير النفع ، أسأل الله فيه حسن النية والقصد ، ص : ٣٤ .

أصابهم مسٌّ من الجن ، دون محاولة إعمال العقل في حقيقتهم ،قال في ترجمة القميني[١] (ت ٦٥٧ هـ) الذي كان العامة يعتقدون فيه أنه وليّ ، وحجتهم الكشف ، والكلام على الخواطر ، وهذا شيء يقع من الكاهن والراهب والمجنون الذي له قرين من الجن ، وقد كثر هذا في عصرنا و الله المستعان .. " (الذهبي ، ١٩٦٦، ١٧) .

- تصحيحه – في غير موقع من كتبه المختلفة – بعض المعلومات الخاطئة ، أو تعزيزه للمعلومات بإضافته إليها – بألفاظ مثل : هذا فيه نظر ، قلت : كذا (في معرض تعليقه على الموضوع) .
- ويتصل بهذا الموضوع ، حض الذهبي للشيوخ والعلماء والمتعلمين على تطهير أنفسهم من الرياء والنفاق ، مع ضرورة تصحيح المقاصد والغايات وتخليصها من الشوائب المتعلقة بها، وقد سبقت الإشارة إلى بعض الشواهد حول هذا الموضوع .
- ولا ينسى الباحث أن الذهبي قد حقق هذه الوظيفة في حياته ، فعمله في الأحاديث النبوية، وتفوقه في علم الجرح والتعديل المتعلق برجالها . هو في حد ذاته تقويم ، وتنقيح ، وتطهير، وإبراز للحق .

---

(١)القميني هو الشيخ يوسف القميني عاش في دمشق وسمي بالقميني لأنه كان يأوي إلى قمامين الحمامات ، وينام في المزابل ، ويمشي حافياً ، ويكنس الزبل بثيابه ، ويترنح في مشيته ، والصبيان يعبثون به ، وكان طويل السكوت قليل التبسم (الذهبي , سير , ٣٠٢/٢٣).

ثالثاً : العلوم وأقسامها عند الذهبي :

لعل من أبرز ما اهتم به الذهبي ، موضوع العلوم وتقسيمها ، ثم نقده لها وللعاملين بها من معلمين ومتعلمين ، حيث يلاحظ أنه نظر إلى علوم عصره من زوايا مختلفة ، فصنفها على النحو التالي :

أ . العلوم وفق الأحكام التكليفية :

قسم الإمام طلب العلم وتعلمه – في رسالته " مسائل في طلب العلم وأقسامه " ضمن مصنفه المسمى " ست رسائل "[١] – على الأقسام الخمسة : فرض ، ومستحب ، ومباح ، ومكروه، وحرام [٢] .

– **الفرض** : وهو على نوعين :

فرض العين : وهو اللازم على كل أحد من المسلمين " كالصلاة والإيمان ، وما عرف بالضرورة من دين الإسلام من الأوامر والنواهي التي لا يشبَ الغلام في بلد إلا وهو يدريها – إن شاء الله – ."

فرض الكفاية : " وأما فرض كفاية كحفظ القرآن ، والفرائض الواقعة دائما ، والمناسك الواجبة ، ومعرفة الحلال والحرام ، ونحو ذلك وهو المراد بقول النبي ﷺ – إن كان قاله – "طلب العلم فريضة على كل مسلم" فمعناه في الجملة صحيح ، وهو محمولٌ على العلم اللازم لكل أحد " .

وقد ناقش الذهبي بعض المسائل المتعلقة بالفرض مثل :

- حسن الاعتقاد بالله تعالى ، والتصديق بما جاء به الرسول ﷺ لا يتعين معه تعلم أدلة المتكلمين مخافة اختلال العقيدة " يجب على المرء التصديق بكل ما جاء به الرسول ﷺ على الإجمال ، ويعتقد دين الاسلام اعتقاداً جازماً ، ولا يتعين على من ثلج صدره بذلك تعلم شيء من الكلام ، ولا تحرير الأدلة . وبهذا يقول الخلف والسلف وكل منصف إلا من شذ من المتكلمين .

---

(١) انظر الرسالة المذكورة ، ص: ٢٠١-٢١٥

(٢) سيكتفي الباحث في هذا الفصل والذي يليه بعرض آراء الامام حول العلوم وغيرها تاركاً التعليق عليها ومناقشتها إلى الفصل الرابع من هذه الدراسة حيث المقارنة مع الفكر المعاصر .

- يترتب على من يدخل بدين الإسلام حديثا تعلم بعض الأمور المتعلقة بالواجبات والمحرمات "إذا أسلم أهل ناحية من بلاد الكفر تعيَن عليهم تعلم أصول الواجبات والمحرمات التي تواترت ، ولهذا إذا زنى هذا أو شرب أو سرق جاهلاً عُرِّفَ ولم يأثم ، وهل يعزر أو يُعفى أو يحدَ ؟ ذلك فيه نزاع بين العلماء ... "

- ضرورة سؤال أهل ا لعلم لدفع الشكوك " من مرض قلبه بشكوك ووساوس لا تزول إلا بسؤال أهل العلم ، فليتعلم من الحق ما يدفع ذلك عنه " .

- ضرورة الاستعانة بالله سبحانه وتعالى ، وتجديد التوبة والاستغفار ، لدفع الشكوك ، والتخلص من العلوم الضارة ، فمن أكبر الأدوية " الافتقار إلى الله ، والاستعانة به ، وليكرر هذا الدعاء وليكثر منه : " اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل ، منزل التوراة والإنجيل ، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك ، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم " وليجدد التوبة والاستغفار ، وليسأل الله تعالى اليقين والعافية فإنه – إن شاء الله – لا ينقضي عنه أيام إلا وقد عوفي – إن شاء الله – من مرضه وسلم له توحيده واستراح من الدخول في علم الكلام الذي – والله العظيم – تعلمه لدرء دائه مولد له أدواء عديدة ربما قتلته ، بل لا تقع كثرة الشكوك و الشبه إلا لمن اشتغل بعلم الكلام والحكمة .

ضرورة الإعراض عن العلوم المهلكة : " فدواء هذه : رمي هذه الاشياء المهلكة ، والإعراض عنها بالكلية ، والإقبال على كثرة التلاوة والصلاة والدعاء والخوف . فأنا الزعيم له بأن يخلص له توحيده و يعافيه مولاه .

وإن لم يستعمل هذا الدواء ، وداوى الداء بالداء ، وغرق في أودية الآراء والعقول ، فقد يسلم وقد يهلك ، وقد يتعلل إلى أن يموت " .

- وجوب تعلم المسلم ما يحتاج إليه في حياته وأعماله ، وتقربه إلى الله بالعبادات في وقتها : "ومن فرض العلم : معرفة ذي المال كيف يزكي ، وكيف يحج ، ونحو ذلك . فهذا يجب عليه تعلمه دون المسكين ، وكذلك يجب على التاجر معرفة ما يحل من البيع وما يحرم، بخلاف الذي لا سبب له فيعرف التاجر والمزكي والحاج من ذلك ما لا بدَ منه .

- ضرورة تعليم الأولاد ما يجب فعله أو اجتنابه بتدرج : " على الوالدين تعليم الأولاد أولاً فأول ما يجب اجتنابه ، ويلزم فعله واعتقاده ، فيذاكر الأب ولده شأن التوحيد ، وأن الله

رب العالمين ، وخالق الأشياء ، ورازق الأحياء ، وأن محمدا نبيه ، وأن الإسلام دينه ، حتى يألفه الصبي ويرسخ في طبعه . فإذا ميز : علمه الوضوء والصلاة ، وحذره الزنا والسرقة والكذب ، وأكل الحرام والدم والميتة ونحو ذلك ، وأن ببلوغه يجري عليه القلم .

* **المستحب :** ذكر الذهبي في هذا القسم بعض العلوم المستحب تعلمها وهي : علم الفقه ومعرفة أقوال الصحابة والتابعين وحججهم من الكتاب والسنة الصحيحة وما صح من الحديث وما حسن ، ومعرفة رجال الحديث وجرحهم أو تعديلهم ، ومعرفة ما ثبت من القراءات ، ومعرفة التفسير ، والسيرة النبوية ، والمغازي وسير الخلفاء الراشدين ، ومعرفة العربية ولغة القرآن والحديث والفقه ، ثم معرفة مهمات الطب .

* **المباح :** ومنه معرفة تاريخ العالم ، واللغات ، والشعرالمباح .

* **المكروه :** و من ذلك " الدخول في دقائق علم الكلام المحمود منه ، ليثبت ما يحب ، وما يمتنع بالعقل " كما أشار إلى كراهية الجدال والمناظرة " وقال " ربما هو محرم " .

* **المحرم** : ذكر بأن من العلوم المحرمة :علم السحر، والكيمياء ، والطيرة ، والسيمياء[1]، والشعوذة ، و التنجيم ، والرمل ، وبعضها كفر صراح .

كما أشار إلى أن من المحرمات أيضا : النظر في المنطق ، والنفس ، والعقل ، والكل والكلي ، والعرض ، والجسم ، وهذه الأدواء المهلكة .

ومن الملاحظ أن الذهبي لا يرى الاستكثار من الأقسام الثلاثة : المستحب والمباح والمكروه ، وعلة ذلك أن " الاكثار " من العلوم المستحبة يوقع فيما لا استحباب فيه ، كما أن الاكثار من المباحات موقع في المكروهات ، وكذا الاكثار من استعمال المكروه مؤد إلى مقارفة الحرام " .

و لا يقف الذهبي عند هذا التقسيم فحسب ، بل إنه يشير إلى أن كل علم من العلوم الإسلامية ينقسم إلى الأقسام الخمسة ، "وليس من العلوم الإسلامية ما كله حق ، وتعلمه متعيَن غيرالكتاب العزيز ، فإنك تنتقل بعده إلى علم حفظ متون حديث الصحيحين و السنن الأربعة والموطأ " .

---

(١) السيمياء : وهو شبيه بالسحر و حاصله أحداث خيالية في الجو لا وجود لها في الحس (أبجد العلوم للقنوجي،ج ٢ /٣٣٢)

ويستعرض الإمام بعض العلوم الإسلامية مبينا تصنيفها على الأقسام الخمسة ، ويكتفي الباحث – لضيق المقام – باستعراض مثال واحد على ذلك وهو **علم الحديث** :

الفرض : يندب معرفته ولا ينبغي للمرء جهله ، مثل أحاديث الإيمان والطهارة والصلاة ، كما أن بعضها يتعين على الطالب الذكي .

المباح : مثل حديث أم زرع [(١)]، وأحاديث الإسرائيليات من " جامع الأصول " لإبن الاثير ونحو ذلك مما يجري مجرى القصص ، وبعض أولى من بعض " .

المكروه :" وقسم يكره حفظه لضعفه واطّراحه ،" وقد ذكر الذهبي بعض الأحاديث الموضوعة فأشار بأن " المقتصر على حفظ متون هذه يتضرر بها ، وتتعلق بذهنه ، ويعتقدها ثابتة ، فلا ينبغي التشاغل بحفظها إلا لمن يعرفها ليحذر منها" .

المحرم : حيث يسمى بعض الأحاديث المكذوبة قائلاً " وهذه الأكذوبات التي وضعت في الصفات ، لا ينبغي للمرء أن ينطق بها ، إلا للتحذير منها " .

* العلوم النافعة والعلوم الضارَة :

* **العلوم النافعة** : يعرف الشيخ العلم النافع بأنه :" ما نزل به القرآن ، وفسره الرسول ﷺ قولاً وفعلاً ، ولم يأت نهي عنه " (الذهبي ، ٢٠٠١، ١٤) و لذلك كثيرا ما تلقاه يسأل الله على الدوام علماً ن والملاحظ أن الإمام قد نصح بالكثير من العلوم والكتب المتعلقة بها والشواهد على ذلك كثيرة ، ومنها :

- القرآن الكريم وعلومه " فعليك يا أخي بتدبر كتاب الله " (الذهبي ،٢٠٠١ ،١٤) .
  افعاً .
- كتب الحديث والسنن " وعليك بإدمان النظر في الصحيحين وسنن النسائي ، ورياض النواوي تفلح وتنجح (الذهبي ،٢٠٠١ ،١٤).

(١) حديث أم زرع قاله النبي ﷺ لعائشة تطييباً لنفسها ومضمونه إجتماع إحدى عشرة أمرأه تحدثت كل واحدة منهن عن زوجها بخيره وشره ومنهن أم زرع التي كانت مدللة يحسن إليها زوجها إلا أنه طلقها ولذلك فقد ورد في بعض الروايات أن النبي ﷺ قال لعائشة بعد أن ذكر الحديث : وإنه طلقها وإني لا أطلقك .
الحديث في الصحيحين البخاري ومسلم من حديث عائشة والمرفوع منه " كنت لك كأبي زرع لأم زرع "
أنظر : بغية الرائد لما تضمنه حديث أم زرع من فوائد للقاضي عياض .

- علم اللغة : وقد جاء نصح الذهبي بضرورة الاعتناء بعلوم اللغة كونها لا غنى عنها لأي عالم عامل "وينبغي الاعتناء بلغة الكتاب والسنة ليفهم الخطاب (الذهبي ، ١٤٠٤هـ ، ١٢) .
- علم الفرائض والمواريث : " علم مليح – والإمعان فيه يفوت الوقت ، والتوسط فيه جيد .
- علم الشروط [١] : "علم حسن شرعي ، من برع فيه ولزم العدالة والورع عاش حميداً ومات فقيراً ومن عاش فيه بالحيل والمكر والدهاء فلا بد له من خزي في الدنيا ، ومقت في الأخرى ، وإن تسوَد هذا " .
- علم الحساب : " ليس من علوم الإسلام ، بل من علوم القبط والفرس وهو صنعة ومعيشة ينال بها الرجل السعادة والدنيا ، ومن اتقى الله فيها ، وكتب لقضاة العدل وباشر الايتام والصدقات ومال الأوقاف والمدارس ، ولزم الأمانة فيه فهذا محمود .
- علم النحو : " النحويون لا بأس بهم ، وعلمهم حسن محتاج إليه " (الذهبي ، ١٤٠٤هـ ،١٢)
- علم الطب : وقد أوصى به في غير موقع من كتبه : السير ، والطب النبوي ، وزغل العلم، وست رسائل ، ويضاف إلى المذكور آنفاً ما سبق إيراده في أثناء الحديث عن العلوم المفروضة و العلوم المستحبة .

ومن الكتب التي حض الذهبي طلبة العلم على مطالعتها و اقتنائها كتب الصحاح [٢] والسنن [٣] و كتاب الجامع [٤] للترمذي الذي قال فيه " في (الجامع) علم نافع ، وفوائد غزيرة، ورؤوس المسائل ، وهو أحد أصول الإسلام " (الذهبي ،٢٠٠١ ، ١٤) و تصانيف البيهقي (ت ٤٥٨ هـ) التي وصفها ومصنفها بقوله: " عظيمة القدر ، غزيرة الفوائد ، قلَ من جوَّد تواليفه مثل الإمام أبي بكر ، فينبغي للعالم أن يعتني بهؤلاء ولا سيما " سننه الكبير" (الذهبي ،٢٠٠١ ، ١٤) .

أما عن تهذيب الكمال للمزي فقد نصح بمطالعته قائلاً : " من نظر في كتاب تهذيب

---

(١) علم الشروط : هو العلم الذي يبحث في كيفية تدوين الأحكام الشرعية على وجه يصح الاحتجاج به
أنظر : كتاب الشروط وعلوم الصكوك للسمرقندي ، ص :١٠ وأبجد العلوم للقنوجي ٢ /٣٣٩
(٢) الصحاح : من أشهرها صحيح البخاري و مسلم ، وهما غنيان عن التعريف .
(٣) السنن : هي الكتب المصنفة على أبواب الفقه ، لتكون مصدرا للفقهاء في استنباط الأحكام ، ومن أشهرها

سنن أبي داود .
(٤) الجامع : و هي مفرد (جوامع) ، كل كتاب يجمع فيه مؤلفه جميع الأبواب من العقائد والعبادات والمعاملات والسير والمناقب والرقاق والفتن وأخبار يوم القيامة ، ومنها : الجامع الصحيح للبخاري ، وجامع الترمذي – أنظر للمزيد : تيسير مصطلح الحديث / محمود الطحان ص : ١٦٨ – ١٦٩ .

الكمال علم محله من الحفظ ، وكل أحد يحتاج إلى تهذيب الكمال [١] (الذهبي ، ١٩٨٨ ، ٢٥)

وهناك كتب اخرى وردت في تعقيب الذهبي على قول عز الدين بن عبد السلام (ت ٦٦٠هـ) : ما رأيت في كتب الإسلام في العلم مثل " المحلى " لابن حزم ، وكتاب " المغني " للشيخ موفــق الديــن (ابن قدامة) . فقال الذهبي : لقد صدق الشيخ عز الدين ، وثالثهما " السنن الكبير " للبيهقي، ورابعهما "التمهيد" لابن عبد البر ، فمن حصل هذه الدواوين وكان من الأذكياء المفتين ، وأدمن المطالعة فيها فهو العالم حقاً (الذهبي ، ٢٠٠١ ،١٤) .

وقد وجه الذهبي طلبة الحديث إلى بعض أعلامه ، فأيد ما ذهب إليه عثمان بن سعيد الدارمي (ت ٢٨٢هـ) الذي قال : من لم يجمع حديث شعبة ، وسفيان ، ومالك ، وحماد بن زيد ، وسفيان بن عيينة فهو مفلس في الحديث – يريد أنه ما بلغ درجة الحفاظ – قال الذهبي : لا ريب أن من جمع علم هؤلاء الخمسة ، وأحاط بسائر حديثهم ، وكتبه عالياً ونازلاً [٢] ، وفهم علله ، فقد أحاط بشطر السنة النبوية ، بل بأكثر من ذلك " (الذهبي ، ٢٠٠١ ،١٤)

ويلاحظ الباحث مما سبق أن توصيات الذهبي كانت تدور حول الموضوعات المتعلقة بعلوم الحديث والرجال وكتبها وهو ما اشتهر فيه – رحمه الله –

- **<u>العلوم الضارة :</u>** رأى الذهبي أن هناك علوما غاية في الضرر على المتعلمين ، وأن بعضها ضرره يغلب نفعه فبعض العلماء يضع بعض التصانيف معتمداً أفكاراً ضالةً يحملها ، ومن هنا فقد وقف الإمام موقفاً ثابتاً لا هوادة فيه من هذه الأمور ، فانتقد وكشف ، وبيّن ، وحذَّرَ.. ومن الشواهد على ذلك :

– " والعلم الذي يحرم تعلمه ونشره ، علم الأوائل ، وإلهيات الفلاسفة ، وبعض رياضتهم بل أكثره ، وعلم السحر ، والسيمياء ، والكيمياء ، والشعوذة ، والحيل [٣] فالعلوم الباطلة كثيرة جدا فلتحذر " (الذهبي ، ٢٠٠١ ، ١٤) .

---

(١) تهذيب الكمال : كتاب يعتني برواة الأحاديث الواردة في الكتب الستة إضافة إلى الرواة الواردين في بعض ما اختاره المزي من مؤلفاتهم الأخرى ..... وموضوعاتٍ أخرى ١/٣٧-٤٩

(٢) العالي : هو الإسناد الذي قل عدد الوسائط فيه مع الاتصال ، والنازل : هو الحديث الذي كثر عدد وسائطه أو بعدت المسافة في إسناده – معجم المصطلحات الحديثية – نور الدين عتر ، ص ٦٤ ، ١١٠ وأشرف أنواع العلو ما كان قريبا من رسول الله ﷺ : الباحث الحثيث في اختصار علوم الحديث ، ابن كثير ص ٨٥ وعلوم الحديث ومصطلحه ، صبحي الصالح ، ٢٣٦–٢٤٠

(٣) أنظر: بيان أنواع العلوم ، وتعريفاتها ، وأهدافها ، والأقوال فيها ، (أبجد العلوم للقنوجي ٢/٢٣– ٥٨٥) .

- قال معلقا على ابن الدهان (ت ٦١٢ هـ) الذي كان مضطلعا بعلوم كثيرة ومنها علم النجوم وعلوم الأوائل ، قال :" لو جهل هذين العلمين لسعد " (الذهبي ، ٢٠٠١ ، ١٤) .
- وقال منتقداً علم الكلام ، وعلم الفلسفة " فلأن يعيش المسلم أخرس أبكم خيـــر لـه من أن يمتلئ باطنه كلاماً وفلسفة " .
- وحول علم المنطق قال : " والمنطق نفعه قليل ، وضرره وبيل ، وما هو من علوم الإسلام، والحق منه فكامن في النفوس الزكية بعبارات غريبة ، والباطل فاهرب منه فإنك تنقطع مع خصمك وتعرف أنك المحق " (الذهبي ، ١٤٠٤هـ ، ١٢) .
- وفي الحكمة الفلسفية الإلهية يقول : " ما ينظر فيها من يرجى فلاحه ، ولا يركن إلى اعتقادها من يلوح نجاحه ، فإن هذا العمل في شق ، وما جاءت به الرسل في شق " وما دواء هذه العلوم وعلمائها والعاملين بها علماً وعقداً[١] إلا الحريق والإعدام من الوجود " (الذهبي ، ١٤٠٤هـ، ١٢) .

- ويشير في معرض تقسيمه لعلوم الأوائل بأن من الباطل منها " القول في الإلهيات ، وأحكام النجوم (الذهبي ، ٢٠٠٠، ٢٨) .
- ويعلق على بعض العلوم التي كان يتقنها إسماعيل بن صالح (ت١٩٠ هـ) وهي الفلسفة ، وضرب العود ، والنجوم . فيقول : " علمه هذا ، الجهل خير منه ."(الذهبي ،٢٠٠١، ١٤)

و يقول بعد نقده لتصرفات بعض العاملين في الحديث والداخلين عليه ،... " فإذا كان علم الآثار مدخولاً ،فما ظنك بعلم المنطق والجدل ، وحكمة الأوائل التي تسلب الإيمان وتورث الشكوك والحيرة التي لم تكن من علم الصحابة ولا التابعين"(الذهبي ، ١٣٧٤هـ ،٥)

وقد أشار الذهبي إلى بعض العلماء منتقدا بعض أفكارهم ومعتقداتهم الواردة في كتبهم[٢] ومنهم : أبو عبد الرحمن السلمي (ت٤١٢ هــ) وما ورد في كتابه حقائق التفسير من شطحات الصوفية والملحدين ، والريوندي الملحد (ت ٢٩٨هــ) الذي وصفه بأنه عدو الدين فتصانيفه فيها

---

(١) عقدا : أي اعتقادا (لسان العرب ، مادة عقد)
(٢) كتب محمد بن زكريا أبو غازي مقالا في مجلة الحكمة ، العدد (١٥) سنة ١٤١٩هـ بعنوان " مصنفات حذر منها الإمام الذهبي في كتابه سير أعلام النبلاء " ص : ٤٠٩ – ٤٣٣

حطّ على الملة ، ومحي الدين بن عربي (ت ٦٣٨ هـ) وما ورد في كتابه "الفصوص " من كفر، و(رسائل أخوان الصفا) الذي ذكر خلال ترجمته للغزالي أن حبب إليه النظر فيها ، وهو داء عضال وجرب مرد ، وسم قاتل ، ولولا أن أبا حامد كان من كبار الأذكياء لتلف . (الذهبي ، ٢٠٠١ ، ١٤) .

وقد نقل الذهبي ملخصا لأنواع العلوم عن يحيى بن عمار(ت ٤٢٢هـ) وأضاف إليه ، قال يحيى : العلوم خمسة : علم هو حياة الدين وهو علم التوحيد ، وعلم هو قوت الدين وهو العظة والذكر ، وعلم هو دواء الدين وهو الفقه ، وعلم هو داء الدين وهو أخبار ما وقع بين السلف ، وعلم هو هلاك الدين وهو الكلام " فأضاف الذهبي – موافقاً – وعلم الأوائل " . (الذهبي ، ٢٠٠١ ، ١٤) .

ج . **العلوم من حيث وجوب النشر من عدمه** : وقد سبق أن تناول الباحث بعض الشواهد على ذلك في موضوع وجوب طلب العلم وتعليمه مثل : تقديم الذهبي الاشتغال بالعلم ونشره على نوافل الصلاة والصيام كما ذكر خلال تعليقه على قصة مالك وابن المبارك ، والحض على بث العلوم الواجبة ونشرها بخاصة ما يتعلق بالقرآن الكريم وحفظه وتعليمه إضافة إلى رأيه في اقتصار بعض العلوم المباحة على خواص العلماء دون أن يذكر سبب ذلك (الذهبي ، ٢٠٠١ ، ١٤)

وقد بين الباحث خلال استعراضه لأقسام العلوم أن هناك بعض العلوم – حسب إعتقاد الذهبي – ينبغي عدم العمل بها أو نشرها ، كونها من العلوم المحرمة ، كعلوم الأوائل وإلهيات الفلاسفة ، والسحر والشعوذة .

- ومن العلوم والأخبار والموضوعات الجائز كتمانها ، تلك التي تحرك الفتن " قال الذهبي معلقاً على قول أبي هريرة عن نفسه : رب كيس عند أبي هريرة لم يفتحه يعني : من العلم قلت (أي الذهبي) : هذا دال على جواز كتمان بعض الأحاديث التي تحرك فتنة في الأصول أو الفروع أو المدح والذم ، أمّا حديث يتعلق بحل أو حرام فلا يحل كتمانه بوجه ، فإنه من البينات والهدى ، وفي " صحيح البخاري " قول الإمام علي رضي الله عنه : حدثوا

الناس بما يعرفون ، ودعوا ما ينكرون ، أتحبون أن يكذب الله ورسوله ، وكذا لو بثّ أبو هريرة ذلك الوعاء لأوذي ، بل لقتل ، ولكن العالم قد يؤديه اجتهاده إلى أن ينشر الحديث الفلاني إحياء للسنة ، فله ما نوى وله أجر – وإن غلط – في اجتهاده (الذهبي ، ٢٠٠١ ، ١٤)

- ويرى الإمام عدم جواز إشهار الأحاديث التي يتشبث بظاهرها أعداء السنن من الجهمية وأهل الأهواء (الذهبي ، ٢٠٠١ ، ١٤)
- كما يرى الذهبي مخاطبة الناس على قدر عقولهم فيقول : "فإنك لن تحدث قوماً بحديث لا تبلغه عقولهم ، إلا كان فتنةً لبعضهم ، فلا تكتم العلم الذي هو علم، ولا تبذله للجهلة الذين يشغبون عليك ، أو الذين يفهمون منه ما يضرهم (الذهبي ، ٢٠٠١ ، ١٤)
- ينكر الذهبي على الذين يكثرون من رواية الغرائب والمناكير ، حتى يصل بهم الأمر إلى "رواية الموضوعات والأباطيل ، والمستحيل في الأصول والفروع ، والملاحم والزهد ، ويبين حال ناقل العلوم الباطلة بقوله : " فمن روى ذلك مع علمه ببطلانه وغر المؤمنين فهذا ظالم لنفسه ، جان على السنن والآثار ، يستتاب من ذلك ، فإن أناب وأقصر ، وإلا فهو فاسق ، كفى به إثماً أن يحدث بكل ما سمع ، وإن هو لم يعلم ، فليتورَع ، وليستعن بمن يعينه على تنقية مروياته " (الذهبي ، ٢٠٠١ ، ١٤) .

موقف الإمام الذهبي من بعض العلوم التي كانت سائدة في عصره والعاملين المشتغلين بها

يأتي هذا الموضوع في سياق الاجابة عن سؤال الدراسة الآتي :ما موقف الامام الذهبي من العلوم التي كانت سائدة في عصره ،والعاملين المشتغلين بها ؟

تناول الذهبي في أكثر من واحد من تصانيفه ومؤلفاته علوم عصره والمشتغلين بها ، بخاصة في رسالته الشهيرة " زغل العلم "(١) التي قال في مقدمتها " اعلم أن في كل طائفة من علماء هذه الأمة ما يذم ويعاب فتجنبه " ثم استعرض علوم عصره مبينا ما يعاب– من وجهة نظره – سواء فيها بحد ذاتها ، أو في المعلمين أو المتعلمين المشتغلين بها ، ومن هذه العلوم :

* **علم القراءة والتجويد** : وكان من أبرز الممارسات التي انتقدها الذهبي في هذا المجال :

- اهتمام بعضهم الشديد بمراعاة الحروف والتنطع في تجويدها على حساب الفهم والتدبر والخشوع ، أي الاهتمام بالشكل دون الجوهر ، وفي هذا يقول : " فالقراء المجودة فيهم تنطع وتحرير زائد يؤدي إلى أن المجود القارئ يبقى مصروف الهمة إلى مراعاة الحروف والتنطع في تجويدها بحيث يشغله ذلك عن تدبر معاني كتاب الله تعالى ، ويصرفه عن الخشوع في التلاوة .

- الغرور الذي يصيب بعضهم وتكبرهم وازدرائهم لغيرهم من القراء ووضع العيوب فيهم فالذهبي يرى أن انصراف بعض القراء إلى الاهتمام بتجويد الحرف على حساب المعنى ، ثم تفوقهم في هذا الفن – كما يعتقدون – يجعل الواحد منهم : " قوي النفس مزدرياً بحفاظ كتاب الله ، فينظر إليهم بعين المقت ، وبأنهم يلحنون ، والقراء منهم لا يحفظون إلا شواذ القراءة .

- انشغال بعضهم بتجويد القراءة على حساب تحصيل العلوم الأخرى : وفي ذلك يقول متابعاً نقده "فليت شعري أنت ماذا عرفت ، وماذا علمت ؟ فأما علمك فغير صالح ، وأما تلاوتك فثقيلة" أي كأنه ينبههم إلى أن علمهم بالتجويد وحده غير صالح ، أي غير كاف للحصول على

---

(١) أنظر التفاصيل في الرسالة المذكورة ، ص ٢٥-٥١ .

مرضاة الله ، والعمل وفق شريعة نبيه وسنته ، وبهذا يريد أن يكسر غرورهم ، ويردهم إلى جادة الصواب ، وإلى التواضع والاستزادة من طلب العلم " (النحلاوي ، ١٩٨٩) .

- ويتصل بهذا العلم ما يسمى " علم القراءات " حيث ينتقد الذهبي بعض المشتغلين به بأنهم بعيدون عن الإخلاص لله ، ويقصدون الرياء من خلال بحثهم عن الوجوه الكثيرة للتلاوة لينالوا إعجاب الآخرين ، مع بعدهم عن الخشية والخشوع والتدبر " وأما القراءة بالروايات وبالجمع ، فأبعد شيء عن الخشوع ، وأقدم شيء على التلاوة بما يخرج عن القصد .

وينتقد الذهبي الباحثين عن الغرائب والظانين بأن علمهم فوق علم الجميع بقوله : "وآخر منهم إن حضر في ختمة أو تلا في محراب جعل ديدنه إحضار غرائب الوجود والسكت والتهوع[1] بالتسهيل ، وأتى بكل خلاف ، ونادى على نفسه " أنا أبو فلان " فاعرفوني فإني عارف بالسبع (الذهبي،١٤٠٤ هـ ،١٢)

ويرى الباحث أن الانتقادات التي وجهها الذهبي إلى بعض ممارسات القراء لا تعني – بحال – الانتقاص من علم القراءة والتجويد فهو علم شريف دعا إليه سبحانه بقوله **{ وَرَتِّلِ الْقُرآنَ تَرْتِيلاً }** (المزمل : ٤) كما أن الذهبي نفسه انتقد العلماء عير المهرة في كتاب الله سبحانه فقال واصفا أبا عبيده معمر بن المثنى التميمي النحوي ،صاحب التصانيف (ت ٢٠٩ هـ) " كان هذا المرء من بحور العلم ، ومع ذلك لم يكن ماهراً بكتاب الله "(الذهبي،١٤٠٤ هـ ،١٤) وهو يرى أن المرء مهما تبحر في هذا العلم فإنه يبقى مقصراً . " ما أحد إلا وما جهل من علم القرآن أكثر مما علم "(الذهبي،٢٠٠١ ،١٤) .

ويخلص الباحث من خلال تحليل انتقادات الذهبي لممارسات بعض القراء أنه كان يدعو في هذا العلم إلى الآتي :

- استمرار حضور النية والقصد – في أثناء القراءة – وهو إرضاء الله تعالى .
- عدم التكبر على الآخرين ، أو ازدراء ما حصلوه في هذا العلم .
- الاجتهاد لتحسين تحصيل هذا العلم ، والوصول إلى مهارة إتقان ما يتعلق به من فنون .

---

(١)التهوع : من هوع ، هاع ، هوعا ، وهو تعمد القيء ، ويقال تهوع نفسه ، إذا قاء بنفسه كأنه يخرجها (وهذا كناية عن تكلف الشيء) ، (لسان العرب ، هوع) .

- التوازن بين البحث عن إتقان تجويد الكلمة وتدبر معناها ، وارتباط ذلك بالخشية والخشوع ، وفقا للسنة النبوية الشريفة [١]
- العمل على تحصيل العلوم الأخرى للدين والدنيا في حدود العمل الصالح المرضي لله رب العالمين إلى جانب تحصيل هذا العلم ، أي علم القراءة والقراءات .

*** علم التفسير :**

ومن أبرز الانتقادات التي وجهها إلى هذا العلم والعاملين به :

- قلة العناية به " وقل من يعتني اليوم بالتفسير ، ولذلك فهو يستحث الهمم للعناية به .
- الاعتناء بتفاسير فيها إشكالات: ويطالع المدرسون اليوم" تفسير الفخر الرازي (ت ٦٠٦ هـ) وفيه إشكالات وتشكيكات لا ينبغي سماعها ، فإنها تحير وتمرض وتردي ولا تشفي غليلا ، نسأل الله العافية .[٢]

- ضياع الحق مع كثرة الأقوال في التفسير : " وأقوال السلف مليحة ، لكنها ثلاثة أقوال فصاعدا، فيضيع الحق بين ذلك ، فإن الحق لا يكون في جهتين ، وربما احتمل اللفظ معنيين".

*** علم الحديث :**

بلغ الذهبي في هذا العلم ، ونقد رواته ، وترجمة علمائه مرتبة الريادة ، الأمر الذي جاء معه غاية في الدقة والإتقان ومن أبرز مآخذه على بعض العاملين في هذا العلم المبارك :

- ضعف الهمة في فهم حديث رسول الله ﷺ ، واللامبالاة في ذلك ، وفيه يقول : "والمحدثون ، فغالبهم لا يفقهون ، ولا همه لهم في معرفة الحديث " (الذهبي ، ١٤٠٤ هـ ، ١٢)

---

(١) ذكر الذهبي أن الفخر الرازي ، تاب واعترف في آخر عمره في وصيته لتلميذه إبراهيم بن أبي بكر الأصبهاني قائلا " لقد تأملت الطرق الكلامية ، والمناهج الفلسفية ، فما رأيتها تشفي عليلاً ولا تروي غليلاً ، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن ، أقرأ في الإثبات : **{ الرحمن على العرش استوى }** (طه: ٥) ، و{ **إليه يصعد الكلم** } (فاطر : ١٠) ، وأقرأ في النفي : (**ليس كمثله شيء**) (الشورى : ١١) ومن جرب مثل تجريبي عرف مثل معرفتي . (الذهبي ، السير ، ٢١ / ٥٠٠)

ويرى الباحث أن كلام الذهبي حول التفسير يحتاج إلى تأمل ، حيث سيتم تناول هذا الامر في مكانه من الفصل الرابع .
(٢) علق الذهبي على استمرار ختم سعيد بن جبير (ت٩٥هـ) للقرآن فيما بين المغرب والعشاء في شهر رمضان فقال : " هذا خلاف للسنة ، وقد صح النهي عن قراءة القرآن في أقل من ثلاث " (الذهبي ، سير إعلام النبلاء، ٣٢٥/٤) وهذا يدل على اهتمام النبي ﷺ بالهدف الأسمى من التلاوة وهو التدبر والفهم والعمل . وعدم الاكتفاء بالتلاوة فحسب .

- عدم تخير العالم الذي يتلقى عنه ، يقول الذهبي منتقدا " إنما همتهم في السماع على جهلة الشيوخ " فأيش (أي شيء) السماع على جهلة المشيخة الذين ينامون والصبيان يلعبون .
- البحث عن الشهرة ، وعدم الإخلاص في نية طلب العلم : ينتقد الإمام حال طلبة الحديث في عصره فيقول : " إنما همتهم ، تكثير العدد من الأجزاء[١] والرواة ، الآن يسمع الجزء ، ونفسه تحدثه متى يرويه ؟ أبعد خمسين سنة ؟ ويحك ما أطول أملك ، وما أسوأ عملك " ويضيف " أما اليوم في زماننا فما يفيد المحدث الطلب ، والسماع مقصود والحديث من التدين به ، بل فائدة السماع ليروي ، فهذا والله لغير الله .
- ضعف التأدب بآداب طلب العلم : ينتقد الشيخ الطلبة بأنهم لا يتأدبون بآداب الحديث " فهم في المجالس يلعبون ويتحدثون ، ويمزحون ، وكثير منهم ينعسون .
- ضعف التدين بالحديث والعمل بما يدعو إليه ، حيث يقول : " ..ولا همة لهم في معرفة الحديث ، ولا في التدين به ...فما يفيد المحدث الطلب والسماع مقصود الحديث من التدين به " أي أن همة الطالب المصروفة إلى الطلب والسماع بهدف نيل الإجازات ثم الرواية ، لا تفيد في الوصول إلى هدف الطلب ، وهو ظهور ما يتم تعلمه في دين المتعلم وعمله .

وباختصار ، فالذهبي يدعو في هذا العلم إلى أهمية الاجتهاد في طلب الحديث وفهم ما ترشد إليه مضامينه من خلال الحرص على تخير العالم الثقة المتقن لعمله في هذا المجال ، إضافة إلى ضرورة إخلاص النية في أثناء الطلب ، والتأدب بآداب مجالس العلم ، والعمل على أن تظهر آثار هذا العلم على سلوكات العاملين به من حيث موافقة العلم للعمل .

*** علم الفقه :**

تناول الذهبي في كتابه " زغل العلم " مذاهب الفقهاء الأربعة فبين رأيه في بعض سلوكات بعض الفقهاء وطلبة هذا العلم وعمل على توجيه تصرفاتهم نحو الافضل ومن ذلك :

- أشار إلى ضرورة الابتعاد عن المذهبية والتعصب لها : ومن الشواهد على ذلك : يتعين على الحاكم والمفتي أن يراقب الله تعالى ، ويتأنى في الحكم بالتقليد ولا سيما في إراقة الدماء ، فالله ما أوجب عليهم تقليد إمامهم فلهم أن يأخذوا منه ويتركوا ، كما قال الإمام مالك

---

(١) الأجزاء : الجزء كل كتاب صغير جمع فيه مرويات راو واحد من رواة الحديث ، أو جمع فيه ما يتعلق بموضوع واحد على سبيل الاستقصاء ، مثل جزء رفع اليدين في الصلاة للبخاري الطحان : تيسير مصطلح الحديث ، ص ١٩٦- ١٧٠

رحمه الله تعالى " كل يؤخذ من قوله ويترك إلا صاحب هذا القبر ﷺ " فيا هذا إذا وقفت بين يدي الله تعالى فسألك لم أبحت دم فلان فما حجتك ؟ إن قلت قلدت إمامي يقول لك : فأنا أوجبت عليك تقليد إمامك ؟!

وينصح أيضا " فلا تعتقد أن مذهبك أفضل المذاهب وأحبها إلى الله تعالى ، فإنك لا دليل لك على ذلك ، ولا لمخالفك أيضا "

ويعد الذهبي الانتصار للمذهب والتعصـــــب له من الأعمال التي لا يحتسبها المسلم لآخرته " وإن كانت همتك ، الانتصار لمذهبك على كل حال وتحصيل المدارس والعلو فما ذا فقها أخرويا بل ذا فقه الدنيا ".

- بين أهمية إخلاص النية لله تعالى ، فقال موجهاً من خلال انتقاده : " وإن كانت همتك كهمة إخوانك من الفقهاء والبطالين الذين قصدهم المناصب والمدارس والدنيا والرفاهية والثياب الفاخرة ، فما ذا بركة العلم ، ولا هذه نية خالصة ، بل ذا بيع للعلم بحسن عبارة ، وتعجل للأجر ، وتحمل للوزر ، وغفلة عن الله " .
- حذّر من الجدال والمراء ، فقال : " فأنت أنت وإن كانت همتك في طلب الفقه والجدال والمراء والانتصار لمذهبك على كل حال ، فما ذا فقها أخرويا بل ذا فقه الدنيا " ويقول أيضا" وعلى كل تقدير احذر المراء في البحث وإن كنت محقا ، ولا تنازع في مسألة لا تعتقدها .
- حذّر من التكبر والعجب بالعمل : " واحذر التكبر والعجب بعملك ، فيا سعادتك إن نجوت منه كفافاً لا عليك ولا لك " .

*** علم النحو :**

يشير الذهبي إلى أن هذا العلم مما يحتاج إليه الناس ، ولكنه يرى ضرورة عدم انشغال العلماء به إلى درجة يضعف معها تحصيلهم لعلم الكتاب والسنة ، إضافة إلى لزوم تقوى الله وعدم التكبر ، فيقول " النحويون لا بأس بهم ، وعلمهم حسن محتاج إليه . لكن النحوي إذا أمعن في العربية ، وعري عن علم الكتاب والسنة ، بقي فارغاً بطالاً لعاباً ، ولا يسأله الله

والحالة هذه عن عمله في الآخرة ، بل هو كصنعة من الصنائع كالطب والحساب ، والهندسة ، لا يثاب عليها ولا يعاقب ، إذا لم يتكبر عن الناس ، ولا يتحامق عليهم ، واتقى الله ، وتواضع وصان نفسه " .

*** علم أصول الدين**[١] :

يعرف الذهبي هذا العلم بأنه اسم عظيم منطبق على أصول الإسلام ، وهما الكتاب والسنة ، ولكنه يختلف عرفا باختلاف أصحاب النحل من السلف والخلف .

وينصح الذهبي هنا بأن يبتعد المسلمون عن بعض المسائل التي تورث الضغائن في النفوس " وبينهم اختلاف شديد في مسائل مزمنة . تركها من حسن إسلام العبد ، فإنه يورث أمراضاً في القلوب ، ومن لم يصدقني يجرب ، فإن الأصولية بينهم السيف يكفر هذا هذا، ويضلل هذا هذا .

ويضرب الإمام مثالا بابن تيمية وما آل إليه حاله من اتهام بالابتداع والكفر من خصومه جراء الاختلافات الشديدة ، وما كان بينهم من اتهامات وردود .

*** علم المنطق :**

أشار الذهبي إلى هذا العلم بقولة " والمنطق نفعه قليل ، وضرره وبيل وما هو من علوم الإسلام ، والحق منه فكامن في النفوس الزكية بعبارات غريبة ، والباطل فاهرب منه فإنك تنقطع مع خصمك وتعرف أنك المحق ، وتقطع خصمك ، وتعرف أنك على الخطأ ،فهي عبارات دهاشه ومقدمات دكاكة نسأل الله السلامة ، وإن قرأته للفرجة لا للحجة ، وللدنيا لا للآخرة فقد عذبت الحيوان وضيعت الزمان والله المستعان ، وأما الثواب فأيس منه ولا تأمن من العقاب إلا بمثاب ".

وعلق الذهبي على وصف أحدهم لعيسى بن الجراح (ت ٣٩١ هـ) بأنه كان أوحد زمانه في علم المنطق والعلوم القديمة فقال " لقد شانته هذه العلوم وما زانته ، ولعله رحم بالحديث إن شاء الله (الذهبي ، ٢٠٠١ ، ١٤) .

ومما سبق يمكن تلمس رأي الذهبي في هذا العلم على النحو التالي :-

- أن هذا العلم ليس من علوم الإسلام ، أي أنه ليس من علوم الدين ولم يرد فيه نصوص دينية

(١)أشار صديق بن حسن القنوجي في كتابه " أبجد العلوم " أن المقصود بهذا العلم هو " علم الكلام " . وهو العلم الذي يقرر معه علم إثبات العقائد الدينية بإيراد الحجج عليها ، ورفع الشبه عنها . وموضوعه عند الأقدمين ذات الله تعالى وصفاته ١/٦٧ – ٧٠

- أن فيه منفعة بسيطة ، إلا أن ضرره أكبر .
- أن الحق في هذا العلم كامن في النفوس الزكية ، لا يحتاج إلى أن يدون بهذه العبارات الغريبة فكل ذي عقل واع ذكي يعرف مثلا أن قولك (كل إنسان فان) يلزم عنه بالضرورة " بعض الإنسان فان " لأن ما يصدق على الكل يصدق على بعضه بالضرورة ، ومثل هذا يقال في كل حقائق هذا المنطق ، ولذلك قال الذهبي (المنطق نفعه قليل) .(النحلاوي ، ١٩٨٩) .

أي أن الإنسان بفطرته يستطيع القيام بمحاكمات صحيحة دون ما حاجة إلى دراسة المنطق .

- وأما الباطل من هذا العلم – من وجهة نظره – فضرره وبيل : يقول النحلاوي (١٩٨٨) : إن ضرره يكمن في تطبيق التصورات المادية الدنيوية على الأمور المغيبة والأخروية فإذا ظهرت لهم المماثلة بين بعض صفات الرب جل جلاله وبعض صفات المخلوقين ، أسرعوا إلى نفي تلك الصفة الربانية أو تعطيلها مع أنه لا يلزم المماثلة حتى يسرعوا إلى تعطيل تلك الصفة الربانية أو نفيها .

وأما ضرره الثاني فيكمن في استخدامه بقصد سيئ قد يجعل الحق باطلاً ، والباطل حقاً، فلو أقر الخصم بهاتين المقدمتين مثلاً : الشجاعة هي الإقدام على المخاطر ، والشجاعة شيمة حميدة ، أمكنك أن تلزمه بأن المنتحر شجاع حميد الشيمة ، وأنت تعرف بطلان ذلك .

- إن مطالعة هذا العلم بقصد الفرجة فقط فيه ضياع للوقت دون فائدة ، إضافة إلى أن هذا العمل لا يثاب عليه ، بل ربما يعاقب .

* علوم الحكمة والفلسفة الإلهية :

للذهبي آراء متفاوتة في هذه العلوم وما يتعلق بها من الفلسفة ، والحكمة الرياضية ، والحكمة الطبيعية .

* **أما الحكمة والفلسفة الإلهية** ، فيبدو من أقواله رفضه المطلق لها ، ومن ذلك .

- قوله بعدم نجاح من يعمل بها أو فلاحه " ما ينظر فيها من يرجى فلاحه ، ولا يركن إلى اعتقادها من يلوح نجاحه " .
- إقراره بأن هذا العلم ليس من علوم الإسلام ، بل إنه يتنافى مع ما جاءت به الرسل عليهم السلام " فإن هذا العلم في شق ، وما جاءت به الرسل في شق " .
- إن هذا العلم قد أضر بعقيدة المسلمين وفطرتهم " إذ الدين لا يزال كاملا حتى عربت هذه الكتب – أي كتب الحكمة والفلسفة اليونانية – ونظر فيها المسلمون ، فلو أعدمت لكان فتحاً مبيناً .
- إنه حكم على هذا العلم بكتبه والقائمين عليها بالإعدام . لتخليص المسلمين من شروره ، وما ينشره فيهم من حيرة وضلال " وما دواء هذه العلوم وعلمائها والعاملين بها علماً وعقداً إلا الحريق والإعدام من الوجود " .

* **وأما الحكمة الرياضية** : فيرى الذهبي أن فيها حقاً وباطلاً : أما الحق فمنه ما يتعلق بالأمور الهندسية والحسابية وفي ذلك يقول " والحكمة الرياضية فيها من طبائع هندسية وحساب ونحو ذلك " ومع أنه يرى بأن هذا الجزء هو صفة تتطلب الإتقان إلا أن المرء فيه لا يؤجر ولا يحاسب " وحقها صنعة وإتقان وتحرير مما لا أجر فيه ولا وزر .

وأما الباطل فهو المتعلق بالتنجيم وما شابه " والحكمة الرياضية فيها حق ، وفيها أباطيل وتنجيم وما أشبه ، فباطلها يؤذي المرء في دينه ويضلله .

* **وأما بالنسبة للحكمة الطبيعية** : فيصفها الذهبي بأنها من علوم الدنيا وليست من علوم الدين(1) كما أنها ليست مما يتقرب به العبد إلى ربه وفي ذلك يقول " والحكمة الطبيعية لا بأس بها لكنها ليست من علوم الدين ، ولا مما يتقرب به إلى الله ولا من زاد المعاد " ويرى الذهبي أن هذا العلم يعد صنعة لكنه كسابقه في العلوم الحقة من العلوم الرياضية "صنعة بلا ثواب ولا عقاب إذا كان صاحبها سليم الاعتقاد عادلا خيرا كما رأينا جماعة منهم "

ويستدرك الإمام بأن المرء يمكن أن يثاب في هذا العلم بقوله " وقد يثاب الرجل على تعليمها بالنية إن شاء الله تعالى " أي إذا نوى نفع المسلمين من هذا العلم في مجال الطب والتداوي ومعالجة الأمراض باستخدام الأعشاب والحشائش ونحو ذلك .

---

(١) أشار بعضهم أن المقصود بأنها ليست من علوم الدين أي أنه لم يرد فيها نصون من القرآن والسنة، انظر النحلاوي ، الإمام الذهبي دراسة موضوعية تحليلية ، ص١٣٠ ، ومهما يكن فهذا التقسيم وما تبعه من قول الذهبي بأنه ليس مما يتقرب به العبد إلى الله هو تقسيم مرفوض ، فكل عمل للإنسان إن كان بقصد إرضاء الله فهو عبادة يثاب عليها –إن شاء الله تعالى–

*** علم اللغة :**

يتحسر الذهبي على هذا العلم في زمانه ، وما أصابه من تفريط وجهل وقلة اعتناء وفي ذلك يقول "اللغويون قد عدموا في زماننا ، فتجد الفقيه لا يدري لغة الفقه ، والمقرئ لا يدري لغة القرآن ، والمحدث لا يعتني بلغة الحديث ، فهذا تفريط وجهل ، وينبغي الاعتناء بلغة الكتاب والسنة ليفهم الخطاب" ، ويستنبط الباحث من النص بعض الأمور التربوية ومنها : ضرورة الاهتمام باللغة العربية ، حيث أن فهم الخطاب القرآني والسنة النبوية وما يدعوان إليه مربوط بمدى العناية باللغة العربية ودرجة إتقانها ومعرفة أسرارها .

*** علم الإنشاء[1]:**

للذهبي في هذا العلم آراء وأفكار تدل على عمق درايته ، ومن أبرز ما يمكن استنباطه من كلامه حول الموضع :

هذا العلم ليس من علوم الآخرة بل هو من علوم الدنيا " الإنشاء فن أبناء الدنيا ليس من علم الآخرة في شيء" .

– من الشروط الواجب توفرها فيمن يريد العمل بهذا الفن :

- أن يكون على دراية بعدد من العلوم المختلفة ذات العلاقة بعمله وفي ذلك يقول : " والكامل فيه محتاج إلى مشاركة قوية في العلوم الإسلامية ، وبصر باللغة ، والنحو ، وخبرة بالمعاني والبيان والسير وفنون الأدب .

  نعم فهو يحتاج بعضها ليحسن إنشاءه : كاللغة والنحو والمعاني والبيان ، ويحتاج الآخر ليستشهد به في أثناء الكتابة ، أو يقتبس منه .

- و من الشروط حسن الكتابة والخط "والكامل فيه محتاج إلى فنون الأدب وحسن كتابة " ولا شك أن حسن الكتابة يزيد وضوح المقصود .

(١)علم الإنشاء : أي إنشاء النثر، وهو علم يبحث فيه عن المنثور من حيث أنه بليغ وفصيح ومشتمل على الآداب المعتبرة عندهم في العبارات المستحسنة واللائقة بالمقام ، وموضوعه وغرضه وغايته ظاهرة مما ذكر (أبجد العلوم ، القنوجي ١/١١٥– ١١٧) .

- ويلزم توفر بعض المواصفات النفسية والعقلية في المنشئ يقول الإمام "والكامل فيه محتاج إلى مشاركة قوية في العلوم الإسلامية ، ويريد عقلاً تاماً ورزانة وسرعة فهم وقوة تخيل " ولا شك أن هذه المواصفات تعطي المنشئ قوة في عمله تمنعه من الوقوع في الزلل . أو الخطأ

- ومن أهم الشروط توفر تقوى الله ومراقبته بما يعينه على إحقاق الحق ، وإبطال الباطل ، وفي ذلك يقول " ولكن ليكن رأس مال المنشئ تقوى الله ومراقبته فربما وضع لفظة تعجبه يهوي بها إلى النار وهو لا يدري ، وربما أبدع في سطر ترتب عليه خراب مصر ، وربما أعان تعلمه على سفك الدماء الحرام" .

- و كحال جميع العلوم الواجبة والمباحة ، فالذهبي يرى ضرورة الإخلاص في العمل ، وتحقيق الهدف الأسمى وهو إرضاء الله تعالى ، ولذلك يقول بعد أن يذكر بعض الأحاديث النبوية حول البلاغة مثل " إن من البيان لسحراً " [١] فانظر أين أنت يا بليغ ؟ فكمّل براعة البلاغة بإرضاء ربك الأعلى فمن اتقى الله كفاه الناس ، ومن أرضى الناس بسخط الله سلط الله عليه من أرضاه ، وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين .

*** علم الشعر :**

يصنف الذهبي الشعر إلى صنفين حسن وقبيح ، وهذان الصنفان يتدرجان في الحسن والقبح وفي ذلك يقول : " الشعر هو من فنون المنشئ وهو كلام ، فحسنه حسن وهو قليل ، وقبيحه قبيح وهو الأغلب ، وبيت ماله الكذب والإسراف في المدح و الهجو والتشبيه والنعوت والحماسة ، وأملحه أكذبه فإن كان الشاعر مقداماً على الكذب في لهجته مصرا على الاكتساب بالشعر ، رقيق الدين ، فقد قرأ مقت الشعراء في سورة الشعراء . "

" ويندر في الشعراء المجودين من يتصون من الهجو ، وربما أدى الأمر بالشاعر إلى التجاوز إلى الكفر نسأل الله العفو ، والشاعر المحسن كحسان ، والمقتصد كابن المبارك ، والظالم كالمتنبي ، والسفيه الفاجر كابن الحجاج ، والكافر كذوي الاتحاد ، فاختر لنفسك أي واد تسلك " .

---

(١) رواه البخاري ، كتاب الطب ، باب إن من البيان لسحراً (٥٧٦٧) ، ٢٤٧/١٠

يرى الباحث مما سبق أن الذهبي بحسه السلفي يقيس بقياس القرآن في هذا العلم ، حيث أن القرآن يعيب على الشعراء عموما كذبهم ومبالغتهم ويستثني من ذلك الشعراء المنافحين عن الإسلام والعقيدة قال تعالى : **{ وَالشُّعَرَاء يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ {٢٢٤} أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ {٢٢٥} وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ {٢٢٦} إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ}**(الشعراء : ٢٢٤ – ٢٢٧)

*** علم الحساب وعلم الشروط :**

وقد سبق تناولهما ضمن الحديث عن العلوم النافعة في هذا الفصل .

*** علم الوعظ :**

عدَ الذهبي هذا العلم فناً بذاته ، يحتاج العامل فيه أن يكون ملماً ببعض الأمور وفي ذلك يقول : "الوعظ فن بذاته يحتاج إلى مشاركة جيدة في العلم ، ويستدعي معرفة حسنة بالتفسير ، وإكثاراً من حكايات الفقراء والزهاد . وعدته التقوى والزهادة ، فإذا رأيت الواعظ راغباً في الدنيا قليل الدين فاعلم أن وعظه لا يتجاوز الأسماع ، وكم من واعظ مفوَه قد أبكى وأثر في الحاضرين تلك الساعة ، ثم قاموا كما قعدوا ، ومتى كان الواعظ مثل الحسين والشيخ عبد القادر الجيلاني رحمهما الله تعالى انتفع به الناس " .

*** علم الطب والصحة :**

اهتم الذهبي بصحة الإنسان بجانبيها الجسمي والنفسي ، ويمكن للباحث الوقوف على آرائه في هذا الموضوع في العديد من مؤلفاته ، خاصة كتابه الطب النبوي (١٩٨٧) الذي فصل فيه في أكثر من موقع ، ومن الذي يرتبط بهذه الدراسة ما يلي :

- قسم الطب إلى قسمين : قسم علمي نظري ، وقسم تطبيقي عملي .
- قسم الجزء العلمي إلى أربعة أجزاء : " العلم بالأمور الطبيعية ، والعلم بأحوال بدن الإنسان، والعلم بالأسباب ، والعلم بالعلامات " أي شكل الجسم وما يدل عليه .

- أشار إلى أن " أخلاق النفس تابعة لمزاج البدن ، فكلما كانت أخلاق النفس أحسن ، كان مزاج البدن أعدل ، وكانت أخلاق النفس أحسن إذا علم ذلك " وضرب على ذلك مثالا بالنبي ﷺ الذي كان على خلق عظيم ، حيث كان خلقه القرآن " فلزم من ذلك أن مزاجه أعـــدل الأمزجة، وأخلاقه أحسن الأخلاق .
- ذكر بأن القوى ثلاث : الطبيعية والحيوانية والنفسانية .
- أوضح بأن أحوال بدن الإنسان ثلاثة : الصحة ، والمرض ، وحالة لا صحة ولا مرض ، حيث ترتبط الأفعال السليمة بالصحة ، والعافية من أفضل ما أنعم الله على الإنسان بعد الإسلام ، حيث بها يحسن عبادة ربه ، والمرض حالة مضادة لها ، وكل مرض له ابتـــداء فيزيد ، وانحطاط وانتهاء .
- قال بأن الإنسان في حركة وسكون بدني ونفسي وفصّل في ذلك كما يلي :
  - الحركة والسكون البدنيان : "فالحركة تؤثر في البدن تسخيناً ، والسكون بالضد " وهذه دعوة للحركة وعدم الخمول
  - الحركة والسكون البدنيان : كما في القبض والفرح ، والهم والغم والخجل ، فإن هذه الأحوال تحصل بحركة الروح إما إلى داخل البدن وإما إلى الخارج .

أشار إلى أن البدن يتغير من جهة الأعراض النفسانية ، وهي الغضب والفرح والهم والغم والخجل " أما الغضب فإنه يسخن البدن ويجففه ، وقد نهى عنه الرسول ﷺ حين أوصى أحدهم بقوله : " لا تغضب " [1] وقال بأنه يجب على من كان يسرع إليه الغضب أو كان سيئ الأخلاق أن يروض نفسه حتى لا يغلبه الغضب فيفعل بموجبه .

وأما الفرح فمن شأنه تقوية النفس والحرارة ، ومتى أسرف قتل بتحليله الروح ، فقد ذكر ذلك عن غير واحد :أنهم ماتوا من شدة الفرح " وهذه دعوة للاعتدال في هذا الأمر . والهم والغم يحدثان الحميات اليومية ، فالهم لأمر ينتظر وقوعه وذهابه ، والغم لأمر واقع لخير فات .. وينبغي لمن أكثر همه أن يتشاغل بما ينسيه ذلك .

أما الجزء العملي فقد وضع له قواعد يلزم تأملها للوقف على خبرة الرجل الواسعة ، وهذه القواعد تنفع في كل العصور ومنها :

---

(١) رواه البخاري ، كتاب الأدب ، باب الحذر من الغضب (٦١١٦) ٥٣٥/١٠ ،وفي موطأ مالك ، كتاب حسن الخلق ، باب ما جاء في الغضب ، حديث (١١) ص ٩٠٥-٩٠٦

- قسم هذا الجزء إلى قسمين : حفظ الصحة ومداواة المرضى .

* ومن قواعد حفظ الصحة ما يلي :

- أخذ الغذاء في وقت الحاجة سبب لدوام الصحة ، وأخذه من غير حاجة إليه يورث البلادة وهو أحد أسباب حدوث الأمراض .
- نهى عن الجمع بين غذاءين باردين أو حارين أو منفخين .
- " متى كان البدن معتدلا بين الجوع والشبع ، والنوم واليقظة ، واعتاد ذلك ، كانت النفس نشيطة خفيفة راغبة في الخيرات ، ومتى حصل إفراط أو تفريط كانت النفس منحرفة بحبه ولهذا قال ﷺ (... أنا أنام وأقوم ، وأصوم وأفطر ...) [(١)] .

- " لا تدخل الحكمة معدة ملئت طعاما ، فمن قل طعامه قل شربه ، ومن قل شربه خف منامه، ومن خف منامه ظهرت بركة عمره " .. والعكس صحيح "ومن اكتفى بدون الشبع حَسُنَ اغتذاء بدنه ، وصلح حال نفسه وقلبه .. فإياكم وفضول المطعم ، فإنه يسم القلب بالقسوة ، ويبطئ الجوارح عن الطاعة ، ويصم الآذان عن السماع للموعظة" .
- ينبغي غسل اليدين من الذفر بعد الطعام .
- ليتجنب شرب الماء عقيب أخذ الطعام ولا في خلاله ، وليشرب نصف ما يرويه فهو أهضم لطعامه .
- ضرورة الحركة خاصة المعتدلة فهي من أقوى الأسباب في حفظ الصحة ، وقد فصّلها على النحو التالي :
- فوائدها : " أنها تسخن الأعضاء وتحلل فضلاتها ، وتجعل البدن خفيفاً نشيطاً . "
- وقتها : بعد انحدار الغذاء من المعدة ، ويقدر ذلك بخمس أو ست ساعات أو اقل أو أكثر بحسب أمزجة الناس ، وبحسب الغذاء .
- علاماتها : الحركة المعتدلة هي التي تحمر فيها البشرة ، وتربو وتبدو العرق ، فعند ذلك ينبغي القطع وأما التي يكثر فيها سيلان العرق فمفرطة ، وأي عضو كثرت رياضته قوي ونشط

---

(١) رواه النسائي عن عبد الله بن عمرو ، كتاب الصيام ، باب صوم يوم وإفطار يوم (٢٣٩٠) ص:٣٧١

- أما القوى الباطنة وما يتعلق بها من تقوية الحافظة فهو ينصح بما يلي : فليكثر من الحفظ وكذلك الذكر والفكر ، ولكل عضو رياضة تخصه ، فللصدر القراءة ويبتدئ فيها من الخفية إلى الجهرية ، وللبصر الخط الدقيق ، وللسمع الأصوات الرفيعة الطيبة .
- أشار بأن ركوب الخيل باعتدال رياضة للبدن كله .
- أما النوم فيشير بان أفضله ما يكون بعد هضم الطعام مبتدئا به على اليمين تمثلا بالرسول ﷺ [1] ونوم النهار مضر يفسد اللون ويورث الأمراض و يكسل ، فيحذر إلا في هاجرة الحر . ويكره النوم بعد صلاة الصبح حتى تطلع الشمس ، كما يكره قبل العشاء الآخرة . أمَا الحديث والكلام بعدها فيجوز إن كان الإنسان في علم أو ذكر أو محادثة الأهل.
- ويوصي لحفظ صحة الأسنان باجتناب مضغ العلك ، وكسر كل صلب ، وشرب كل شديد البرد .

- **أما قواعد الطب واستعمال الدواء فقد أشار الإمام إلى ما يلي :**

- أن الله لم ينزل داء إلا وله دواء ، وذلك يقتضي حث العزائم وتحريك الهمم على تعلم الطب. حيث أنه إذا علم إمكان شفاء كل داء ، وأن له دواء ، رغب الإنسان في العلم به ، فإن حفظ الصحة أشرف المطالب فإنه يحصل تمام أمر الدين والدنيا" .
- "المرء مجبول على صيانة نفسه وبدنه المكون من أمشاج مختلفة" .

علق على من رفض الاستعانة بالطبيب بحجة القدر بقوله: "التوكل هو اعتماد القلب على الله وذلك لا ينافي الأسباب ولا التسبب ، بل التسبب ملازم للمتوكل ، فإن المعالج الحاذق يعمل ما ينبغي ثم يتوكل على الله في نجاحه" .

- أجاز أخذ الأجرة على التطبيب مستشهدا ببعض الوقائع والأحاديث النبوية .
- وافق أبقراط بقوله : من كان بدنه صحيحاً فاستعمال الدواء فيه ضره ، فإن احتاج إليه استعمل بشرطه .
- قال بأنه حيث أمكن التدبير بالدواء الخفيف فلا يعدل عنه ، ويتدرج من الأضعف إلى الأقوى إذا لم يغن الأضعف .

---

(١) قال ﷺ : "إذا أخذت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة ثم اضطجع على شقك الأيمن ثم قل ..." صحيح مسلم ، كتاب الذكر والدعاء ، باب الدعاء عند النوم ٣٢/١٧

- نصح بأن لا يقيم المريض على دواء واحد تألفه الطبيعة ، ويقل نفعه .
- أوصى بأن لا يستعمل المريض الدواء حتى يتأكد من مرضه فقال " وإذا أشكل عليك المرض فلا تهجم بالدواء حتى يتضح لك الأمر .
- كما أوصى بأنه حيث أمكن التدبير بالأغذية فلا تعدل إلى الأدوية .

موقف الذهبي من أصحاب المدارس والفرق الدينية التي اشتهرت في عصره

* **<u>الصوفية</u> :** أشار العمايرة (٢٠٠٠) إلى أن المحاسبي (ت ٢٤٣هـ) كان أول من أرسى الفكر التربوي لمدرسة صوفية ، هادفاً من ذلك إلى تطهير النفس وتزكيتها ، حيث وجه التصوف للتخصص في ميدان التزكية الروحية ، وقد تبع المحاسبي متصوفة آخرون كالجنيد (ت ٢٩٨هـ) وغيره ممن لم يخرجوا عن تعاليم الشريعة في فكرهم ، ثم جاء في أوائل القرن السابع للهجرة محيي الدين بن عربي (ت ٦٣١ هـ) الذي طرح نظرية خاصة للتربية انحرفت بالصوفية عن مسارها وعن دورها الاجتماعي ، حيث طرح موضوع " وحدة الوجود " ابتداء من أدنى كائن فيه حتى الخالق، ولكن بعض هذه الأجزاء أكثر إدراكاً من الأجزاء الأخرى إضافة إلى قوله بأن الإنسان الكامل يتمثل في الأنبياء والأولياء الذين تتجلى فيهم أسرار الكون وروح الوجود ، كما أن قلب الانسان الكامل هو مكان معرفة الله ومن خلاله يبعث الله علومه ووحيه . وكان من أعظم مخاطر الصوفية خروجها من ميدان الحياة الاجتماعية ومن ميدان النفس، حيث لم تعد التربية الصوفية تزكية للنفس ، وإنما صارت تقديسا للأولياء الأحياء منهم والأموات، وبحثا عن الكرامات وتطبيقا لمجموعة من الطقوس والممارسات الغريبة وغير المعقولة .

وقد وقف الذهبي من فرق الصوفية مواقف متباينة تتعلق بسلوكات بعضهم الناتجة عن العقيدة التي يحملها ودرجة صفائها ، فمدح الجنيد ، وأمثاله ممن لم يخرجوا عن نطاق العقيدة ، وبيَن مساوئ الحلاج (ت ٣٠١هـ) ومواقف العلماء ومشايخ الصوفية منه ، حيث نسبه بعضهم إلى الشعوذة ، والزندقة ، وقال آخرون إنه من أهل الضلال والانحلال (الذهبي ، ٢٠٠١، ١٤)

والمتتبع لفكر الذهبي يجد أن بين التصوف الصحيح – كما يراه – وهو المتمثل بفعل الصحابة ومن ذلك قوله : "ما أحلى تصوف الصحابة والتابعين ،ما خاضوا في الخطرات والوساوس ، بل عبدوا الله وذلوا له وتوكلوا عليه ، وهم من خشيته مشفقون ، ولأعدائه مجاهدون، وفي الطاعة مسارعون ، وعن اللغو معرضون ، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم " (الذهبي ، ٢٠٠١، ١٤) .

وشبيه بهذا قوله : " إنما التصوف والتأله والسلوك والسير والمحبة ما جاء من أصحاب رسول الله ﷺ وبَيَّن طائفة من صفاتهم وأفعالهم ومنها : الرضى عن الله ، ولزوم تقواه ، والجهاد في سبيله ، والتأدب بآداب الشريعة ، والقيام بخشية وخشوع، وصوم وقت وإفطار آخر ، وبذل المعروف ، وكثرة الإيثار ، وتعليم العوام ، والتواضع للمؤمنين ، والعزة على الكافرين . (الذهبي ، ٢٠٠١ ، ١٤) .

ومن صفات الصوفية الحسنة كما لاحظها الباحث من خلال متابعة تعليقات الذهبي في كتابه سير أعلام النبلاء : ترك فضول الدنيا ، وقطع المألوفات ، والجوع بلا إفراط مجاهدة للنفس، وإقلال الكلام ، والأكل والنوم والمخالطة ، وكثرة الأوراد ، والتواضع ، وذكرالموت ، وقول لا حول ولا قوة إلا بالله .

وانطلاقاً من الصفات المذكورة وما كان عليه الصحابة والتابعون فقد انتقد الذهبي تصرفات بعض الصوفية ومن ذلك :

- قال بأن العالم إذا عري عن التصوف والتأله فهو فارغ ، كما أن الصوفي إذا عري عن علم السنة زَلّ سواء السبيل .
- علّق على ما ذكره الغزالي من توجه بعض الصوفية إلى العلوم الإلهية دون التعليمية ، وما يفعله هؤلاء وما يصدر عنهم ، وما يتخيلونه بقوله : " ... وهذا الأحمق لم يسمع نداء الحق أبدا ، بل يسمع شيطاناً ، أو سمع شيئاً لا حقيقة له من طيش دماغه "
- علق على قول بعض المتصوفة " للربوبية سر لو ظهر لبطلت النبوة . وللنبوة سر لو كشف لبطل العلم ، وللعلم سرَ لو كشف لبطلت الأحكام " فقال : سر العلم قد كشف لصوفية أشقياء، فحلوا النظام وبطل لديهم الحلال والحرام ".
- حذر طلبة العلم من جوع الرهبان ، وخطاب طيش أصحاب الخلوات " مبيناً أن كل الخير في متابعة الحنيفية السمحة .

- أشار إلى أن الفناء والبقاء هو من ترهات الصوفية ، حيث أطلقه بعضهم ، فدخل من هذا الباب كل زنديق ، وقالوا ما سوى الله باطل فان ، والله تعالى هو الباقي ، وهو هدف الكائنات ، وما ثمَ شيء غيره ، وقد أنشد شاعرهم : "

وما أنت غير الكون بل أنت عينه

وقال آخر : وما ثمّ إلا الله ليس سواه .

وقد علق الذهبي بقوله: فانظر إلى هذا المروق والضلال ... إنما أراد قدماء الصوفية بالفناء نسيان المخلوقات وتركها ، وفناء النفس عن التشاغل بما سوى الله ... لقد أمرنا الله ورسوله بالتشاغل بالمخلوقات ورؤيتها والإقبال عليها وتعظيم خالقها قال تعالى **{ قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ }** (يونس:١٠١) .

- وهناك تعليقات أخرى للإمام تتعلق ببعض تصرفاتهم مثل موضوع الطواف بالقبور . واشتغال بعضهم بالسحر والسيمياء ، وذم تعمقهم في بعض الأمور معتمدين على وساوس وخطرات ليس لها أساس ، إضافة إلى أن نظرة هؤلاء إلى غيرهم تمثلت بمقت من ليس معهم .

ويمكن – مما سبق – تلخيص رأي الذهبي في المدرسة الصوفية :

- لم يرفض الصوفية بشكل مطلق ، بل بين أنها بمعناها – كما ثبتت عن صحابة رسول الله ﷺ – مما يجب أن يتمثله الناس بعامة ، والعلماء بخاصة ، حيث إن منها ما يبعث الطمأنينة في القلب والسكون في الجوارح ، إضافة إلى تقبل الناس لهذه الفئة وما يصدر عنها ، وتقليدها .
- إن من معاني الصوفية الصحيحة ، الجهاد في سبيل الله تعالى . وعدم التراخي عن ذلك .
- إن الاعتدال في طاعة الله هو المطلوب ، أما إيذاء النفس بهذه الحجة فمرفوض تماماً ، إضافة إلى انه يؤدي إلى التأثير على سلامة العقل والإيمان .
- إن معظم انتقاد الذهبي لبعض فرق المتصوفة ناتج عن خروج هؤلاء عن العقيدة الصحيحة من حيث القيام بأفعال تتنافى معها .

- **<u>أهل الكلام</u>** :المقصود بعلم الكلام هو ذلك العلم الذي يبحث في العقائد ، وفي الرد على المخالفين بالأدلة العقلية ، فهو مبني على أن أصحابه يؤمنون بالعقائد الدينية ، وبصحة

هذه العقائد الإسلامية ، معتمدين في ذلك على الجدل والإقناع والمنطق ، كما أشار بعضهم إلى أن الفلسفة كانت عندهم إحدى الأدوات لإقناع المخالفين ، وإثبات صحة العقيدة .

وقد شغلت المدرسة الكلامية نفسها بأمور عقدية دفاعية وهجومية ، وبقضايا تهم الكبار والمثقفين ،حتى اتهموا بالزندقة . بخاصة تلك القضية التي شغلت الناس فترة ، وامتحن فيها بعض العلماء وعذبوا ، وهي موضوع خلق القرآن ، وصفات الله تعالى ، وما نتج عن ذلك من تفريق للأمة (العمايرة ، ٢٠٠٠) .

ووصف بعضهم طريقة المتكلمين بأنها كانت تغاير إلى حد كبير طريقة التفكير التي سادت صدر الإسلام ، فهم آمنوا بالله وما جاء به الرسول ﷺ ، ثم أرادوا أن يبرهنوا على ذلك بالأدلة العقلية المنطقية ، فنقلوا الوضع من فطرة وعاطفة ومخاطبة لهما بالنظر في آيات الله ، إلى دائرة العقل والنظر ، ومن فن جميل إلى علم ومنطق ، كما أنهم لم يؤمنوا كما آمن غيرهم بالإيمان بالمتشابهات جملة من غير تفصيل ، بل قاموا بجمع الآيات التي يظهر بينها خلاف كالجبر والاختيار ، وكالآيات التي قد يظهر منها جسمية الله تعالى ، وسلَطوا عليها عقولهم. وجرؤوا على ما لم يجرؤ عليه غيرهم ، فأداهم النظر في كل مسألة إلى رأي ، فإذا توصلوا إليه عمدوا إلى الآيات التي يظهر أنها تخالف الأولى فأوّلوها ، فكان (التأويل) من أبرز معالم طريقتهم ، يضاف إلى ذلك أنهم وثقوا بالعقل إلى حد أنه لو تعارض النص مع العقل رجحوا دليل العقل ولجأوا إلى تأويل النص (علي ، ١٩٩١) .

ويرى الباحث أن تناول فكر مدرسة الكلام يحتاج إلى أبحاث متخصصة ، ومن هنا يضيق المقام عن إعطاء هذه المدرسة حقها .

أما عن رأي الذهبي في أهل الكلام فقد كان منطلقاً من البحث عن سلامة العقيدة ، وعدم الدخول في الجدال والمناقشات غير المثمرة ، مما قد يخرج المتناظرين عن جادة الإيمان أحياناً، ومن الشواهد على ذلك :

– بين الذهبي في أكثر من موقع سلامة السلف من الرعيل الأول في صدر الإسلام من الكلام الممقوت ، فقد أوضح كيف يكرهون طرح الأسئلة حول المواضيع التي سكتت عنها الشريعة مثل مصير أطفال المشركين وما شابه ، فقال " كان السلف يزجرون التعمق ، ويبدِّعون أهل الجدال " (الذهبي ، ٢٠٠١ ، ١٤) .وعلق على قول أحدهم أنه يغبط والده لأنه لم يكن صاحب كلام ، ومات لا يعرف إلا الحديث " فقال : هكذا كان علماء السلف لا يرون الدخول في الكلام ،

ولا الجدال ، بل يستفرغون وسعهم في الكتاب والسنة والتفقه فيهما ، ويتبعون ولا يتنطعون " (الذهبي ، ٢٠٠١ ، ١٤) .

- أشار إلى أن من بعض نتائج الاشتغال بالكلام – بخاصة فيما يتعلق بذات الله سبحانه – ما يؤدي إلى الكفر والتكفير . فقد علق على كلام بعضهم بقوله " مثاله شبه وإشكالات من نتائج أفكار أهل الكلام ، تورد في الجدال على آيات الصفات وأحاديثها ، فيكفر هذا ، وينشأ الاعتزال والتجهم ، والتجسيم وكل بلاء ... نسأل الله العافية (الذهبي ، ٢٠٠١ ، ١٤) .
- قارن أكثر من مرة بين عقيدة أهل السلف في الأسماء والصفات ، وبين ما تقوله فرق الكلام ومن ذلك قوله " عقيدة السلف ومذهبهم إثبات الصفات وإجراؤها على ظواهرها ، ونفي الكيفية والتشبيه عنها " وقوله " الجهمية يقولون " إن البارئ تعالى في كل مكان ، والسلف يقولون أن علم البارئ في كل مكان ، ويحتجون بقوله تعالى **{ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُم}** (الحديد : ٤) يعني بالعلم ، ويقولون أنه على عرشه استوى ، كما نطق به القرآن والسنة " (الذهبي ، ٢٠٠١ ، ١٤) .

ويمكن تأكيد القول أن خلاف الذهبي مع هذه الفرق كان منشؤه العقيدة وما يؤثر على سلامتها ، حيث تظهر منه الشدة والحزم ، أما عدا ذلك فهو يبدو متوازناً متسامحاً ، رافضاً للمغالاة والتفكير ، والأمثلة التالية تبين ذلك :

- وازن بين العقل والنقل ، وبين بعض الأخطاء التي يقع فيها بعض طلبة العلم أو المحسوبين عليهم ومن ذلك :
- رفض بعضهم للسنة النبوية والاكتفاء بما ورد في القرآن الكريم ، وقد وصف هؤلاء بأنهم ضالون .
- تغليب بعضهم للعقل على ما جاء في كتاب الله سبحانه ، وما ورد في السنة ، وهؤلاء وصفهم بأنهم أشباه أبي جهل .
- مقت بعضهم للعقل والنقل ، وميلهم إلى ما يمليه عليهم هواهم وذوقهم وخيالاتهم الفاسدة، وقد حكم على هؤلاء بأنهم أباليس في صورة بشر ، وجب التخلص منهم (الذهبي ، ٢٠٠١ ، ١٤) .
- ثبت عنه أنه أخذ العلم عن رافضي (الذهبي ، ١٩٩٣، ٤) .
- علق على قول عباد بن يعقوب الرواجني الشيعي (ت ٢٥٠هـ) من لم يبرأ في صلاته من أعداء آل محمد ﷺ ، حشر معهم " فقال " هذا الكلام مبدأ الرفض ، بل نكف

ونستغفر للأمة ، فإن آل محمد ﷺ في أيامهم قد عادى بعضهم بعضاً ، واقتتلوا على الملك ، وتمت عظائم ، فمن أيهم نبرأ (الذهبي ، ٢٠٠١ ، ١٤) .

أما عن مجال المقارنة بين نظرة أهل الفقه والحديث – والذهبي منهم – ونظرة أهل الكلام إلى العملية التعليمية / التعلمية ، فقد أشار إلى ذلك علي (١٩٩١) فقال " إذا صح أن نقول أن أهل الفقه كانوا رجالا " عمليين " بمعنى الاشتغال بمواجهة المشكلات والقضايا المتصلة بحياة المسلمين اليومية ، فإننا نستطيع أن نقول إن أهل الكلام كانوا رجالاً " نظريين " بمعنى الاشتغال بمسائل فكرية ربما لا يشعر بها عامة الناس ، ولذلك رأينا رجالاً من أهل الفقه يعملون بالتعليم بكثرة ، بينما لا نجد ذلك تماما بالنسبة لأهل الكلام فإذا أخذنا التربية بمعناها الفني الذي يحصرها في نطاق عملية " التدريس" فلن نجد لأهل الكلام إلا وجوداً باهتاً إلى أدنى درجة ممكنة ، بينما نجد وجوداً ظاهراً فعالاً لأهل الفقه ، لكننا لو أخذنا التربية من وجهها الفلسفي وخاصة في بابها المسمى " فلسفة التربية " فسوف نجد العكس ، أي وجوداً طيباً لأهل الكلام ، ووجوداً ضعيفاً لأهل الفقه .

طرق التربية والتعليم وأساليب تحصيلها في فكر الذهبي

سيحاول الباحث خلال تناول هذا الموضوع الاجابة عن سؤال الدراسة الآتي : ما الطرق والاساليب التربويه الواردة في فكر الامام والمتعلقة بتحصيل العلوم في عصره ؟؟ حيث سيتم التعرض إلى نوعين منها : أولهما ما أطلق عليه في ذلك العصر طرق التحمل وصياغة الاداء وهو خاص بعلم الحديث الشريف وثانيهما ما يمكن أن يكون شبيهاً بأساليب التربية في هذا العصر .

أولاً : طرق التحمل وصيغ الاداء :

ورد في كتب الذهبي ومصنفاته العديد من هذه الطرق سواء تلك التي علم بها ، أم تعلم من خلالها ، أم كانت له تعليقات حولها ومن ذلك :

- **الإجازة :** عرّفها بعضهم بأنها " إذن الشيخ للطالب بالرواية عنه "(صالح ، ١٩٨٥)، وصورتها أن يقــول له " أجزت لك أن تروي عني كذا " (الطحان ، ١٩٨٥) ، وقـــــد ورد ذكرها كثيرا لدى الذهبي ، مثل :

- قوله في ترجمة المرار بن حمويه (ت ٢٥٤ هـ) : كان من أئمة الإسلام ، وما وقع لنا حديثه العالي إلا بالإجازة .
- قوله في ترجمة أحمد بن علي البغدادي القلانسي (ت ٧٠٤ هـ) : أجاز لي مروياته سنة سبع وتسعين وستمائة .
- أشار الدكتور معروف في كتابه : الذهبي ومنهجه في كتابه تاريخ الإسلام (١٩٧٦) أن الذهبي قد أجاز لأحفاده رواية كتابه " تاريخ الإسلام " .
- قال في خاتمة كتابه جزء فيه أهل المائة (١٩٩٧) " بلغ تحريراً وقراءةً على كاتبه الفقيه العالم أمين الدين سالم بن الحسن البعلبكي في ذي الحجة سنة أربعين وسبعمائة ، وأجزت له

– مروياتي وما ألفته ، وكتب محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي .

ومن الشواهد السابقة يتبين أن الذهبي قد أجيز وأجاز ، أي أنه مارس الأسلوب عمليا ، ويستدل من شواهد أخرى أنه قد وضع بعض القواعد والضوابط لهذا الأسلوب ، ومن ذلك :

- **أن الإجازة أجود من حضور المتعلم للمجلس خاصة إذا كان صغيرا :** علق الإمام على سماع أحدهم من معلمه وهو صغير بقوله " سماعه من الكتاني في الخامسة ، ومن هذا الحين أخذ الطلبة في تسميع أولادهم في سن الحضور ، ففسد النظام ، بل الإجازة أجود من الحضور في القوة ، إذ من سمع حضورا بلا فهم لم يتحمل شيئا ، والمجاز له قد يحمل ، أما إذا كان مع الحضور إذن من الشيخ في الرواية ، فهو أجود "

ب- **أن يكون كل من المجيز والمجاز ثقةً ثبتاً :** وفي ذلك يقول " ومن روى شيئاً من العلم بالإجازة عن مثل شعيب بن أبي حمزة (ت ١٦٢ هـ) في إتقان كتبه وضبطه ، فذلك حجة عند المحققين ، مع اشتراط أن يكون الراوي بالإجازة ثقةً ثبتاً أيضاً ، فمتى فقد ضبط الكتاب المجاز، وإتقانه ، وتحريره ، أو إتقان المجيز أو المجاز له ، انحط المروي عن رتبة الاحتجاج به ، ومتى فقدت الصفات كلها لم تصح الرواية عند الجمهور .(الذهبي ، ٢٠٠١ ، ١٤) .

ج – **ضبط الكتاب المجاز ، وإتقانه وتحريره :** ويعرف ذلك من منزلة كاتبه إتقاناً وخطأً ، كما في الشاهد السابق ، وكما في ترجمة (عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي (ت ١٧٥ هـ) بقوله : "ولا ريب أن الأخذ من الصحف ، وبالإجازة يقع فيه خلل ، ولا سيما في ذلك العصر ، حيث لم يكن بعد نقط ، ولا شكل فتتصحف الكلمة بما يحيل المعنى ، ولا يقع مثل ذلك في الأخذ من أفواه الرجال ، وكذلك التحديث من الحفظ يقع فيه الوهم بخلاف الرواية من كتاب محرر .
(الذهبي ، ٢٠٠١ ، ١٤) .

د- **يمكن أن تكون الإجازة بعد امتحان وسؤال ، وبحضور الشهود :** فقد قال في ترجمته لمحمد بن أحمد الخويّي (ت ٦٩٣ هـ) : " أجاز لي مروياته وحضرت بين يديه ليشهده الحاضرين عليه في إجازاتي بالسبع فسألني عن قراءتي **{لا يَأمُرُكُم }** (آل عمران : ٨٠) ، وعن قوله : **{اتَّخَذنَاهُم سُخريا}** (ص : ٦٣) فأجبت وعللت فأعجبه ذلك . (الذهبي ، ١٩٨٨ ، ٢٥)

هــ – **ومن أشكال الإجازة أن يكتب المعلم لتلميذه بالإجازة سواء كان المجاز حاضراً أم غائباً:** وقد أورد الذهبي هذا النوع ، فقال في مقدمة كتابه معجم الشيوخ (١٩٨٨) : " أما بعد فهذا معجم ، يشمل على ذكر من لقيته ، أو كتب إلى بالإجازة في الصغر ، وعلى كثير من المجيزين لي في الكبر "

- **المناولة :** وهي إعطاء المعلم للطالب شيئاً من مروياته بيده ، وإخباره أنه من مروياته ، وصيغة الأداء بها ؛ ناولني فلان ، وأنبانا إجازة ، وهي على نوعين :

- **المناولة المقرونة بالإجازة :** ومن صورها أن يدفع الشيخ للطالب كتابه ويقــول له : هــذه
- روايتي عن فلان فاروه عني ، ثم يبقيه معه تمليكاً أو إعارة لينسخه ، وهذه الإجازة تجوز الرواية بها .
- **المناولة المجردة عن الإجازة :** ومن صورها دفع الكتاب للطالب ، وقول : هذا سماع ، أو هذا من حديثي دون أن يكمل بقوله: فاروه عني ، أو أجزت لك روايته ، وقد قال كثير من العلماء بعدم جواز الرواية بها . (صالح ، ١٩٨٥) (الطحان ، ١٩٨٥) .

وقد كان الذهبي يفرق خلال ترجماته بينها وبين الأنواع الأخرى ومثال ذلك :

- قال في ترجمة محمد بن عبد الله القيسي اللبلي (ت ٥٧٠ هـ) : إن روايته للموطأ عن إسحاق بن عامر الطوسي كانت مناولة ، وأن رواية القيسي عن الطلاعي ، إجازة إن لم يكن سماعا (الذهبي ، ٢٠٠١ ، ١٤)
- قال في ترجمة عبد الملك بن جريج (ت١٥٠ هـ) : " كان يروي الرواية بالإجازة ، وبالمناولة (الذهبي ، ٢٠٠١ ، ١٤) .

- **الوجادة :** وهي لغة مصدر وجد ، يجد ، وصورتها أن يجد حديثا أو كتابا بخط شخص يرويها بإسناده ، ولم يلقه ، أو لقيه ولكنه لم يسمع منه تلك الأحاديث التي وجدها بخطه ، فله أن يقول : وجدت بخط فلان ، أو قرأت بخط فلان ، وبلغني ، وقال فلان ، وذكر فلان ، ...وقد اختلف العلماء في جواز العمل بها (ابن كثير ، د.ت) (صالح ، ١٩٨٥) .

قال الذهبي معلقا على قول أبي عبد الله الحاكم : إسحاق ، وابن المبارك ، ومحمد بن يحي هؤلاء دفنوا كتبهم قال : هذا فعله عدة من الأئمة ، وهو دال على أنهم لا يرون نقل العلم وجادة ،فإن الخط قد يتصحف على الناقل ، وقد يمكن أن يزاد في الخط حرف فيتغير المعنى ، ونحو ذلك ...واليوم بعض النقلة للمسائل قد لا يحسن أن يتهجى (الذهبي ، ٢٠٠١ ، ١٤) .

- **السماع :** ويعد هذا الأسلوب أعلى أقسام التحمل والأخذ عن الشيوخ والعلماء ، وصورته أن يقرأ الشيخ ، ويسمع الطالب ، سواء قرأ الشيخ من حفظه أو كتابه ، وسواء سمع الطالب وكتب ما سمعه ، أو سمع فقط ولم يكتب .

ومن الألفاظ الدالة على السماع أن يقول الطالب في حال السماع : سمعت ، أو حدثني ، وفي حال القراءة : أخبرني ، وفي الإجازة : أنبأني ، وفي سماع الذاكرة ، ذكر لي ، ويختلف سماع الذاكرة عن سماع التحديث في أن الأخير يستعـــــد له كل من الشيخ والطالب تحضيرا وضبطا قبل المجيء لمجلس التحديث ،أما المذاكرة فليس فيها ذاك الاستعداد(الطحان ،١٩٨٥).

وقد وردت ألفاظ السماع عند الذهبي بشكل كبير خاصة في كتابه المعجم المختص بالمحدثين (١٩٨٨) ومن ذلك : سمع مني ، وسمعت منه ، وسمعت كذا من طريقه ، وسمعناه ، وسمع معنا ، وأسمعه أبوه .

ويمكن للباحث استخلاص الآتي من موضوع السماع :

- أن السماع يكون منفردا ، أو مع جماعة .
- أن السماع يكون أتقن إذا تشارك فيه اثنان فأكثر لقوة الاجتماع على ضبط المسموع ، كما جاء في ترجمة هدبة بن خالد القيسي (ت–٢٣ هـ) الذي كان يطلب منه التحديث فيقرأ من كتب أخيه أمية ، وقد علق الذهبي على ذلك بقوله : " رافق أخاه في الطلب ، وتشاركا في ضبط الكتب ، فساغ له أن يروي من كتب أخيه " (الذهبي ، ٢٠٠١ ، ١٤) .
- أن السماع يجب أن يكون على شيخ مختار بعد بحث وتدقيق ونية صادقة ، قال الإمام في رسالته زغل العلم (١٤٠٤ هـ) – منتقدا بعض المحدثين وطلبة الحديث – "والمحدثون ، إنما همتهم في السماع على جهلة الشيوخ ، وأي خير في حديث مخلوط صحيحه بواهيه وأنت لا تفليه ولا تبحث عن ناقليه " .

- **القراءة والعرض :** وصورتها أن يقرأ الطالب والشيخ يسمع ، سواء قرأ الطالب ، أو قرأ غيره وهو يسمع ، وسواء كانت القراءة من حفظ أو من كتاب ، وسواء كان الشيخ يتبّع للقارئ من حفظه ، أو أمسك كتابه هو ، أو ثقة غيره . (الطحان ، ١٩٨٥) .

وقد ذكر شميساني في كتابه الحافظ شمس الدين الذهبي (١٩٩٠) أن الإمام بعد أن طار صيته واتسعت دائرته ، التف حوله الصحبة والرفقة والتلاميذ يقرأون عليه ويقرأ عليهم " والمتتبع لكتابه المعجم المختص بالمحدثين (١٩٨٨) يجد كثرة واضحة في ألفاظ القراءة ، ومن

ذلك : قرأت عليه الكثير ، قرأت عليه جزءاً ، رأيته وسمعت عليه في حلقة إقرائه ، قرأ عليّ كتاب كذا وفي المعارضة يقول بأنه جالس أحد الشيوخ تمهيداً للعرض على شيخه الفاضلي (الذهبي ، ١٩٩٧ ، ١٦)

* **المذاكرة :** نقل الهلالي في كتابه كفاية الحفظة شرح المقدمة الموقظة للذهبي (٢٠٠٠) أن المذاكرة هي أن يتذاكر أهل العلم فيما بينهم في مجالسهم ببعض الأحاديث ، فإنهم حين ذلك لا يحرصون على الدقة في الأداء ، لتيقنهم أنها لا يقصد بها السماع منهم ، ولذلك منع جماعة من الأئمة الحمل عنهم حال المذاكرة . وقال الخطيب البغدادي في كتابه الجامع لأخلاق الراوي والسامع (١٩٨٣) ، إذا أورد المحدث في المذاكرة شيئا أراد السامع له أن يرويه عنه ، فينبغي له إعلام المحدث ذلك . ليتحرى في تأدية لفظه ، وحصر معناه " . وقد أورد الذهبي هذا الأسلوب في كتبه ، فقد وردت له ألفاظ مثل : اجتمعت به وذاكرته وجالسته (الذهبي ، ١٩٨٨، ٢٥) ، ولكنه كان يرى في المذاكرة شيئا فقد قال : إذا قال : حدثنا فلان مذاكرة ، دل على وهن ما، إذ المذاكرة يُسَمَّحُ فيها " (الذهبي ، ٢٠٠٠، ٢٨) .

* **الكتابة والمكاتبة :**

وهي أن يكتب الشيخ مسموعه ، أو شيئا من حديثه لطالب حاضر عنده ، أو غائب عنه، سواء كتب بخطه ، أو كتب غيره بأمره . (صالح ، ١٩٨٥) فإن أذن له في روايته عنه ، فهو كالمناولة المقرونة بالإجازة ، وإن لم تكن معها إجازة ، فقد جوّز الرواية بها بعضهم . (ابن كثير ، د.ت) .

وقد ذكر الذهبي هذه الطريقة بأكثر من صورة في كتبه ، مثل : الكتابة إلى ، والكتابة عن ، وتبادل الكتابة ، والنسخ ، والنقل ، كتابة الأجزاء والتحصيل

- قال في ترجمة جبريل بن أبي الحسن العسقلاني (ت ٦٩٥هـ) : كتب وسمع وكتب إليَ بمروياته (الذهبي ، ١٩٨٨، ٢٥) .
- قال في ترجمة محمد بن أبي بكر الأنصاري (ت ٧٤١ هـ) : والصفة شأنه ، كتبت عنه فوائد (الذهبي ، ١٩٨٨، ٢٥) .
- قال في ترجمة علي بن عبد الكافي السبكي (٧٥٦ هـ) : ورفيقنا الإمام علي كتب علي وكتبت عنه (الذهبي ،١٩٦٢ ، ٢٣) .
- قال في ترجمة أحمد بن محمد بن إسماعيل الحراني المغربي (ت ٧٢٥هـ) : جمع بالسبعة على غير واحد ، وحمل إليّ إجازاته ، فعملت له منها ما يكتب للتلاميذ .

(الذهبي ، ١٩٩٧، ١٦)

* **المقابلة** : **و**هذه العملية تتم بعد الانتهاء من الكتابة ، حيث يقوم الطالب بمقابلة كتابه بأصل شيخه ، بحيث يمسك هو وشيخه كتابيهما حال التسميع ويكفي أن يقابـــــل له ثقة آخر في أي وقت حال القراءة أو بعدها ، كما يكفي مقابلته بفرع مقابل بأصل الشيخ . (الطحان ، ١٩٨٥) .

وقد رأى الذهبي ضرورة هذه العملية فقال : ومن التساهل : السماع من غير مقابلة ، فإن كان كثير الغلط لم يجز ، وإن جوزنا ذلك ، فيصح فيما صح من الغلط ، دون المغلوط ، وإن نَدَر الغلط فمحتمل ، لكن لا يجوز له فيما بعد أن يحدث من أصل شيخه (الذهبي ، ٢٠٠٠، ٢٨) .

* **الإملاء** :[1] وهو أن يقوم المعلم بالقراءة على تلميذه أو مجموعة من تلاميذه سواء أكان ذلك من كتاب أم من حفظه ، وهم يكتبون ما يملي عليهم .

وقد ورد هذا الأسلوب لدى الذهبي ومن الشواهد عليه :

- قال في ترجمة محمد بن علي بن يحيى الغرناطي (ت ٧١٥هـ) أملى عليَ أكثر هذا ابن المطري صاحبي (الذهبي ، ١٩٩٧، ١٦)
- وقال في الموقظة (٢٠٠٠) : " كان الحفاظ يعقدون مجالس للإملاء ، وهذا قد انعدم اليوم والسماع بالإملاء يكون محققاً ببيان الألفاظ للمسمع و السامع " (وكأنه يستثير الهمم للعودة إلى هذا الأسلوب مبينا أهم الشروط ، وهي ضرورة بيان الألفاظ ووضوحها سواء للمملي أو المستملي (المسمع و السامع) .

* **الملازمة** : وهي بقاء التلميذ مع معلمه مدة ، يلازمه ليأخذ عنه ، وفي ذلك يقول الشيخ مترجما لمحمد بن نعمة النابلسي (ت ٧٠٠هـ) :اشتغل وحفظ ولازمني مدة في التشاغل بعلوم الحديث (الذهبي ، ١٩٨٨ ، ٢٥) .

* **التعليق** : وهي أن يجد المتعلم عند معلمه ، أو زميله شيئا فيستفيد منه ويكتبه ، ومن الشواهد عند الذهبي :

- قال في ترجمة محمد بن أحمد الحضرمي السبكي : علقت منه أشياء من التواريخ(الذهبي ، ١٩٨٨ ، ٢٤) .
- قال في ترجمة عبد القادر بن محمد المقريزي (ولد سنة ٧١٧هـ) سمع ، وحصَل ونسخ ، .. علقت عنه فوائد (الذهبي ، ١٩٨٨ ، ٢٥) .

---

(١) أنظر : أدب الإملاء والاستملاء للسمعاني ، وتفاصيل هذا الأسلوب .

* **المناظرة :** وتعني النظر بالبصيرة من الجانبين في النسبة بين الشيئين إظهارا للصواب ، ويوجد في معناها : التناظر، الذي هو التقابل سواء كان بين الشخصين في المجلس الواحد ، أو بين الأدلة والحجج ، ويوجد فيها معنى الانتظار ، لأن كل من المتناظرين ينتظر صاحبه حتى يتم كلامه ، ويوجد فيها كذلك معنى التأمل والتفكر حيث يتأمل كل منهما في كلامه ، وكلام المناظر حتى لا يقع الخطأ (حسين ، ١٩٩٩) .

ومن آراء الذهبي حول هذا الأسلوب :

- أن تكون المناظرة بين الاثنين برحابة صدر دون ضيق أو تبرم من أي منهما ، قال في تعليقه على ابتسام ابن قدامة الدائم في أثناء مناظراته منتقدا وضع المناظرات في زمنه " أكثر من عاينا لا يناظر أحداً إلا وهو ينسّمّ [من السم] (الذهبي ، ٢٠٠١ ،١٤)
- عدَ قوة المناظرة من صفات المجتهد فقال : " ... الفقيه المنتهي ، اليقظ الفهم ، المحدث الذي قد حفظ مختصرا في الفروع .. وشارك في الفضائل مع حفظه لكتاب الله وتشاغله بتفسيره وقوة مناظرته ، فهذه رتبة من بلغ الاجتهاد (الذهبي ، ٢٠٠١ ،١٤)

ثانياً : طرق التربية والتعليم وأساليب تحصيل العلوم ومنها :

١. **أسلوب القدوة الصالحة :** وهو من أبرز الأساليب في تربية الفرد وتنشئته منذ الصغر ، حيث يتوقف ما يكتسبه من عادات سواء أكانت مرغوبة أم غير مرغوبة على نوع القدوة التي يتعرض لها ، ولذلك اهتم الذهبي بتربية الفتى صغيرا فقال : على الوالدين تعليم الأولاد أولا فأولا ما يجب اجتنابه ، ويلزم فعله و اعتقاده " (الذهبي ،١٩٨٨، ١٣) ولا شك أن التعليم هذا يكون بالقول والعمل المرافق له، كي يزداد ثباتا .

ومن الشواهد الأخرى على هذا الأسلوب عند الذهبي :

- ذكر الإمام بعض النتائج لعدم وجود المعلم القدوة مثل : الاجتراء على الله والكذب عليه ، والنقص في العلم والعمل ، وعدم إتقان العلم الذي لم يخلصوا به ، ولم يريدوا به وجه الله تعالى ، فقال : " وبعضهم لم يتق الله في علمه ،بل ركب الحيل ، وأفتى بالرخص ، وروى الشاذ من الأخبار ، وبعضهم اجترأ على الله ووضع الأحاديث ، فهتكه الله وذهب علمه ، ..

وهؤلاء كلهم رووا من العلم شيئا كبيرا ، وتضلعوا منه في الجملة ، فخلف من بعدهم خلف بأن نقصهم في العلم أو العمل ، و تلاهم قوم انتموا إلى العلم في الظاهر ، ولم يتقنوا منه سوى نزر يسير ، أوهموا به أنهم علماء وفضلاء ، ولم يدر في أذهانهم قط أنهم يتقربون به إلى الله لأنهم ما رأوا شيخا يقتدى به في العلم ، فصاروا همجاً رعاعاً ، غاية المدرس منهم أن يحصل كتباً مثمنةً يخزنها و ينظر فيها يوماً ما ، فيصحف ما يورده ولا يقرره ، فنسأل الله النجاة والعفو ، كما قال بعضهم : ما أنا عالم ولا رأيت عالماً " (الذهبي ،٢٠٠١، ١٤)

- ذكر – رحمه الله – بعض شروط من يقتدى بهم فقال : " ولا قدوة إلا في أهل الصفوة وأرباب الولاية المنوطة بالعلم والسنن " (الذهبي ،٢٠٠١، ١٤) .

٢. **أسلوب الوعظ والنصح** : أسلوب معروف مشهور ، يلزم الواعظ أن يكون عارفاً ماهراً كي يؤثر في مستمعيه ، ومن الشواهد على هذا الأسلوب :

- ذكر بعض الصفات التي إن فقدها الواعظ خاب وخسر وقل تأثيره ، فقد علّق على قول بعضهم بأن طبقة من الناس لا سبيل إلى ردِهم بالمواعظ فقال : " فما الظن إذا كان واعظ الناس من هذا الضرب عبد بطنه وشهوته ،وله قلب عريّ من الحزن والخوف ، فإن انضاف إلى ذلك فسق مكين ، أو انحلال في الدين ، فقد خاب وخسر ، ولا بد أن يفضحه الله .

- وصف واعظ دمشق أبا عبد الله أحمد بن عاصم الأنطاكـــي (ت ٢٣٠هـ) بأنه : كانت له مواعظ نافعة ووقع في النفوس (الذهبي ، ٢٠٠١ ،١٤)

٣. **أسلوب التلقين والحفظ** : وقد ساد هذا الأسلوب في عصر الذهبي فقد ذكر Dodge (١٩٦٢) كيف كان يتم التلقين والحفظ ، حيث كان الطالب يكتب آية من القرآن على لوحه ، فإذا حفظها مسحها ، ثم تعامل مع آية أخرى وهكذا ، كما كان من الأساليب أن يشارك التلميذ زملاءه في ترديد الآيات خلف المعلم بطريقة مرتلة مجودة تعين على الحفظ ، وكان من الشائع أن يطاف بحافظ القرآن في شوارع المدينة احتفاء به " .ولعل ما ذكر من بعض أساليب تحمل الحديث يقع تحت هذا الأسلوب مثل : السماع ، والكتابة ، والقراءة والإملاء . فكل هذه الأساليب تقوم على عملية التلقين ، أمَا الحفظ فقد ورد ذكره كثيرا لدى الإمام ومن ذلك ترجمته لبعض الحفاظ ، وتوجيهه الطلبة إلى ما يساعدهم على عملية الحفظ بقوله :" ومن أراد أن يقوي حافظته فليكثر من الحفظ ، وكذلك الذكر والفكر " (الذهبي ، ١٩٨٧ ، ١٥) ، ومع أنه مدح

الحفظة إلا أنه كان يرى أن التحديث والتعليم باستخدام الكتاب يكون أكثر ضبطا ودقة .فقد وصف أبا داود الطيالسي (ت ٢٠٤هـ) بأنه كان حافظاً كبيراً ، ... لكنه أخطأ في عدة أحاديث لكونه كان يتكل على حفظه، ولا يروي من اصله " (الذهبي ، ٢٠٠١، ١٤)

٤. أسلوب الترغيب والترهيب والثواب والعقاب :

وقد سبق التعرض إلى هذا الأسلوب من خلال بعض الشواهد التي ذكرت سابقا مثل :

- وصيته للوالدين بأن يعلِمـــوا أولادهـم بعض الواجبات ، ويحذروهم من الأفعال السيئة ويبينوا لهم أنهم اذا وصلوا سن البلوغ يجري عليهم القلم – أي الحساب – (الذهبي ،١٩٨٨، ١٣).
- تحذيره من يعذبون أنفسهم بالجوع والرياضة الصعبة ، ووصف عملهم بأنه إثم ومعصية . (الذهبي ،٢٠٠١ ، ١٤)
- تحذيره طلبة العلم من تعلم بعض العلوم ، وترغيبه إياهم في العلوم المفروضة والمستحبة (الذهبي ، ١٩٨٨ ،١٣)
- مدحه لمعلمه مسعود بن عبد الله المقرئ (ت ٧٢٠هـ) كونه كان براً بصبيانه ، لا يضربهم أبداً " (الذهبي ،١٩٨٨، ٢٤)

٥. أسلوب السؤال وآدابه : وهو من الأساليب الشهيرة قديماً وحديثاً ، ومن الشواهد لدى الذهبي على هذا الأسلوب :

- قال : " من مرض قلبه بشكوك ووساوس لا تزول إلا بسؤال أهل العلم ، فليتعلم من الحق ما يدفع ذلك عنه ، ولا يمعن (الذهبي ، ١٩٨٨ ، ١٣) .
- علق على قول عبد الرحمن بن شريح (ت ١٦٧هـ) لجلسائه وقد كثرت المسائل والسؤالات عليه : قد درنت قلوبكم ، فقوموا إلى خالد بن حميد المهري ، استغلوا قلوبكم ، وتعلموا هذه الرغائب والرقائق فإنها تجدد العبادة ، وتورث الزهادة ، وتجر الصداقة ، وأقلوا المسائل ، فإنها في غير ما نزل تقسي القلب ، وتورث العداوة .

قال الذهبي : "صدق والله ، فما الظن إذا كانت مسائل الأصول ولوازم الكلام في معارضته النص ؟ فكيف إذا كانت من تشكيكات المنطق ، وقواعد الحكمة ، ودين الأوائل ؟ فكيف إذا كانت من حقائق الاتحادية ، وزندقة السبعينية[١] ومرق الباطنية ، فواغربتاه ، ويا قلة ناصراه ، آمنت بالله ، ولا قوة إلا بالله " . (الذهبي ، ٢٠٠١ ، ١٤) .

---

(١) السبعينية : نسبة إلى رئيسها عبد الحق بن سبعين (ت٦٦٩ هـ) وهو من القائلين بوحدة الوجود (لابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ٣٢٩/٥)

٦. **أسلوب الممارسة العملية وإقران العلم بالعمل :** ولعل هذا الموضوع هو ثمرة العلم النظري ، وما يجب أن تظهر آثاره على المتعلمين، وسيتم تفصيل هذا الأسلوب لاحقا .

٧. **أسلوب التربية بالأحداث والقصص :** يعد هذا الأسلوب من أشهر الأساليب التي اعتمدها القرآن في التربية ، قال تعالى **{لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَاب}** (يوسف : ١١١) ، ولذا فقد اعتمده كثير من المربين المسلمين ، في تربية النفس والسلوك والوجدان ، والمطالع للوقائع والأحداث والقصص التي ذكرها الذهبي في كتبه ، خاصة سير أعلام النبلاء ، وتاريخ الإسلام يجد أنه لا يترك قصة ذات مغزى إلا ووضع تعليقاته حولها تأييداً أو رفضاً ، ترغيباً أو ترهيباً ، تعوذاً أو تحذيراً ، أو مقارنة بين الوقائع وما حوته ، وبين التصرفات والسلوك في عصره ، والشواهد أكثر من أن تحصى ، ويمكن متابعتها في كتبه حيث يذكر الموضوع ويتبعه بتعليقه مبتدئاً بلفظ : قلت ، أو ما شابه .

وقد أشار الذهبي إلى بعض الأمور المتعلقة بتحصيل العلوم ومنها :

أ. **حسن اختيار المواضيع المناسبة للمتعلمين :** وفي ذلك يوصي الذهبي العلماء فيقول : فإن دلهم – أي الطلبة – على معمّر عامي وعلم قصورهم في إقامة مرويات العامي ، نصحهم ودلّهم على عارف يسمعون بقراءتـه (الذهبي ، ٢٠٠٠ ، ٢٨) ، وعلق على من قال : من سمع ببدعه فلا يحكيها لجلسائه ، لا يلقها في قلوبهم فقال : أكثر أئمة السلف على هذا التحذير ، يرون أن القلوب ضعيفة ، والشبه خطافة (الذهبي ، ٢٠٠١ ، ١٤)

ومما يتعلق بهذا الموضوع قضية اختيار المواد وتلخيصها وتقديمها إلى الطلبة تسهيلا عليهم وكان مما دعا إلى ذلك عدة أسباب :

- بدء تناقص عدد الأئمة الأعلام المجتهدين المتبقّين : حيث ذكر – رحمه الله – طائفة منهم وقال في خاتمة ذلك : " ثم من بعد هذا النمط تناقص الاجتهاد ، ووضعت المختصرات ، وأخلد الفقهاء إلى التقليد ، من غير نظر في الأعلم ، بل بحسب الاتفاق والتشهي والتعظيم والعادة والبلد (الذهبي ،٢٠٠١ ، ١٤)

- وجود عدد لا باس به من أمهات الكتب من المطولات ، مما قد يتعسر على طالب العلم حفظها أو الحفظ منها للاستشهاد بها ، الأمر الذي حدا ببعض العلماء – والذهبي منهم – إلى وضع المختصرات للتسهيل على الطلبة ، بحيث يبتدئ بها الطالب المبتدئ ، ثم ينتقل منها إلى المطولات ولذلك تراه يوصي طلبة العلم بقوله : " فطالب الحديث ينبغـــــي له أن ينسخ أولا " ثم يذكر بعض المختصرات (الذهبي ، ١٤٠٤هـ ، ١٢) .

وقال في مقدمة كتابه المغني في الضعفاء (١٩٨٧) هذا كتاب صغير الحجم كبير القدر ، كثير النفع ، هذبته و قربته وبالغت في اختصاره تيسيرا على طلبة العلم .

وقال الكتبي (١٩٧٤) لما تحدث عن الذهبي : إن الإمام أكثر من التصنيف ، ووفر بالاختصار مؤونة التطويل في التأليف . "

ب. مراعاة الأولويات والتدرج في التلقي : ومن الشواهد على ذلك لدى الإمام ، نصائح وجهها لطلبة العلم ومنها : " وطالب الحديث ينبغي له أن ينسخ أولا : الجمع بين الصحيحين ، وأحكام عبد الحق و...." (الذهبي ، ١٤٠٤هـ ، ١٢) ومن ذلك : "شأن الطالب أن يدرس أولاً مصنفا في الفقه ، فإذا حفظه بحثه وطالع الشروح ، فإن كان ذكياً فقيه النفس ، ورأى حجج الأئمة فليراقب الله ، وليحتط لدينه (الذهبي ، ٢٠٠١ ، ١٤) .

سن التعليم :

لم يرد عن الذهبي صراحة ما يدل على سن التعليم أو بدئه ، غير أن الباحث عثر على بعض الشواهد التي تدل على ميله لطلب العلم في الصغر ومن ذلك :

- رأى أن التعليم يبدأ في البيت والأسرة ، قبل سن التمييز وبعده فقال :" على الوالدين تعليم الأولاد والأطفال ، أوّلاً فأوّل ، وقال : فإذا ميز علمه الوضوء والصلاه ، وأن ببلوغه يجري القلم (الذهبي , ١٩٨٨ , ١٣)

- ويبدو أن سن التعليم كان يبدأ بين الخامسة والسابعة ، فقد أشارت المراجع إلى أن الذهبي قد مكث في مكتب مؤدبه المعروف بـ(البصبص) (ت ٦٩٠هـ) مدة أربعة أعوام ، فقد ذكر في كتابه معجم الشيوخ (١٩٨٨) أنه قد سمع شعراً من معلمه هذا سنة ٦٨٢ هـ لأبي القاسم الحريري , وبطرح تاريخ ميلاده سنة ٦٧٣هـ من هذا التاريخ يتبين أنه كان في المكتب وعمره تسع سنين ، فيكون بدأ في سن الخامسة أو السادسة. ويضاف إلى ذلك أنه قال في ترجمة أبي بكر بن يوسف النشائي (ت ٧٢٣هـ) " أنه كان يقرأ مدة للعلامة على باب الكلاسة ، فأقف وأنا صبي فلا أكاد أفهم قراءته " (الذهبي ، ١٩٨٨ ، ٢٥) .

- ولا يعني ما سبق أنه لم يكن هناك إقبال على التعلم في الكبر ، فقد أورد الذهبي خلال ترجماته لشيوخه ، ومن سمع معه ،في كتابه المعجم المختص بالمحدثين (١٩٨٨) ذكراً لكثير ممن تلقى العلم كبيراً حيث كان يذكر ذلك ويسكت عنه ، وفي أحيان يعلق عليه مثل : سمع في الكهوله ، سمع معي وهو كهل ، طلب الحديث في الكهوله وحصل الكتب الكثيرة

أماكن التعليم والتعلم :

لم يفصل الذهبي بشكل واضح في قضية أماكن التعليم وارتباطها بسن المتعلمين ، وخطوات التدرج ، وما يدور في هذه الأماكن ، غير أن الباحث استطاع الوقوف على بعض الأمور المتعلقة بذلك ، ومنها :

*** البيت والأسرة :**

من المعلوم أن الاسرة هي من أهم محطات التربية في حياة الناشئ، ولذلك فقد ركز عليها معظم المفكرين وعلماء التربية ، وقد وجد أن الذهبي لم يغفل هذا الموضوع فقد انبرى يوصي الوالدين بضرورة الاهتمام بهذه المرحلة بقوله " على الوالدين تعليم الأولاد الأطفال أولا فأولا ما يجب اجتنابه ، ويلزم فعله واعتقاده (الذهبي ، ١٩٨٨ ، ١٣) .

حلقات العلم[1]:

يبدو أن الآباء كانوا يحرصون على اصطحاب أبنائهم وأحفادهم معهم إلى حلقات العلم في مواقعها المختلفة حتى قبل سن التمييز في بعض الأحايين ، وقد ذكر الذهبي ذلك ، وعلق بأن الطفل غالباً لم يكن يستوعب ما يقال ، واعتبر أن الإجازة مع السماع أقوى من السماع حضوراً فحسب ، كما سبق ذكره في موضوع أساليب التعليم ووسائله .

*** المكتب :**

أشار الإمام خلال ترجمته لأحد مؤدبيه إلى أنه أقام في مكتبه أربعة أعوام ، وتعلم عنده خلائق ، وكان معلمهم ينشدهم ويسمعهم النشيد . وأشار إلى أنه سمع أجزاء من أحمد بن أبي القاسم الدشتي (ت٧١٣ هـ) الذي كان يؤدب بمكتب للأيتام .

---

(١) الحلقة : هي طريقة تدريس يتحلق فيها الطلاب حول المحدثين يقرأون الحديث الشريف .
(Makdisi , 1981 , P 16-18)

*** المسجد والجامع :**

ورد ذكر لهذه الأماكن خلال ترجمات الإمام لعدد من شيوخه ومعلميه ومن ذلك : أن معلمه مسعود بن عبد الله المقرئ الذي كان إماما لمسجد بالشاغور قد لقنه جميع القرآن " وأن أحمد بن الطنبا (ت٧٢٣ هـ) كان يلقن بمسجده بالجبل ، وانتفع به أناس كثيرون ، ومنهم الذهبي ، كمـا انتفـع من حلقـة الأشغال التي كانت لأحمد بن فرج اللخمي الاشبيلي (ت٦٩٩ هـ) حول الفقه والحديث بجامع دمشق (الذهبي ، ١٩٨٨ ، ٢٤) .

*** المدارس ودور العلم :**

ذكر الذهبي في كتابه " معجم الشيوخ " ما يزيد عن مائة مدرسة من مدارس الشام المختلفة المواقع ، رابطا بينها وبين من كان يقوم بالتدريس فيها ، دون تفصيلات تبين أشكالها أو محتوياتها ، أو سير التعليم فيها ، أو ما شابه .

أما عن المشيخات ودور العلم لا سيما التي أشرف عليها الذهبي نفسه ، التي أشارت بعض المراجع أنه مات وهو على رأس خمس منها (ابن كثير ، ١٩٨٨) فقد ذكر بعض التفصيلات حولها مثل : أصل الدار ولمن يعود البناء ، مثل المدرسة التنكزية (نسبة إلى تنكز والي الشام) ، وبعض تفصيلات المصروفات على طلبة العلم . والمعلمين .

الفصل الثالث

الآداب والعلاقات التربوية

في

فكر الإمام الذهبي

الآداب والعلاقات التربوية في فكر الإمام الذهبي

يأتي هذا الفصل للإجابة عن السؤال الرئيس الاتي : ما صورة الآداب والعلاقات التربوية بين أطراف العملية التعليمية / التعلمية في فكر الإمام الذهبي ؟

وللإجابة عن هذا السؤال سيعمل الباحث على تقسيم الموضوع إلى ثلاثة مباحث رئيسة هي : آداب المعلم وواجباته ، وآداب المتعلم وأخلاقه ، والعلاقات التربوية بين أطراف العملية التعليمية/التعلمية .

أولاً : آداب المعلم[١] وواجباته

ذكر الذهبي كثيرا من الآداب والواجبات المنوطة بالعالم المعلم ، التي من خلالها يستطيع تنظيم حياته وعلاقاته المختلفة بالمحيطين به ، وقد اجتهد الباحث في تصنيف هذه الآداب على النحو الآتي ليسهل تناولها ، وإدراك تأثيراتها المختلفة :

- آداب المعلم في نفسه وما ينبغي أن يتحلى به من صفات .
- آداب المعلم في علمه وعمله .
- آداب المعلم مع غيره من العلماء والمعلمين .
- آداب المعلم في مجالس العلم وإعداد الطلبة .

آداب المعلم في نفسه وما ينبغي أن يتحلى به من صفات :

– **الاستعانة بالله والتوكل عليه :** حث الذهبي المشتغلين بالعلم من علماء ومعلمين وطلبه على ضرورة الاستعانة بالله تعالى , مبيناً أن من أنفع الأدوية لدفع الشكوك والوساوس الاستغاثة بالله، والتذلل لـه ، والإكثار من الدعاء طلباً للهداية بمثل " اللهم رب جبريل وميكائيل ، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك " (الذهبي ، ١٩٨٨، ١٣) .

---

(١) استخرج الباحث هذه الآداب من خلال ما أورده الذهبي في كتبه ومصنفاته وبخاصة عمل المحدثين وآدابهم وسلوكاتهم مع طلبتهم ، فهو قد تخصص في علم الحديث وأحواله وما يتعلق به ، والمحدث هو معلم بحد ذاته طالما أنه يقدم العلم لغيره .

– **تقوى الله ولزوم طاعته :** هذا من البدهيات عند المسلمين ، وقد عدّه الذهبي مـــن عـــدة العلماء والوعاظ اللازمة ، فقال " الوعظ فن بذاته عدته التقوى والزهادة (الذهبي ، ١٤٠٤هـ ، ١٢) ، ونصح السلامي بقوله : فلا أقل من الإقبال على الطاعة ، ولزوم خمسك في جماعـــة . (الذهبي ، ١٩٩٢ ، ٣١) .

– **ملازمة ذكر الله سبحانه في سائر الأحوال :** وهذا الأمر لازم للمســـلمين بخاصـــتهم وبعامتهم ، وبمعلميهم وبمتعلميهم ، فقد عقب الذهبي على قول عبد الله بن عون (ت ١٥١هـ) " ذكر الناس داء ، وذكر الله دواء " فقال : " أي والله ، فالعجب منا ومن جهلنا ، كيف ندع الدواء ونقتحم الداء ؟! قال الله تعالى **{ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ}**(البقـــرة : ١٥٢) **{ وَلَذِكْرُ اللهِ أكبَرُ }** (العنكبوت : ٤٦) وقال : **{الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ }** (الرعد : ٢٨) . ولكن لا يتهيأ ذلك إلا بتوفيق الله ، ومن أدمن الدعاء ولازم قـــرع الباب فتح له " (الذهبي ، ٢٠٠١ ، ١٤)

– اعتبر الذهبي أن من أبرز مميزات الشريعة الإسلامية ".. الورع في المنطق ، وحفظ اللسان، وملازمة الذكر " .(الذهبي ، ٢٠٠١، ١٤) .

– **محاسبة النفس :** ورد لدى الذهبي أكثر من شاهد حول هذا الأدب ومنها :

- معاتبته لمن يأخذ الأجرة على التعليم وهو غني عنها بقوله : " يا أخي بالله عليك حاسب نفسك واتق ربك " (الذهبي ، ١٩٨٨، ١٣) وفي موضع آخر قال : فاستفت قلبك، وكن خصما لربك على نفسك" (الذهبي ، ٢٠٠١، ١٤).
- وصيته للمعلمين في موقع آخر بقوله : " ينبغي للعالم أن يتكلم بنية وحسن قصـــد ، ولا يفتر عن محاسبة نفسه ، فإنها تحب الظهور " (الذهبي ، ٢٠٠١، ١٤) .
- قوله " أن من كان في خطأ أو تقصير وعلم ذلك ، فعليه محاسبة نفسه ، ثم التوبة ممـــا كان فيه " " فإذا علم حاسب نفسه ، وخاف من وبال قصده "(الذهبي ، ٢٠٠١ ،١٤) .

– **التواضع :** حقق الذهبي هذا الأدب في حياته قولاً وعملاً ، ومن الشواهد على ذلك :

- قوله بعد أن ترجم لنفسه في كتابه المعجم المختص بالمحدثين (١٩٨٨) " والجماعة

يتفضلون ويثنون عليه ، وهو أخبر بنفسه وبنقصه في العلم والعمل ، والله المستعان ولا قوة إلا به ، وإذا سلم لي إيماني فيا فوزي " .

- ومن عجيب تواضعه أنه لما ألف كتابه المغني في الضعفاء (١٩٨٧) وهو كتاب مختص بترجمة ضعفاء رجال الحديث . وضع نفسه ضمن هؤلاء فقال : "محمد بن أحمد بن عثمان الفارقي ، سيئ الحفظ ، ليس بالمتقن ، ولا بالمتقي . سامحه الله تعالى " .
- وصفه لنفسه بالتقصير وهو يعظ الآخرين ، فقد قال وهو يوصي محمد بن أبي الفضل السلامي (ت ٧٤٤هـ) " يا وليّد رافع اسمع أقل لك : أراك – والله – مثلي مُزجي البضاعة قليل العلم بالصناعة ".
- وقال يعظ أهل الحديث :" .. فيا هذا لا تكن محروماً مثلي ، فأنا نحس أبغض المناحيس (الذهبي ، ١٤٠٤هـ ، ١٢) .
- وقال يوصي المعلم : ينبغي للعالم أن يتكلم بنية وحسن قصد ،فإن أعجبه الكلام فليصمت، فإن أعجبه الصمت فلينطق (الذهبي ، ٢٠٠١ ، ١٤) .

– **<u>الابتعاد عن الكبر والعجب والخيلاء :</u>** وهذه من الصفات الممقوتة في النفس البشرية ، وقد ركز الذهبي عليها في أكثر من موضع ومن ذلك :

- تعليقه على قول محمد بن عبد الله بن الحسن (ت ٤٠٢هـ) " ليس في الدنيا فرضي (نسبة إلى علم الفرائض والمواريث) إلا من أصحابي ، أو أصحاب أصحابي ، أو لا يحسن شيئا . "

  قال الذهبي : لا ريب أنه انتهى إليه المنتهى في هذا الشأن ، ولكن لو سكت لكان أكمل له ، فإن العالم إذا قال مثل هذا مجته نفوس العقلاء ، ودخله كبر وخيلاء . (الذهبي ،١٩٩٣، ٤) .
- تأييده لكراهية مطرف بن عبد الله (ت ٩٥ هـ) للكبر والعجب بقوله :لا أفلح – والله – من زكى نفسه أو أعجبته " (الذهبي ، ٢٠٠١ ، ١٤) .

آداب المعلم في علمه وعمله

– **<u>الاستمرار في طلب العلم والاجتهاد في تحصيله :</u>** ومن أبرز الشواهد على ذلك :

- أنه اعتبر أن من أبرز صفات الحافظ أن لا يفتر في طلب العلم إلى الممات بنية خالصة وتواضع (الذهبي ، ٢٠٠١ ، ١٤) .
- قال في وصيته المشهورة التي وجهها إلى تلميذه أبن السلامي (ت ٧٧٤هـ) يدعوه إلـى الاستمرار في تحصيل العلوم والتزود منها " فإن كمل نفسه بتلوّط أو قيادة ، وفي رواية (بتلوط اعتاده) فقد تمت له الإفادة ، وإن استعمل من العلوم قسطاً ، فقد ازداد مهانـةً وخبطاً ، وبذل دينه لشيطانه ، وأدبر عن الخير ." (الذهبي ، ١٩٩٢، ٣١) وكأني بـه يوصيه بأن يـكون لـه عادة في العلم تلوط به (أي تلتصق به ، ويلتصق بها) كناية عن الاستمرار .

وسيأتي التفصيل في هذا الموضوع لاحقا .

– **الاهتمام بالوقت وصرفه فيما ينفع :** وقد اهتم الذهبي بهذا الموضوع وطبقه في حياتـه عملياً ، وسيأتي تفصيله عند الحديث عن المبادئ التربوية .

– **عدم كتمان العلم عن المتعلمين :** وقد سبق الحديث عن ذلك في أقسام العلوم ،ووجوب نشرها من عدمه.

– **تحري الحق ، والتثبت في النقل والرواية :** يرى الذهبي إمكانية غفران زلـل العـالم الذي عرف عنه تحريه للحق وبحثه عن الصواب، فقد قال في ترجمته لقتادة بن دعامة السدوسي المدلّس[1] (ت ١١٧هـ) ، والذي كان يرى القدر (القدرية) :" إن الكبير من أئمة العلم إذا كثر صوابه وعلم تحريه للحق ، واتسع علمه ، وظهر ذكاؤه ، وعرف صلاحه وورعه واتباعه يغفر له زلـله ، ولا نضلله ونطرحه ، وننسى محاسنه ، نعم ، ولا نقتدي فـي بدعتـه وخطئـه ، ونرجـو له التوبة من ذلك .(الذهبي ، ٢٠٠١ ، ١٤) .

---

(١) المدلس : من التدليس ، وهو إخفاء عيب الإسناد ، وتحسين لظاهره ، وهو على نوعين " تدليس الإسناد ، وتدليس الشيوخ ، أما الأول : فهو يرى أن يروي الراوي عمن سمع عنه ، ما لم يسمع منه ، من غير ذكر أنـه سمعه منه ، وهذا التدليس وما جاء تحته من أنواع مكروه ، أما تدليس الشيوخ ، فهو أن يروي الراوي عن شيخ

حديثاً سمعه منه ، فيسميه أو يكتبه أو ينسبه ، أو يصفه بما لا يعرف به كي لا يعرف ، وهذا كراهيته أخف من الأول (تيسير مصطلح الحديث ، الطحان ، ٧٩- ٨٥) .

وقال الشيخ معاتباً أهل الحديث وما هم عليه من نقل الأحاديث دون تحري الدقة في ذلك:" وأي خير في حديث مخلوط صحيحه بواهيه ، وأنت لا تفليه ولا تبحث عن ناقليه ، ولا تدين الله به " . (الذهبي ، ١٤٠٤هـ ، ١٢) .

وقال ناصحاً من يروي الأحاديث دون تأكد ودقة " وإن هو لم يعلم ، فليتورع ، وليستعن بمن يعينه على تنقية مروياته " (الذهبي ،٢٠٠١ , ١٤) .

- **<u>إتقان المعلم لعلمه وعمله :</u>** وهذا من أهم الواجبات والشروط الواجب توفرها في المعلم كي يكون قدوة لتلاميذه والآخرين فيتلقونه بالقبول ، ولذلك فقد علق الذهبي على قول عثمان بن خرزاذ (ت ٢٨١هـ) " يحتاج صاحب الحديث إلى خمس فإن عدمت واحدة فهي نقص ، يحتاج إلى عقل جيد ، ودين وضبط وحذاقة بالصناعة ، مع أمانة تعرف عنه " فقال – أي الذهبي – : الأمانة جزء من الدين ، والضبط داخل في الحذق " (الذهبي ، ٢٠٠١ ، ١٤) .

وقال منتقداً ابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ) ومعقباً على من قال بأنه كان كثير الغلط فيما يصنفه ، فإنه كان يفرغ من الكتاب ولا يعتبره " قال : " هكذا هو له أوهام وألوان من ترك المراجعة ، وأخذ العلم من صحف ، وصنّف شيئا لو عاش عمراً ثانياً ، لما لحق أن يحرره ويتقنه " (الذهبي ، ٢٠٠١ ، ١٤) .

- **<u>الحذر من التقيد بمذهب واحد والتعصب له :</u>** ويعد هذا من الآفات التي نبه إليها الذهبي في أكثر من موضع ، ومن ذلك ، قوله " ما يتقيد بمذهب واحد إلا من هو قاصر في التمكن من العلم كأكثر علماء زماننا ، أو من هو متعصب " (الذهبي ، ٢٠٠١ ، ١٤) .

وعلق على قول أحدهم : " إن الإمام لمن التزم بتقليده ، كالنبي مع أمته ، لا تحل مخالفته " فقال :" قوله لا تحل مخالفته : مجرد دعوى ، واجتهاد بلا معرفة ، بل له مخالفة أمامه إلى أمام آخر ، حجته في تلك المسألة أقوى ، لا بل عليه اتباع الدليل فيما تبرهن له ، لا كمن تمذهب الإمام ، فإذا لاح له ما يوافق هواه ، عمل به من أي مذهب كان ، ومن تتبع رخص المذاهب ، وزلات المجتهدين ، فقد رق دينه " (الذهبي ، ٢٠٠١ ، ١٤) . وقال أيضا " لا ريب أن كل من أنس من نفسه فقهاً ، وسعة علم ، وحسن قصد فلا يسعه الالتزام بمذهب واحد في كل أقواله ، لأنه قد تبرهن له مذهب الغير في مسائل ، ولاح له الدليل ، وقامت عليه الحجة، فلا يقلد فيها أمامه ، بل يعمل بما تبرهن " (الذهبي ، ٢٠٠١ ، ١٤) .

– **<u>الترفع عن أخذ الثمن على التعليم إلا لحاجة :</u>** وهذا ما سيرد مفصلاً تحت عنوان أخذ الأجرة على التعليم .

– **<u>ضرورة انتفاع المعلم بعلمه وانعكاسه عليه نظراً وعملاً :</u>** وهو ما سيأتي تحت مبدأ العلم والعمل به .

آداب المعلم مع غيره من العلماء والمعلمين

– **<u>احترام العلماء والمعلمين :</u>** وسيأتي تفصيل ذلك لاحقاً تحت عنوان العلاقة بين المعلمين.

– **<u>عدم التحدث إذا وجد من هو أعلم منه :</u>** ويأتي هذا في سياق حفظ المنازل بين العلماء وتقديم الاحترام لمن هو مستحق لــه ، وفي ذلك يقول الشيخ :" ومن الأدب : أن لا يحدث مـع وجود من هو أولى منه لسنه وإتقانه ، وأن لا يحدث بشيء يرويه غيره أعلى منه " (الذهبي ، ١٤٠٥هـ ، ٢٩) .

– **<u>عدم التصدي للفتوى والاجتهاد إلا إذا بلغ رتبةً في ذلك :</u>** وهذه قضية خطيرة ركز عليها الذهبي بقوله :" كما أن الفقيه المبتدئ والعامي الذي يحفظ القرآن أو كثيرا منه لا يسـوغ له الاجتهاد أبدا ، فكيف يجتهد ؟! وما الذي يقول ؟! وعلام يبني ؟ وكيف يطير ولما يُـرَيِّش ؟! (الذهبي ، ٢٠٠١ ، ١٤) .

ويرتبط بهذا الموضوع الكلام فيما لا عـلم له به ، فقد تحسر الذهبي على زمانه حيث ظهر فيه قوم " يكثرون الكلام مع العلم ، وسوء القصد " مبينا أن الله سيفضحهم ، ويلوح جهلهم، وهواهم ، واضطرابهم فيما علموه " (الذهبي ، ٢٠٠١ ، ١٤) .

– **<u>احترام أفكار الآخرين والتجاوز عن أخطائهم :</u>** صحيح أن الذهبي قد بدر منه ما يدل على شدة وصلابة في موضوع بعض الآراء إلى حد القول بإعدام صاحبها ، وإحراق كتبه ، وقد جاء هذا في موضوع العقائد الذي يرى الذهبي – بعقيدته السلفية – أن لا مداهنة ولا هوادة فيها وسواء يتفق الباحث معه في شدته تلك أو يختلف ، إلا أنه رأى له بعض الآراء التي تدل علـى

احترامه لفكر الآخرين ، والأخذ عنهم . مع اقتناعه بعدم صحة ما لديهم في أبواب أخرى ومن ذلك :

- قال في ترجمة أبي الحسن الماوردي في كتابه تاريخ الإسلام (١٩٩٣) "... ولو أنا أهدرنا كل عالم زلّ لما سلم معنا إلا القليل ، فلا تحط يا أخي على العلماء مطلقا ، ولا تبالغ في تقريظهم مطلقا ، واسأل الله أن يتوفاك على التوحيد " .
- وقال معلقا على هجر بعض العلماء لمحمد بن نصر بن الحجاج المروزي (ت ٢٧٤هـ) كونه قال بخلق القرآن و " ولو أنا كلما أخطأ أمام في اجتهاده في آحاد المسائل خطأ مغفوراً له ، قمنا عليه ،وبدّعناه وهجرناه لما سلم معنا لا ابن نصر (ت ٢٩٤هـ) ولا ابن منده (ت ٣٠١هـ) ولا من هو أكبر منهما ،فنعوذ بالله من الهوى والفظاظة(الذهبي ، ٢٠٠١ ، ١٤) .
- ومن الشواهد أيضا أنه عدّ الخطأ عند العلماء من الأمور الطبيعية التي لا توجب الوصول إلى حد القطيعة ، فقد قال في الغزالي : "الغزالي أمام كبير ، وما من شرط العالم أنه لا يخطئ " (الذهبي ، ٢٠٠١ ، ١٤) .
- تعليق الذهبي على فعل موسى بن هارون (ت ٢٩٤ هـ) ، الذي أخذ أحد الكتب التي كان يطالعها أبو القاسم البغوي (ت ٣١٧ هـ) ورماها في دجلة بحجة عدم المقارنة بن يحيى بن معين ، وأحمد بن حنبل ... قال " بئس ما صنع موسى ! عفا الله عنه " (الذهبي ،٢٠٠١ ،١٤) كأن الذهبي كره هذا الفعل من موسى .

– **<u>الحذر من الخوض في القضايا المؤدية إلى الخلافات :</u>** حذر الذهبي من الحذر في بعض القضايا كونها قد تسبب خلافا بين المسلمين ومن ذلك:

- الخوض في الأسماء والصفات : كان السلف رضوان الله عليهم ينهون عن الخوض في صفات الله سبحانه وتعالى ، أو تشبيهه بأمر من خلقه ، ويعدون ذلك طريقاً إلى الانحراف والزلل والوقوع في المهالك ، فقال الذهبي محذراً " الخوض في ذلك مما لم يأذن به الله ، ولا أتى نص بإثبات ذلك ولا بنفيه ، ومن حسن إسلام المرء تركه لما لا يعنيه ، وتعالى الله أن يُحد أو يوصف ، إلا بما وصف به نفسه ، أو علمه رسله بالمعنى الذي أراد بلا مثل ولا كيف **{ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ}** (الشورى : ١١) (الذهبي ، ٢٠٠١ ، ١٤) .

- الخوض في شبه الفلاسفة وما شابه : قال الذهبي بعد أن عاب على الغزالي – رحمه الله – إدمانه النظر في كتاب " رسائل إخوان الصفا " فالحِذار الحِذار من هذه الكتب ، واهربوا بدينكم من شبه الأوائل، وإلا وقعتم في حيرة ، فمن رام النجاة والفوز ، فليلزم العبودية، وليدمن الاستغاثة بالله ، وليبتهل إلى الله مولاه في الثبات على الإسلام " (الذهبي ، ٢٠٠١ ، ١٤) .
- الخوض في الخلافات بخاصة العقدية منها : فقد كان منهجه "فإن اختلفت الأمة في شيء من مشكل أصول دينهم ، لزمنا الصمت فيه ، وفوضناه إلى الله وقلنا الله ورسوله أعلم ، ووسعنا فيه السكوت " . (الذهبي ، ٢٠٠١ ، ١٤) .

آداب المعلم في مجالس العلم ومع الطلبة

– **السعي في مصالح الطلبة وتقديم العون لهم** : ولعل هذا الأمر أهم الواجبات الملقاة على عاتق المعلم ، ومن الشواهد لدى الذهبي على ذلك :

- مدحه لعلي بن موسى الدهان المقرئ (ت ٦٦٥هـ) بأنه كان ورعاً خيراً ، عارفاً بوجوه القراءات ، كثير المروءة والسعي في مصالح تلامذته (الذهبي ، ١٩٩٧ ، ١٦)
- وصيته في فصل آداب المحدث في كتابه الموقظة (١٤٠٥هـ) " وليبذل نفسه للطلبة الأخيار ، لا سيما إذا تفرد " .
- مدحه لأحمد بن عون الله (ت ٣٧٨هـ) بأنه " كان طويل الروح على الطلبة ، يسمعهم عامة نهاره .(الذهبي ،٢٠٠١ ، ١٤) .
- وكذا وصف أبا الحجاج يوسف بن خليل (ت ٦٤٨هـ) " ولم يزل يسمع ويطول روحه على الطلبة ويكتب لهم الطباق إلى أن مات " (الذهبي ، ٢٠٠١، ١٤) .
- قال في ترجمة يعقوب بن بدران الجراندي (ت ٦٨٨هـ) بأنه نظم أبياتا كثيرة حل فيها رمز الشاطبية [(١)] وعلق على ذلك بقوله " جعلها عوض الأبيات المرموزة تسهيلاً على

---

(١) الشاطبية : هي النظم المسمى (حرز الأماني ووجه التهاني) للإمام القاسم بن فيرة الشاطبي ، وقد جمع فيها ما تواتر عن الأئمة القراء السبعة ، بهدف تيسير علم القراءات وتقريب حفظه وتسهيل تناوله " (الشاطبي : متن الشاطبية) .

الطلبة ، وكان يدري هذا الفن (الذهبي ، ١٣٧٤ ، ٥) .

- **<u>العناية بالمظهر في الملبس والهيئة والنظافة :</u>** من المعروف أن الطلبة غالبا مـا يقلـدون معلميهم ، في جميع أحوالهم ، بخاصة إذا كانوا من المحبوبين لديهم ، وقد تنبه الذهبي إلى هـذا الأمر فقال في فصل أدب المحدث في كتابه الموقظة (١٤٠٥هـ) واصفاً ما كان يفعله الإمام مالك رحمه الله : " وروي أن مالكاً رحمه الله كان يغتسل للتحديث ، ويتبخر ويتطيب ، ويلبس ثيابـه الحسنة " .

وقال في ترجمة علي بن يوسف بن حريز الشطنوفي (ت ٧٠٣هـ) : تصدر للإفتاء مدة، وتكاثر عليه الطلبة ، حضرت مجلس إقرائه ، فأعجبني سمته وسكونه . (الذهبي ،١٩٩٧، ١٦).

- **<u>احترام مجالس العلماء :</u>** انتقد الذهبي في كتابه زغل العلم (١٤٠٤هـ) بعض مجالس العلم في زمنه مبيناً بعض ما كان يحدث فيها من لعب ولهو ، وأحاديث جانبية ، ونعـاس ونـوم ، بسبب وجود الشيخ (المعلم) الذي يسهو عنهم وينام غير مهتم بما يفعلون (الـذهبي ، ١٤٠٤هـ ،١٢) ، بينما وصف مجلسا آخر للإمام مالك مبيناً بأنه " كان يلزم الوقار والسكينة في مجالس الحديث ، ويزبر من يرفع صوته " (الذهبي ، ١٤٠٥هـ ، ٢٩) .

ويستفاد من هذا أن ضبط المجلس يعود إلى قوة شخصية المعلم .

- **<u>الاعتدال في العبوس والضحك والابتسام :</u>** وصف الذهبي العلماء فقال : لم أر أعبـد من يحيى بن حماد (ت ٢١٥هـ) " وأظنه لم يضحك "، وعقب بعد ذلك قائلا : " الضحك اليسير والتبسم أفضل " ، ورد الإمام ترك التبسم في أثناء التدريس إلى سببين : أحدهما يكون فاضـلا لمن تركه أدباً وخوفاً من الله ، وحزناً على نفسه المسكينة ، والثاني : مذموماً لمن فعله حمقـاً وكبراً وتصنعاً ، كما أن مَن أكثرَ الضحك استُخِفَّ به ، ولا ريب أن الضحك في الشباب أخـف منه وأعذر في الشيوخ . وأما التبسم وطلاقة الوجه فأرفع من ذلك كله ، قال النبي ﷺ " **تبسمك في وجه أخيك لك صدقة** " [1] وقال جرير : ما رآني رسول الله ﷺ إلا تبسم ، فهذا هو خلق

---

(١) رواه الترمذي عن أبي ذر ، كتاب البر أتصله عند رسول الله ﷺ ، باب ما جاء في صنائع المعروف رقم (١٩٥٦) ص:٤٤٥

الإسلام ، فأعلى المقامات من كان بكّاءً بالليل ، بسّاما بالنهار .

وينبغي لمن كان ضحوكا بسّاما أن يقصر من ذلك ويلوم نفسه ، حتى لا تمجه الأنفس ، وينبغي لمن كان منقبضاً أن يبتسم ويحسن خلقه ، ويمقت نفسه على رداءة خلقه ، وكل انحراف عن الاعتدال فمذموم ، ولا بد للنفس من مجاهدة وتأديب " (الذهبي ، ٢٠٠١ ، ١٤) .

ويرى الإمام أن الابتسام في بعض الأحايين يكون من الأمور الواجبة ، بخاصة في أثناء مناقشات أهل العلم ومناظراتهم ، كما ذكر في قصة ابن قدامة الذي كان لا يناظر أحدا إلا وهو يبتسم (الذهبي ، ٢٠٠١ ، ١٤) .

- **حسن تقديم النصيحة للآخرين :** علق الذهبي على قوله ﷺ " إن الدين النصيحة ، قالوا لمن يا رسول الله؟ قال لله ولكتابه ولأئمة المسلمين " [1] ، أو المؤمنين وعامتهم ، فقال : تأمل هذه الكلمة الجامعة ، وهي قوله " الدين النصيحة " فمن لم ينصح لله وللأئمة وللعامة ، كان ناقص الدين ، وأنت لو دعيت يا ناقص الدين لغضبت (الذهبي ، ٢٠٠١، ١٤) .

ولا يقف تقديم النصيحة على المسلم صاحب العقيدة الصافية ، بل إن الذهبي يدعو إلى أن يتعدى ذلك إلى الجار بغض النظر عن عقيدته ، وفي ذلك يقول :" فإن كان جارك رافضياً أو صاحب بدعة كبيرة ، فإن قدرت على تعليمه وهدايته فاجهد ، وإن عجزت فانجمع عنه ، ولا تواده " (الذهبي ، ١٩٨٥، ٩) .

ويرتبط بهذا الأمر دعوة الذهبي إلى عدم السكوت عن الباطل ، بغض النظر عمن صدر عنه فقد أعجبه ما فعله الإمام الأوزاعي (ت ١٥٧هـ) مع عبد الله بن علي (ت ١٤٧هـ) الذي "كان ملكا جبارا ، سفاكا للدماء ، صعب المراس ، ومع هذا فالإمام الأوزاعي يصدعه بمر الحق، لا كخلق علماء السوء الذين يحسنون للأمراء ما يقتحمون به من الظلم والعسف ، ويقلبون لهم الباطل حقا- قاتلهم الله- أو يسكتون مع القدرة على بيان الحق " (الذهبي،٢٠٠١ ،١٤) .

- **حسن اختيار المواضع المناسبة ومراعاة الأولويات :** ويعد هذا الأدب من تمام فقه العالم ، واتساع خبرته بحيث يختار لتلميذه ما يناسبهم ، وفي ذلك يقول الإمام :" ومن الأدب ..

---

(١) رواه مسلم ، كتاب الايمان ، باب بيان أن الدين النصيحة ، ٢/٣٦-٤١

أن لا يغش المبتدئين ، بل يدلهم على المهم ، فالدين النصيحة، فإن دلهم على معمّر عامي ، وعلم قصورهم في إقامة مرويات العامي ، نصحهم ودلهم على عارف يسمعون بقراءته ، أو حضر مع العامي ، وروى بنزول جمعا بين الفوائد .. " (الذهبي ، ٢٠٠٠، ٢٨) .

– **<u>معاملة المتعلمين على قدر عقولهم وإمكاناتهم ومراعاة الفروقات بينهم :</u>** قال الإمام موصياً العلماء " وليتجنب رواية المشكلات مما لا تحمله قلوب العامة ، فإن روى ذلك فليكن في مجالس خاصة " (الذهبي ، ١٤٠٥هـ ، ٢٩) .

وقد فسر بعضهم هذه النصيحة بأن المجالس في العادة تحوي جماعات مختلفة الإفهام ، وفيها من لا يفقه كثيرا من العلم ، فيحدثهم بأحاديث الزهد ومكارم الأخلاق ونحوه ، و ليتجنب أحاديث الصفات لأنه لا يؤمن عليهم الخطأ والوهم والوقوع في التشبيه والتجسيم" .

(الذهبي ،٢٠٠٠ ، ٢٨) .

وسيأتي تفصيل موضوع الفروق الفردية لاحقاً .

– **<u>تجنب رواية الأحاديث الموضوعة إلا بهدف :</u>** قال الذهبي " ويحرم عليه رواية الموضوع[١] ، ورواية المطروح [٢] ، إلا أن يبينه للناس ليحذروه " (الذهبي ، ٢٠٠٠ ، ٢٨) .

– **<u>أن يكون المعلم قدوة لغيره :</u>** كان هذا الأدب – ولا يزال – مما يلزم المعلم وطالب العلم، فهو وسيلة مشهورة من وسائل التعليم، وهي التعليم بالقدوة ، يذكر الذهبي بعض أسباب عدم تأثير الواعظ بالمستمعين فيقول " بأن عدة الوعظ التقوى والزهادة " فإذا رأيت الواعظ راغباً في الدنيا قليل الدين فاعلم أن وعظه لا يتجاوز الأسماع " (الذهبي ، ١٤٠٤هـ ، ١٢) .
نعم فكيف سيؤثر فيهم وهم يرون هذا حاله .

– **<u>الابتعاد عن الغضب والحدة :</u>** من المعلوم بالضرورة أن المعلم يجب أن يتحلى بصفات الحلم والأناة والتحمل والصبر إذا كان فعلاً ينوي بعلمه وجه الله تعالى . ومن هنا فقد كره

---

(١) الموضوع : هو الحديث المختلف الذي ينسب إلى رسول الله ﷺ كذبا .
(٢) المطروح : هو الحديث الذي نزل عن الضعيف ، وارتفع عن الموضوع ، وهو ضعيف جدا .
أنظر : نور الدين عتر: معجم المصطلحات الحديثية ، ص :١٠١-١٠٩.

الذهبي الغضب والحدة خاصة إذا كانت لأمر دنيوي ، أو لعلة شخصية ، قال معلقاً على قصة ابن مندة (ت ٣٩٥هـ) وإخراجه من كان يدخل على أبي نعيم الأشعري (ت ٤٣٠هـ) من مجلسه " ربما آل الأمر بالمعروف بصاحبه إلى الغضب والحدة ، فيقع في الهجران المحرم " (الذهبي ، ٢٠٠١، ١٤) .

وقد عد الذهبي الغضب من الأمراض النفسية ، ودعا إلى أن يعمل الإنسان على ترويض نفسه على منع الغضب (الذهبي ، ١٩٨٧، ١٥) .

- **تحمل الانتقاد والرضى به وقبوله إن كان صحيحا :** علق الذهبي على قول أبي سهل الصعلوكي لتلميذه أبي عبد الرحمن السلمي(ت ٤١٢هـ) من قال لأستاذه : لِمَ ؟ لم يفلح أبدا . فقال – أي الذهبي – ينبغي للمريد أن لا يقول لأستاذه: لم إذا علمه معصوما لا يجوز عليه الخطأ ، أما إذا كان الشيخ غير معصوم ، وكره قول : لِمَ ؟ فإنه لا يفلح أبدا (الذهبي، ٢٠٠١، ١٤) ولمّا كان الذهبي يعلم أنّه لا عصمة إلا للأنبياء ، فقد لاحظ الباحث وكأنه يستهزئ ويعيب على المعلم الذي ينفر من استعلام تلاميذه ، وأسئلتهم .

– **الاعتراف بالخطأ حال وقوعه :** علق الذهبي على اعتراف أبي القاسم البغوي (ت ٣١٧هـ) بغلطه في حديث – بقوله: هذه الحكاية تدل على تثبت أبي القاسم وورعه ، وإلاّ فلو كاشر[1] – ورواه عن محمد بن عبد الوهاب – شيخه على سبيل التدليس من كان يمنعه ؟! (الذهبي ، ٢٠٠١، ١٤) .

– **الابتعاد عن التقعر في العلم :** قال معلقا على قصة رجل سأله أحدهم مسألةً ، فكان المسؤول بكل مرة يجيب بطريقة مغايرة ، حتى ملّ السائل ، فقال الذهبي : هذا غاية ما عند هؤلاء المتقعرين من العلم ،عبارات وشقاشق لا يعبأ الله بها ، يحرفون بها الكلم عن مواضعه قديماً وحديثاً . فنعوذ بالله من الكلام وأهله (الذهبي ، ٢٠٠١ ، ١٤) .

---

(١) كاشر : يقال كاشره إذا ضحك في وجهه وتبسّم (لسان العرب , كشر) وهي هنا بمعنى تَمَلّقَهُ

– **حسن الكتابة والخط :** مدح الذهبي الخط وحسن الكتابة في أكثر من موقع خلال ترجمته بعض الأعلام ، ومن أقواله بعد أن يترجم للعلم :" خطه معتبر حسن " " نسخ بخط ضــعيف " " كان مليح الخط جدا " " كتب بخطه المتقن " (الذهبي ، ١٩٨٨ ، ٢٥) .

– **التوقف عن التعليم في حال عدم القدرة :** اهتم العلماء بهذا الموضوع وأوصــوا بــه كثيراً ، فالإنسان له حد يتوقف عنده عن العطاء بشكل جيد ، خاصة إذا بلغ من العمر حداً اختلط معه ، أو إذا أصابته أمراض مانعة .

وقد جعل الذهبي هذا الأمر من الآداب التي يجــب أن يتحـــلى بهـــا المعـــلم (الذهبي ، ٢٠٠٠، ٢٨) وسيأتي تفصيل ذلك لاحقا ضمن الشروط الواجب توفرها في المعلمين للأخذ عنهم.

– **تحري الأدب في الكلام والرد :** علق الذهبي على قول أبي بكر ابن العربي في حق أبي حامد الغزالي حول موضوع قدرة الله سبحانه " هذه مزلة لا تماسك فيها ، ونحن وإن كنا نقطة في بحره ، فإنّا لا نرد عليه إلا بقوله" فقال – أي الذهبي –:"كذا فليكن الرد بــأدب وســكينة " (الذهبي ، ٢٠٠١، ١٤) .

ثانياً : آداب المتعلم وأخلاقه

يشترك المعلم والمتعلم في العديد من الآداب والواجبات والأخلاق المناطة بكل منهما ، ومن هذه الأمور التي سبق الإشارة إليها في آداب المعلم وواجباته ، وتم استعراض بعض الشواهد عليها ما يلي :

- الاستعانة بالله سبحانه ، وحسن التوكل عليه .
- تقوى الله ولزوم طاعته بحثاً عن التوفيق والسداد والرشاد منه سبحانه .
- ملازمة ذكر الله سبحانه ، واستغفاره في سائر الأحوال .
- الالتزام بمراجعة النفس ومحاسبتها بشكل دائم .
- التواضع وتجنب التكبر والعجب والخيلاء خاصة خلال طلب العلم .
- العمل عل نقل العلم وعدم كتمانه عن الآخرين .
- الحذر من الخوض في القضايا المؤدية إلى الاختلافات فالكراهية والبغضاء .
- الالتزام بآداب مجالس العلم والتعلم .
- الحذر من التقيد بمذهب واحد والتعصب له .
- ضرورة انتفاع المتعلم بعلمه ، وظهور آثار ذلك في سلوكه وتصرفاته ومعاملاته .
- الالتزام باحترام العلم والعلماء .
- تحري الأدب خلال المناقشات وفي حال الكلام والرد .
- ضرورة تجنب الحدة والغضب في التعامل مع الآخرين معلمين كانوا أو زملاء تعلم .
- تجنب تلقي العلم عن العلماء غير المؤهلين لذلك ، أو الذين فيهم ما يمنع الأخذ عنهم إلا بشرط .

ولا شك أن بعضا مما ذكر من هذه الآداب والأخلاق ، يختلف من حيث لوازمه ومظاهره بين كل من المعلمين والمتعلمين ، ومن هنا فقد رأى الباحث أن يفصل في بعض الأمور حيث يلزم ذلك ، ويترك بعضه إلى موضوع العلاقة بين المعلم والمتعلم مثل: اختيار المعلم ، والكلام في المعلمين وانتقادهم وآداب ذلك ، وتملق المعلم أو التعصب له ، واحترام مجالس العلم ، والصبر على المعلم ، والاستئذان منه .

* **الإخلاص وصدق النية :** وفي ذلك يقول " تصحيح النية من طالب العلم متعيّن ، فمن طلب الحديث للمكاثرة أو المفاخرة أو ليروي أو يتناول الوظائف ، أو ليثنى عليه وعلى معرفته فقد خسر . وإن طلبه لله وللعمل به ، وللقربة بكثرة الصلاة على نبيه ﷺ ولنفع الناس ، فقد فاز ،

وإن كانت النية ممزوجة بالأمرين فالحكم للغالب ، إن طلب العلم للآخرة كساه العلم خشية الله ، واستكان وتواضع ، ومن طلبه للدنيا تكبر به وتجبر ، وازدرى بالمسلمين عامة ، وكان عاقبة أمره إلى سفال وحقارة " (الذهبي ، ١٤٠٥هـ ، ٢٩) .

وهناك شواهد أخرى حول الموضوع وردت في الفصل الثاني تحت عنوان " أهداف العلم وإخلاص النية في طلبه "

* **عدم الأعراض عن التعلم تكبراً أو تيهاً وكسلاً :** قال الذهبي معقبا على قول محمد بن الفضل البلخي (ت ٣١٧هـ) ذهاب الإسلام من أربعة : " لا يعملون بما يعلمون , ويعملون بما لا يعلمون ، ولا يتعلمون ما لا يعلمون ، ويمنعون الناس من العلم " قال : "هذه نعوت خلق من جهلة العامة .. فلو فتشوا عن دينهم وسألوا أهل الذكر – لا أهل الحيل والمكر – لسعدوا ، بل يعرضون عن التعلم تيها وكسلا ، فواحدة من هذه الخلال مردية ، فكيف بها إذا اجتمعت ؟! فما ظنك إذا انضم إليها كبر وفجور وإجرام ، وتجهرم[1] على الله ؟! نسأل الله العافية " (الذهبي ، ٢٠٠١ ، ١٤) .

* **العدل والورع :** قال الذهبي خلال ترجمته لعمر بن أحمد العبدويي (ت ٤١٧هـ) أنه من ورعه ما حدث عن شيوخه الكبار لصغر سنه ، واحتراما لهم (الذهبي ، ٢٠٠١ ، ١٤) .

واشترط على من يريد انتقاد العلماء أن يكون عادلاً ورعاً فقال " وإنما الكلام في العلماء مفتقر إلى وزن بالعدل والورع " (الذهبي ، ٢٠٠١ ، ١٤) .

* **احترام مجالس العلم وتوقيرها :** وصف الذهبي في أكثر من موقع بعض مجالس الحديث منتقدا تصرفات الطلبة ومن ذلك:

– العبث وشرود الذهن : فالطالب يتلقى الأحاديث ولا ينزجر مما فيها ، يقلب بصره بين المعلم والزملاء مركزاً على القراءة بعيداً عن الفهم ، وإذا قرأ غيره لا يسمع منه إلا بداية الكلام ونهايته ، منشغلاً بالنسخ ، أو الكتابة ، أو المطالعة .

– النعاس والنوم في المجلس :" وفاضلهم مشغول عن الحديث بكتابة الأسماء ، أو بالنعاس.

---

(١) تجهرم : تباهى ، تفاخر ، تبجج ،وجهرم على فلان : ازدراه ، واستخف منه ، واحتقره ، (دوزي٢/٣٢١)

– المزاح والأحاديث الجانبية داخل المجلس :" وهذا يحدث جليسه ، ويمزح مع الصبيان ، وطائفة من الشبيبة في وادٍ آخر من المشاركة والمحادثة . (الذهبي، ٢٠٠١، ١٤) (الذهبي ، ١٩٩٢، ٣١) .

* **حسن اختيار المعلم** : انتقد الذهبي بعض طلبة العلم الذي يكثرون من طلب العلم لكنهم يكتبون عمن درج ودب (الذهبي ، ١٩٩٢ ، ٣١) ، أي لا ينتقون معلميهم وشيوخهم ، وانتقد طلبة العلم الذين يأخذون عن شيوخ جهلة لا يعون (الذهبي ، ٢٠٠١ ، ١٤) .

* **الأخذ من جميع العلوم بخاصة الفرائض والمباحات دون المكروهات والمحرمات. والتوسع في ذلك بقصد وحسن نية** : قال منتقدا بعض طلبة العلم في زمانه : فإن كمل نفسه بتلوط ، اعتاده ، فقد تمت لـــه الإفادة ، وإن استعمل من العلوم قسطاً فقد ازداد مهانةً وخبطاً ، وبذل دينه لشيطانه ، وأدبر عن الخير ، فهل في مثل هذا الضرب خير ؟ لا كثّر الله مثلهم ، فما حظ الواحد من هؤلاء إلا أن يسمع ليروي فقط .(الذهبي ، ١٩٩٢ ، ٣١) .
ويستفاد من النص السابق أن من الخير للمتعلم أن تكون له عادة مما يتعلق بأمور العلم والتعلم ينشغل بها بشرط أن يتعلم العلم لنفسه ولا يحجبه عن الآخرين بإخلاص وصدق نية .

* **حماية المتعلم لنفسه قبل الخوض في العلوم المذمومة ، ومعرفة ما ينجيه إذا وقع فيها** : وهذا الأدب يمكن استنتاجه من خلال ما ذكره الذهبي حين ترجم للإمام الغزالي آخذاً عليه إدمان النظر في رسائل إخوان الصفا الذي يحذر منها وكيف أنها لم تؤثر فيه لأسباب كرها فقال : " حبب إليه إدمان النظر في كتاب " رسائل إخوان الصفا " وهو داء عضال ، وجرب مردٍ ، وسم قاتل ، ولولا أن أبا حامد من كبار الأذكياء ، وخيار المخلصين ، لتلف ، فالحِذار الحِذار من هذه الكتب ، واهربوا بدينكم من شبه الأوائل ، وإلا وقعتم في الحيرة ، فمن رام النجاة والفوز ، فليلزم العبودية ، وليدمن الاستغاثة بالله ، وليبتهل إلى مولاه في الثبات على الإسلام ، وأن يتوفى على إيمان الصحابة ، وسادة التابعين ، والله الموفق، فبحسن قصد العالم يغفر له وينجو إن شاء الله . (الذهبي ، ٢٠٠١ ، ١٤) .

*** عدم طلب العلم دفعة واحدة بل يراعي الأولويات والتدرج في الطلب** :وهذا يمكن استنتاجه من خلال دعوة الذهبي للآباء بأن يتدرجوا في تعليم أبنائهم مراعين سن التمييز وما قبله وما بعده(الذهبي،١٩٨٨، ١٣) .

*** ضرورة احترام الكتاب والسنة ، والموازنة في طلب العلوم النقلية والعقلية ، وتجنب أهل الهوى والضلال المشككين الرافضين ، بل ومحاربتهم بكل قوة :**

عقب الذهبي على قول عبد الله بن زيد ، أبي قلابة الجرمي (ت ١٠٤ هـ) : إذا حدثت الرجل بالسنة ، فقال دعنا من هذا ، وهات كتاب الله ، فاعلم أنه ضال . قال الذهبي : وإذا رأيت المتكلم المبتدع يقول : دعنا من الكتاب والأحاديث الآحاد ، وهات العقل ، فاعلم أنه أبو جهل ، وإذا رأيت السالك التوحيدي يقول : دعنا من النقل ومن العقل ، وهات الذوق والوجد ، فاعلم أنه إبليس قد ظهر بصورة بشر ، أو قد حل فيه ، فإن جبنت منه ، فاهرب ، وإلا فاصرعه وابرك على صدره ، واقرأ عليه آية الكرسي واخنقه . (الذهبي ، ٢٠٠١ ، ١٤) .

*** تجنب المبالغة في التعبد المؤدي إلى ضرر الجسم و التأثير على العقل** :علق الذهبي على حال الزاهد المتعبد المتأله ، أبو العباس ، أحمد بن محمد بن سهل بن عطاء (ت ٣٠٩ هـ) الذي فقد عقله ثمانية عشر عاما ، فقال : ثبت الله علينا عقولنا وإيماننا ، فمن تسبب في زوال عقله بجوع ، ورياضة صعبة ، وخلوة ، فقد عصى وأثم، وضاهى من أزل عقله بعض يوم بسكر ، فما أحسن التقيّد بمتابعة السنن والعلم . (الذهبي ، ٢٠٠١ ، ١٤) . وعلق على الخلوة التي عملها جعفر بن محمد بن الحسين الأبهري (ت٤٢٨ هـ)، بحيث بقي خمسين يوماً لا يأكل شيئاً بقوله :" إن هذا الجوع المفرط لا يسوغ ، فإذا كان سرد الصيام والوصال قد نهي عنهما، فما الظن ؟وقد قال نبينا ﷺ "**اللهم إني أعوذ بك من الجوع فإنه بئس الضجيع** " (١) ثم قلّ من عمل هذه الخلوات المبتدعة إلا واضطرب ، وفسد عقله ، وجف دماغه ، ورأى مرأى ، وسمع خطاباً لا وجود له في الخارج ، فإن كان متمكناً من العلم والإيمان ، فلعله ينجو بذلك من تزلزل توحيده ، وإن كان جاهلا بالسنن وبقواعد الإيمان تزلزل توحيده ، وطمع فيه الشيطان

---

(١) رواه أبو هريرة: النسائي ، كتاب الاستعاذة ، باب الاستعاذة من الجوع (٥٤٦٨) ص:٨٢٤ ، وابن ماجه ، كتاب الأطعمة ، باب التعوذ من الجوع (٣٣٥٤) ص:٥٦٣وقد ذكر الألباني أن الحديث يرقى إلى درجة الحسن

وأدعى الوصول ، وبقي على مزلة قدم ، وربما تزندق وقال : أنا هو ، نعوذ بالله من النفس الأمارة ، ومن الهوى ، ونسأل الله أن يحفظ علينا إيماننا آمين.(الذهبي ، ٢٠٠١ ، ١٤) كماعلق على ما قام به أحد الرهبان من الانقطاع عن الدنيا وحبس نفسه عن الشهوات بقوله: الطريقة المثلى هي المحمدية ، وهو الأخذ من الطيبات وتناول الشهوات المباحة من غير إسراف، كما قال تعالى :**{ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا}** (المؤمنون : ٥١) ، وقال النبي ﷺ : " **لكني أصوم وأفطر، وأقوم وأنام وآتي النساء ، وآكل اللحم ، فمن رغب عن سنتي فليس مني** " [1] فلم يشرع لنا الرهبانية ، ولا التمزق ولا الوصل ، بل ولا صوم الدهر ، ودين الإسلام يسر وحنيفية سمحة فليأكل المسلم من الطيب إذا أمكنه " وأضاف " إن العابد العري من العلم متى زهد وتبتل وجاع ، وخلا بنفسه ، وترك اللحم والثمار ، واقتصر على الدُّقَة والكسرة ، صفت حواسه ولطفت ، ولازمته خطرات النفس ، وسمع خطاباً يتولد من الجوع والسهر، لا وجود لذلك الخطاب – والله – في الخارج ، وولج الشيطان في باطنه وخرج، فيعتقد أنه وصل، وخوطب وارتقى ، فيتمكن منه الشيطان ، ويوســوس له ، فينظر إلى المؤمنين بعين الازدراء ، ويتذكر ذنوبهم وينظر إلى نفسه بعين الكمال ، وربما آل به الأمر إلى أن يعتقد أنه ولي ، صاحب كرامات وتمكن ، وربما حصــل له شك ، وتزلزل إيمانه ، فالخلوة والجوع أوجاد الترهب ، وليس ذلك من شريعتنا في شيء " (الذهبي ، ٢٠٠١، ١٤) .

* **عدم التعصب لمعلم بعينه ،والعمل على إرضاء معلم على حساب آخر بذمه أمامه ليجد الحظوة عنده** . وسيأتي تفصيل ذلك لاحقاً في موضوع العلاقة بين المعلم والمتعلم .

* **الرحلة في طلب العلم** : وسيأتي تفصيل الموضوع لاحقا ضمن المبادئ التربوية .

* **عدم إكثار المتعلم من نقد معلميه أو زملائه لمجرد النقد أو دون سبب** : حيث إن النقد من أبرز آدابه أن يكون هادفاً الإصلاح والتحسين ، لا كما يصف الذهبي بعض طلبة العلم بقوله " بل هنا مريدون أثقال أنكاد يعترضون ، ولا يقتدون ويقولون ولا يفعلون ، فهؤلاء لا يفلحون " (الذهبي ، ٢٠٠١، ١٤) .

---

(١) رواه مسلم ، كتاب النكاح ، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه ، ٩/١٧٥-١٧٦ ،و البخاري ، كتاب النكاح ، بابا الترغيب في النكاح (٥٠٦٣) ٩/٥-٦

* **عدم الخوض فيما لا يعنيه :** قال الإمام موصيا الطلبة بعد سرده لقصة بعض خلافات الشيوخ، وذمهم في علم بعض " ينبغي للمسلم أن يستعيذ من الفتن فتمسك بالسنة ، والزم الصمت ، ولا تخض فيما لا يعنيك، وما أشكل عليك فرده إلى الله ورسوله،وقف وقل ،الله ورسوله أعلم" (الذهبي،٢٠٠١، ١٤)

* **عدم الإسراف في الضحك والمزاح بخاصة في مجالس العلم :** لالإمام الذهبي رأي وسطي في قضية العبوس والابتسام ، والضحك والمزاح ، وقد تم تفصيل ذلك في آداب المعلم وواجباته ، وهذا الأدب مطلوب من العلماء وطلبة العلم سواء بسواء ، ومن الشواهد على رأيه في هذا الموضوع قوله :

- " ينبغي لمن كان ضحوكاً بسّاما أن يقصر من ذلك ، ويلوم نفسه حتى لا تمجه الأنفس ، وينبغي لمن كان عبوساً منقبضاً أن يبتسم ، ويحسن خلقه ، ويمقت نفسه على رداءة خلقه ، وكل انحراف عن الاعتدال فمذموم ، ولا بد للنفس من مجاهدة وتأديب (الذهبي ، ٢٠٠١ ، ١٤) .

- وقال في ترجمة علي بن موسى الكركي (ت ٧٠٠هـ) أحد من طلب الحديث قليلا وقرا، وأثبت ، سمعت بقراءته جزءا واحدا ، وأنشدنا أبياتا ، وكان لعّابا يونسنا .(الذهبي ، ١٩٨٨، ٢٥) . وهذا دليل الموافقة ، فهو كان يلعب ، ويمزح ، ويؤنسهم بذلك ، ولا شك أن هذا اللعب يكون في العادة يسيرا ، بحيث لا يؤثر على تحقيق أهداف الدرس المرصودة .

- وقال في كتابه الطب النبوي (١٩٨٧) تحت عنوان " فصل في الأعراض النفسانية " : " البدن يتغير من جهة الأعراض النفسانية ، وهي الغضب والفرح والهم والغم والخجل ، أما الفرح فمن شأنه تقوية النفس والحرارة ، ومتى أسرف قتل بتحليله الروح ، وقد ذكر ذلك عن غير واحد : أنهم ماتوا من شدة الفرح " .

* **تجنب الغضب والحدة وسوء معاملة الآخرين :** قال الإمام في الشاهد السابق مبينا مضار الغضب على النفس الإنسانية : " أما الغضب فإنه يسخن البدن ويجففه ، وقد نهى عنه رسول الله ﷺ . " أن رجلا قال للنبي ﷺ: أوصني : قال : لا تغضب " [(١)] و أضاف ، كذلك يجب على من كان يسرع إليه الغضب أو كان سيئ الأخلاق أن يروض نفسه حتى لا يغلبه الغضب فيفعل بموجبه " .

---

(١) رواه البخاري ، كتاب الأدب ، باب الحذر من الغضب (٦١١٦) ٥٣٥/١٠ ،و موطأ مالك ، كتاب حسن الخلق ، باب ما جاء في الغضب ، حديث (١١) ص ٩٠٥-٩٠٦ ، والترمذي ، كتاب البر والصلة عند رسول الله ﷺ ، باب ما جاء في كثرة الغضب (٢٠٢٠) ص٤٥٧ .

ثالثاً : العلاقات التربوية :

يأتي هذا الموضوع في سياق الإجابة عن سؤال الدراسة حول طبيعة العلاقات التربوية بين أطراف العملية التعليمية التعلمية ، وقد اجتهد الباحث في تقسيم هذا الموضوع إلى أقسام ثلاثة هي : العلاقة بين المعلمين والمتعلمين ، والعلاقة بين الآباء والأبناء ، ثم العلاقة بين المعلمين أنفسهم.

أ- العلاقات بين المعلمين والمتعلمين :

وضع الذهبي بعض القواعد والأسس التي تحكم العلاقة بين المعلم والمتعلم مستمداً ذلك من واسع معرفته وإطلاعه وخبرته في التعامل مع أهل العلم علمائه وطلبه ، وقد أنتهج -رحمه الله- وضع تبك الأسس من خلال القضايا المباشرة أو التعليق على القصص والأحداث التي يذكرها خلال ترجمانه لشيوخ والعلماء أو من خلال تعقيباته على أقوالهم أو تعليقاتهم أو تصرفاتهم . وقد تم ذكر بعها خلال تناول آداب كل من المعلم و المتعلم مثل:السعي في مصالح الطلبة وتقديم العون لهم ، وتواضع المعلم وابتعاده عن الكبر والعجب والخيلاء سواء مع تلاميذه أو زملائه ، واستثمار الوقت دون إضاعته ،وحسن تقديم النصيحة للآخرين ، وحسن اختيار المواضيع المناسبة للمتعلمين ومراعاة الأولويات ،وتحمل الانتقاد والرضى به وقبوله أن كان صحيحا ،ومراعاة الفروق الفردية بين المتعلمين ،هذا في جانب المعلم ،أما في المطلوب من المتعلم فمنه : احترام مجالس العلم وتوقيرها ،وعدم التعصب لمعلم بعينه ،أو محاولة إرضاء أحدهم على حساب الآخرين ، وعدم الإكثار من انتقاد معلميه.

ومن الموضوعات المتعلقة في موضوع العلاقة بين المعلمين والمتعلمين وجود المعلم القدوة في حياة الطالب وفي أثناء تعلمه خاصة في ما يتعلق بالعلوم الشرعية ، لان التلميذ يتعلم من سلوكات معلمه وتصرفاته كما يتعلم مما يقدمه إليه من معارف ومهارات ، ولذلك فقد ركز الذهبي على ذلك فعقب على انتقاد هشام الدستوائي (ت ١٥٢ هـ) لبعض الطلبة الذين ساروا على هواهم فضلّوا وأضلّوا لعدم وجود المعلم القدوة في حياتهم فقال : " فخلف من بعدهم خلفٌ بان نقصهم في العلم والعمل، وتلاهم قوم انتموا إلى العلم في الظاهر ، ولم يتقنوا منه سوى نزر يسير ، أوهموا به أنهم علماء فضلاء ، ولم يدر في أذهانهم قط أنهم يتقربون به إلى الله ، لأنهم

ما رأوا شيخاً يقتدى به في العلم فصاروا همجاً رعاعاً كما قال بعضهم : " ما أنا عالم ولا رأيت عالماً " (الذهبي ، ٢٠٠١، ١٤) .

ولا يكتفي الذهبي بان يكون المعلم قدوة فحسب ،بل يجب أن يكون متخصصا بعمله متقنا له، كي يستطيع الإجابة عن تساؤلات أهل العلم وبخاصة في مجال اختصاصه ، وهو إذ يطلب من المعلم أن يكون متقنا في عمله ،فهو يركز على أن يتوجه والطلبة في سؤال أهل العلم المتخصصين فقد قال في أثناء ترجمته ليعقوب بن إسحاق المقرئ الشهير (ت ٢٠٥هـ) " إنما يقال للجاهل ، تعلم وسل أهل العلم إن كنت لا تعلم" (الذهبي ، ٢٠٠١ ، ١٤) ، وقال معقبا على تقويم محمد بن الفضل البلخي الواعظ (ت ٣١٧ هـ) لحال أهل العلم وعملهم به . " ولو فتشوا عن دينهم وسألوا أهل الذكر – لا أهل الحيل والمكر– لسعدوا " (الذهبي ، ٢٠٠١، ١٤) وانتقد بعض الطلبة في توجههم نحو ضعاف المعلمين وجهالهم لأخذ العلم عنهم . فوصف حالهم بقوله : " فليس طلب الحديث اليوم على الوضع المتعارف من حيز طلب العلم ، بل اصطلاح وطلب أسانيد عالية . وأخذ عن شيخ لا يعي " (الذهبي ، ٢٠٠١ ، ١٤)

ولا يرى الذهبي ضررا في أخذ العلم عن بعض منحرفي العقيدة في مجال البحث عن الحقيقة فقد طبق هذا في حياته عمليا حين أخذ العلم عن رافضي (الذهبي ،١٩٩٣،٤) وهو في هذا التصرف كأنما يدعو الطلبة إلى تقليده تحت قاعدة " للفرد فكره وتفكيره ، ولا نقلده في خطئه بل لنا علمه إن كان صحيحاً "

والذهبي إذ يدعو إلى طلب وتلقيه بخاصة من أهل الاختصاص فهو يحذر المتعلمين من تقديس معلميهم أو النظر إليهم بأنهم لا يخطئون ، فلا يوجد منهم معصوم من الغلط ، فها هو يعقب على منتقدي الغزالي بقوله " الغزالي أمام كبير ، وما من شرط العالم انه لا يخطئ " ويقول في موقع آخر " رحم الله أبا حامد ،فأين مثله في علومه وفضائله ،ولكن لا ندعي عصمته من الغلط أو الخطأ " (الذهبي ،٢٠٠١،١٤) ، وحتى لا يعتقد بعض الطلبة في تعليمهم الخطأ أو الجهل ،فهو يبين أن المعلم قد يكون في علوم ومعارف بعينها ، مقصرا في غيرها بحسب اعتنائه فتجده يقول في أثناء ترجمة عاصم ابن أبي النجود (ت١٢٧ هـ) كان عاصم ثبتاً في القراءة صدوقاً في الحديث وما زال في كل وقت يكون العالم إماما في كل فن،مقصرا في فنون (الذهبي ،٢٠٠١،١٤)

وإذا كان المعلم غير معصوم كما يرى الذهبي ، فمن الممكن أن يتوجه الطلبة إلى معلميهم بالانتقاد بشروط منها ، التزام الورع في ذلك حيث يقول " إنما الكلام في العلماء مفتقر إلى وزن بالعدل والورع ويقول محذرا من انتقادهم دون أسباب وجيهة " لحوم العلماء

مسمومة " (الذهبي ،٢٠٠١، ١٤) ، كما يرى الذهبي عدم جواز انتقاد المعلم بالاستناد إلى أقوال خصومه أو حاسديه فيه حيث يقول " كلام الأقران بعضهم في بعض لا يعبا به ، لا سيما إذا لاح لك انه لعداوة أو مذهب أو لحسد " (الذهبي ،٢٠٠١، ١٤).

ومن الآداب التي يراها في هذا المجال أن لا يكون خطأ المعلم أو غلطه في اجتهاده موجبا لمقاطعته قال في ترجمة ابن عبد البر (ت٤٦٣ هـ) " إذا أخطأ أمامٌ في اجتهاده ، لا ينبغي لنا أن ننسى محاسنه ، ونغطي معارفه ، بل نستغفر له ، ونعتذر عنه " (الذهبي، ٢٠٠١ ، ١٤) ، وقال في ترجمة ابن حزم الأندلسي (ت٤٥٦ هـ) " وأنا لي ميل إلى أبي محمد – أي ابن حزم " – لمحبته في الحديث الصحيح ، ومعرفته به ، وإن كنت لا أوافقه في كثير مما يقوله في الرجال والعلل ، والمسائل البشعة في الأصول والفروع ، واقطع بخطئه في غير ما مسالة ، و لكن لا أكفره ، ولا أضلله ، وأرجــو له العفو والمسامحة وللمسلمين ، وأخضع لفرط ذكائه وسعة علومه " (الذهبي ، ٢٠٠١ ، ١٤)

ويرى الذهبي أن العلاقة مهما كانت عميقة بين المعلم وتلاميذه فهو يحذرهم من التعصب له ، أو محاولة تملقه والبحث عن رضاه على حساب المعلمين الآخرين، فها هو يعلق على اقتتال بعض التلاميذ مع آخرين تعصبا لمعلمهم بقوله :"ما هؤلاء بأصحاب حديث ، بل فجرة جهلة ، أبعد الله شرهم (الذهبي ، ٢٠٠١ ، ١٤) ، وها هو ينتقد عبد الله بن محمد بن مسلم المقدسي الذي مزق ما كتبه عن أحد المعلمين بين يدي احمد بن صالح (ت ٢٤٨هـ) في محاولة لإرضائه ، حيث رفض الأخير تحديثه ، فقال الذهبي معلقاً على تصرفات الاثنين –المعلم والمتعلم– نعوذ بالله من هذه الأخلاق (الذهبي ، ٢٠٠١ ، ١٤) الأول لتمزيق الكتاب ، والثاني لتكبره وعدم زجره على فعله ذلك أو منعه منه ، ويبدو انه كان غاضبا منه لأنه سمع وكتب عن معلم آخر غيره .

وفي مجال التعامل بين المعلم والمتعلم يرى الذهبي أن من واجبات المتعلم أن يصبر عن غلط معلميه ، ولا يغضب فتضيع عليه فرصة التعلم لذلك يذكر قصة لخلف بن هشام (ت٢٢٩ هـ) ، الذي جاء الكوفة ليقرأ علــى أبى بكر بن عياش (ت ١٩٣هـ)، فقال الأخير له – و قد استصغره ، حيث كان عمره – تسع عشر سنة – " أنت خلف .. أنت لم تخلف ببغداد أحداً أقرَأ منك ؟ فسكت ، فقال : اقعد ، هات اقرأ ، فقال : أعليك ؟ قال : نعم ، فقال – أي خلف – لا والله لا أقرأ على رجل يستصغر رجلاً من حملة القرآن ، ثم خرج ، فأرسل إليه من يرده فأبى ، ثم احتاج وندم ، فكتب قراءة عاصم عن يحيى بن آدم عن أبي بكر (أي أنه لم يأخذ القراءة من فم أبي بكر مباشرة) قال الذهبي معلقاً "ما تفعل حدة الشباب لصاحبها "(الذهبي ، ١٩٩٧ ، ١٦) كما

يرى الإمام أن المطلوب من المتعلم أن يتخير وقت فراغ المعلم ليتلقى عنه ، ويطلب من المعلم أن يحسن صرف المتعلم إن كان في انشغال من أمره ، فهو يعلق على تصرف أبي إسحق الكاشغري مع أحد الطلبة وقد ارتحل إليه ليقرأ عليه جزءاً ، فقال له : مالي فراغٌ الساعة ، لكن التلميذ ألح مما دعا الكاشغري إلى أن يغلق حانوته ويعود إلى بيته ، فيلحقه المتعلم ويأخذ بالقراءة عليه حتى وصولهما البيت ، فما كان من المعلم إلا أن ضربه بعصا كان يحملها ودخل وأغلق الباب خلفه ، وقد علق الذهبي على هذه القصة بقوله : " الذنب مركب منهما " (الذهبي ، ٢٠٠١ ، ١٤). ويذكر الذهبي قصة أخرى يمكن الإفادة منها في ضرورة استئذان المتعلم إن أراد أخذ شيء من ممتلكات معلمه ، وبأن لا يبادله معلمه إن أخطأ بما هو أشد منه ، فيقول بأن أبا عمران الفاسي (ت ٤٣٠هـ) مضى إلى مكة وقد كان قرأ على أبي ذر الهروي (ت ٤٣٥ هـ) شيئاً ، وأراد نسخ بعض كتب أبي ذر وهو غائب ، فطلب من خازن كتبه أن يخرج له بعض الكتب لينسخ منها ، فاعتذر الخازن عن القيام بذلك بنفسه ، لكنه أعطاه مفتاح المخزن ، فأخرج ما أراد ، ولما سمع أبو ذر بذلك ، رجع وأخذ كتبه وحلف الأيمان أن لا يحدثه . وقد علق الذهبي على هذه الحادثة بقوله "...ما لانزعاج أبي ذر وجه، والحكاية دالة على زعارة[1] الشيخ والتلميذ رحمهما الله " . (الذهبي ،٢٠٠١ ، ١٤)

ويبدو أن وجه سوء الخلق عند كل من الشيخ والتلميذ كما رآه الذهبي ، هو أن المتعلم لم يستأذن صاحب المكتبة قبل دخولها ، أما تصرف الشيخ غير المقبول فكان قسمه بأن لا يحدِث أبا عمران ، مما أورث سوء العلاقة بينهما .

وفي مجال استعداد الطالب للعرض على معلمه ، يذكر الذهبي أنه كان يتدرب على يد آخرين قبل الجلوس إلى معلمه فقد قال في ترجمة إبراهيم بن غالي الحميري المقرني(ت ٧٠٨هـ) جالسته ، وانتفعت به ، وشرعت عليه في جمع السبع (أي السبع قراءات) في سنة إحدى وتسعين تمهيدا للعرض على شيخنا الفاضلي . (الذهبي ،١٩٩٧، ١٦) .

وينبه الذهبي إلى ضرورة أن يكون الاحترام متبادلاً بين المعلم والمتعلم وبخاصة في مجالس العلم فيكون الإخلاص في العطاء من جانب المعلم مع عدم إضاعة الوقت وأداء أمانة التعليم بينما يكون الاحترام من قبل المتعلم من خلال الاستماع والمشاركة بشكل جيد فقد وصف

---

(١) الزعارة : هي الشراسة ، وسوء الخلق ، وربما قيل زعر الخلق (لسان العرب ، زعر)

الذهبي بعض مجالس العلم في زمنه منتقداً ما كان يدور فيها فقال : " فليس طلب الحديث اليوم على الوضع المتعارف من حيز طلب العلم ، بل اصطلاح وأسانيد عالية ، وأخذ عن شيخ لا يعي ، وتسميع لطفل يلعب ولا يفهم ، أو لرضيع يبكي أو لفقيه يتحدث مع حدث ، أو لآخر ينسخ ، وفاضلهم مشغول عن الحديث بكتابة الأسماء أو بالنعاس ، والقارئ إن كان له مشاركة فليس عنده من الفضيلة أكثر من قراءة ما في الجزء سواء تصحف عليه الاسم ، أو اختبط المتن، أو كان من الموضوعات ، فالعلم عن هؤلاء بمعزل ، والعمل لا أكاد أراه ،بل أرى أمورا سيئة ، نسأل الله العفو " (الذهبي ،٢٠٠١، ١٤) ووصف مجلساً آخر فقال : " ففاضلنا يصحح ما تيسَر من حفظه ، وطالبنا يتشاغل بكتابة أسماء الأطفال ، وعالمنا ينسخ ، وشيخنا ينام ، وطائفة من الشبيبة في واد آخر من المشاركة والمحادثة " .(الذهبي ، ٢٠٠١، ١٤) .

ومن وصف له في مجلس ثالث " وهذا المعتّر يسمع الألوف من الحديث فيها الوعيد، والتهديد والعذاب الشديد ، ولا ينزجر ، بل ما أظنه يسمع شيئاً ، ولا يفهم حديثاً لأنه إن كان قارئاً بنفسه . فيجهده أن يتهجى الأسماء والمتون ، ويبدِل ما يشير إليه ، وعينه إلى تنبيه الشيخ تارة ، وإلى أمرد حاضر تارة ،وإلى إقامة الإعراب تارة لئلا يخزى بين الحاضرين ، وإن كان غيره استراح فأنا كفيل لك بأنه ما يسمع غير : (ثنا ، قال ثنا) و(ﷺ)! لكثرة دور ذلك ، ويكمل وصفه ، وهذا يحدث جليسه ، ويمزح مع الصبيان الملاح ، فمتى يسمع هذا أو يعقل أو يبصر أو يغني عنه الحديث شيئا ؟! أعوذ بالله أن أكون قد ضيعت الزمان في نعت بطلة الطلبة أبلاهم الله بالغلبة "(الذهبي ، ٢٠٠١ ، ١٤) .

وأمام هذه السلوكات من المتعلم فالذهبي يرى أن من واجبات المعلم أن يبذل جهده في خدمة الطلبة وأن يسعى جاهداً في ذلك ومن الأمور الدالة على ما ذكر مدح الذهبي لبعض العلماء ومنهم : علي بن موسى الدهان المقرئ (ت ٦٦٥هـ) لحسن حاله مع طلبته " كان ورعاً خيراً ، كثير المروءة ، والسعي في مصالح تلامذته " (الذهبي ، ١٩٩٧، ١٦) ونصر بن سليمان المنبجي (ت ٧١٩هـ) لحسن استقباله له حتى وهو في خلوته حيث قال عنه :" شارك في العلم والفضائل ، ثم أحب الخلوة والتعبد ، فاشتهر اسمه ، وقُصِدَ بالزيارة، وقد أتيته إلى زاويته، وجلست معه ساعة " (الذهبي،١٩٩٧، ١٦) ويوسف بن خليل (ت ٦٤٨ هـ) الذي " لم يزل يسمع ، ويطول روحه على الطلبة والرحالين ، ويكتب لهم الطباق إلى أن مات " (الذهبي ،٢٠٠١، ١٤) أعجبه فيه سعة صدره على المتعلمين ، وعدم ضجره منهم .

ويرى الذهبي أن من حق التلميذ على المعلم أن يكون حسن التصرف معه ، ومواداً ورحيماً ومتواضعاً ومعززاً ومشجعاً وداعياً لهم بالخير ، فها هو يمدح معلمه مسعود المقرئ

(ت ٧٢٠هـ) لأنه كان براً بصبيانه لا يضربهم أبداً (الذهبي ، ١٩٨٨ ، ٢٤) ويمدح معلمه أحمد بن إبراهيم الفزاري المقرئ (ت ٧٥٠هـ) لأنه كان " حلو المزاج ، كثير التودد والتواضع " (الذهبي ، ١٩٩٧، ١٦) ويركز على الموازنة بين العبوس والابتسام سواء من المعلم أو المتعلم خلال علاقاتهما بعضهم ببعض فيقول : "ينبغي لمن كان ضحوكاً بساما أن يقصر من ذلك ويلوم نفسه ، حتى لا تمجه الأنفس ، وينبغي لمن كان عبوساً منقبضاً أن يبتسم ويحسن خلقه ، ويمقت نفسه على رداءة خلقه ، وكل انحراف عن الاعتدال فمذموم ، ولا بد للنفس من مجاهدة وتأديب (الذهبي ، ٢٠٠١ ، ١٤) ويرى الذهبي كذلك ضرورة تشجيع المعلم لتلميذه وتعزيزه له والدعاء له بالتميز والتفوق وفي هذا يقول خلال ترجمته لتلميذه عبد الوهاب السبكي (ولد سنة ٧٢٧هـ) : كتب عني أجزاء ونسخها ، وأرجو أن يتميز في العلم " (الذهبي ، ١٩٨٨ ،٢٥) وكي تبقى صورة المعلم جميلة في أذهان تلاميذه فالذهبي يركز على أن يراعي المعلم حسن الألفاظ في أثناء الكلام فيورد أن أحمد بن بكار (ت ٢٤٤هـ) امتنع عن الأخذ عن يعلى بن الأشدق (ت حوالي ١٨٠هـ) لأنه سمعه يفحش في خطابه (الذهبي ، ٢٠٠١ ، ١٤) .

ويشير الإمام في مجال العلاقات أيضاً إلى إمكانية جلوس التلميذ في مجلس معلمه في حال غيابه أو مرضه فيذكر أن معلمه محمد بن عبد العزيز الدمياطي (ت ٦٩٣هـ) لما مرض من عسر البول وآيس من نفسه نزل له عن حلقته (الذهبي ، ١٩٩٧ ، ١٦) .

أما عن قضية تلقي العلم وشروطه فقد اجتهد الباحث أن يتوسع في هذا الموضوع لأهميته بحيث يبين من خلال ذلك بعض الأمور المتعلقة بهذا الجانب .

تلقي العلوم – بخاصة الشرعية منها – وأخذها وشروط ذلك وفي هذا مباحث منها:

*** تلقي العلم من المعلم أو من خلال الكتب :**

أشار بعضهم إلى أن " الأصل في الطلب أن يكون بطريق التلقين والتلقي عن الأساتيذ (جمع أستاذ) ، والأخذ من أفواه الرجال لا من الصحف وبطون الكتب ، فالأول من باب أخذ النسيب عن النسيب الناطق ، وهو المعلم ، أما الثاني – عن الكتاب – فهو جماد ، فأنّى له اتصال النسب " ؟ (أبو زيد ، ١٤١٥هـ) ، وقال السخاوي في كتابه الجواهر والدرر (١٩٩٩) "من دخل في طلب العلم بلا شيخ ، خرج منه بلا علم ، إذ العلم صنعة ، وكل صنعة تحتاج إلى صانع، فلا بد إذاً لتعلمها من معلمها الحاذق ".

والدارس للآراء حول الموضوع يجد أن معظم أهل العلم يرون أن تلقي العلم عن المعلم أصح ، وأكثر إتقاناً من تلقيه وأخذه من بطون الكتب ، إلا من شذ منهم كأمثال علي بن رضوان المصري (ت ٤٥٣هـ) الذي رد عليه الذهبي خلال ترجمته له بقوله : " ولم يكن له شيخ ، بل اشتغل بالأخذ عن الكتب ، وصنف كتاباً في تحصيل الصناعة من الكتب ، وأنها أوفق من المعلمين ، وهذا غلط " (الذهبي ، ٢٠٠١، ١٤) .

ولا يعني هذا أن يكتفي بالأخذ عن المعلم وترك التعامل مع الصحف والكتب ، بل إن الذهبي قد رأى كغيره من علماء المسلمين أهمية وجود أصل لدى المعلم يعتمد عليه في تدريسه، وينقل منه . والشواهد على ذلك كثيرة ، فقد علق – مثلا – على يزيد بن هارون (ت ٢٠٦هـ) ، والذي كان من أحفظ أهل زمانه، إلا أنه لما فقد بصره،كان يستعين بجارية له تحفظه من كتابه إذا سئل عن حديث لا يعرفه, قال الذهبي:" ما بهذا بأس مع أمانة من يلقنه ، ويزيد حجة بلا مثنوية "[(١)] (الذهبي،٢٠٠١، ١٤) .

والأصل الواجب نقل العلم منه – كما يراه الذهبي – يجب أن يكون دقيقاً ، سليماً ، وللراوي منه ما يثبت سماعه له ، أو إجازته لنقله ، أو [(٢)] ولذلك فقد انتقد التحديث في زمانه، في بعض المجالس فقال :" فكيف بالماضين لو رأونا اليوم نسمع من أي صحيفة مصحّفة ، على أجهل شيخ له أجازه ، ونروي من نسخة أخرى بينهما من الاختلاف والغلط ألوان " (الذهبي ، ٢٠٠١ ، ١٤) .

وهكذا فقد تبين للباحث ميل الذهبي إلى تلقي العلم عن الشيوخ والعلماء ، ويبدو أن مقياس المفاضلة – في ذلك الزمان – بين عالم وآخر ، أو متعلم وآخر كان في عدد الشيوخ الذين أخذ عنهم ، فقد بلغ عدد الشيوخ الذين أخذ عنهم الذهبي نفسه قرابة ألف وثلاثمائة شيخ وشيخة كما أشارت بعض المراجع ، ومنها كتابه المختص بذلك والمسمى المعجم المختص بالمحدثين ، كما أنه مدح ابن حيان (ت ٣٥٤هـ) الذي أشار إلى أنه قد كتب عن أكثر من ألفي شيخ، فقال – أي الذهبي – " كذا فلتكن الهمم " (الذهبي ، ٢٠٠١ ، ١٤) .

---

(١) مثنوية : من ثني ، ثنية ، مثنوية – أي بلا استثناء (لسان العرب , ثني)
(٢) أنظر شروط ذلك في :محمد الثاني بن عمر موسى,ضوابط الجرح والتعديل عند الذهبي ٢/٤٥٦–٤٧٥ .

ويتصل بهذا الموضوع قضية التزمت والتعصب لشيخ معين ، ورفض الأخذ عن غيره، فقد عاب الإمام على بعض الطلبة تعصبهم لشيخهم ورفضهم غيره ، بل والتسفيه والإساءة إلى طلبته فقال :" ما هؤلاء بأصحاب حديث،بل فجرة جهلة ،أبعد الله شرهم " (الذهبي،٢٠٠١، ١٤)

ويلمس الباحث أيضا أن الذهبي قد دعا إلى الأخذ من جميع العلوم بتأمل ، وتمعن ، وتدبر فقال :" من استعمل من العلوم قسطاً ، فقد ازداد مهانةً وخبطاً ، وبذل دينه لشيطانه ، وأدبر عن الخير " (الذهبي ،١٩٩٢ ، ٣١) .

ويفهم مما سبق دعوة الذهبي طلبة عصره إلى التعرف إلى جميع العلوم المباح منها والمفروض ، مع الإكثار من الأخذ عن الشيوخ المعتبرين . ويدور هنا السؤال التالي : هل يأخذ المتعلم علومه عن الشيوخ والمعلمين جميعهم دون أي شروط أو محاذير ؟

*** الشروط الواجب توافرها في المعلمين لقبول التلقي عنهم** [(١)]

يرى الباحث أن الإمام قد اهتم بهذا الأمر كثيراً في معظم كتبه ومصنفاته ، فقد دعا إلى تخير المعلمين وانتقائهم ، وانتقد التهاون في ذلك ومن الشواهد على ذلك قوله منتقداً " وهل شيء أقبح من شاب يكتب عمّن درج ودبّ[(٢)] (الذهبي ، ١٩٩٢، ٣١) أي يكتب عن كل أحد ولا ينتقي معلميه ، والمتتبع لفكر الإمام التربوي يرى أنه لا يشذ عن علماء المسلمين الذين وضعوا شروطا للقبول ، فقد اشترط شروطاً في المعلم هذه بعضها :

- **أن يكون واعياً ، حاذقاً ، قوياً ، ماهراً بصنعته :** أشار الباحث سابقاً إلى انتقاد الذهبي بعض مجالس العلم في زمنه ، وعلى رأسها المعلم الذي ينام ولا يهتم بأمر الطلبة ، حيث وصفه بقوله " شيخ لا يعي " (الذهبي، ٢٠٠١، ١٤) .

  كما انتقد الإمام من يأخذ العلم من الصحف ، ثم يكتب ولا يراجع ما كتبه ليتأكد من الإتقان فيه (الذهبي ، ٢٠٠١، ١٤) .

---

(١) أنظر بعض تفصيلات الموضوع في : السخاوي : فتح المغيث ،شرح ألفية الحديث للعراقي, ٢/٢٨٣-٣٦٠ وإن كانت هذه الشروط خاصة بالحديث عن الرواة والمحدثين إلا أنه يمكن أن تكون للمعلمين بعامتهم فالمحدث معلم بحد ذاته حين يعلم الآخرين أو حين يتلقون العلم على يديه .

(٢) قالوا في المثل : أكذب من دب ودرج : أي أكذب الأحياء والأموات ؛ فدب : مشى ، ودرج : مات وانقرض عقبه ، (لسان العرب ، دب) .

- **أن يكون حافظا غير متهم بالتخليط أو النسيان في علمه** ، بخاصة في علم الحديث: فقد أشار الإمام إلى ضعف الاحتجاج بالعالم لسوء حفظه ، فقال في ترجمة محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى (ت ١٤٨هـ) بأنه مختلف في الاحتجاج به لسوء حفظـــــــه (الذهبي ، ١٩٩٧، ١٦) وقال في ترجمة محمد بن الفضل المعروف بعارم (ت ٢٢٤هـ) " والذي ينبغي أن من خلط في كلامه كتخليط السكران أن لا يحمل عنه البتة ، وأن من تغير لكثرة النسيان أن لا يؤخذ عنه " (الذهبي ، ٢٠٠١ ، ١٤) .
- **أن لا يكون متهما بالضعف** : قال في ترجمة ابن طبرزد (ت ٦٠٧هـ) معلقا على قول ابن الدبيثي فيه بأن سماعه كان صحيحاً على تخليط فيه " يشير ابن الدبيثي بالتخليط إلى أن أخا ابن طبرزد ضعيف ، وفي النفس من هذا " (الذهبي ، ٢٠٠١ ، ١٤) يعني أن النفس لا تطمئن إلى مثل هذا التحمل ، لاحتمال حدوث خلل فيه من قبل هذا القارئ الضعيف .

ومع ذلك ، يرى الباحث أن الذهبي لا يقطع برد الضعيف تماما ، بل إنه نفسه قد أخذ عن الضعاف ، فمع أن بعض العلماء قد أشاروا بضعف ابن زُنبور (ت ٣٩٦هـ) إلا أنه سمع من طريقه عدة أجزاء وصفها بقوله " من أعلى ما عندي مع ضعفه " (الذهبي، ٢٠٠١، ١٤).

- **أن لا يكون صاحب كبيرة** : رد الذهبي على قول أحدهم أن الاعتماد في العدالة على صحة السماع والثقة من الذي يروي عنه ، وأن يكون عاقلا مميزا بقوله " لا ينبغي الأخذ عن معروف بكبيرة " (الذهبي ، ٢٠٠١، ١٤) .

- **أن يكون تقياً صادقاً** : وهذا الأمر من البدهيات التي يجب أن يتحلى بها من نستطيع الوثوق بعلمه ، والأخذ منه ، وقد اشترط الذهبي ذلك في أكثر من موقع ، فعند الأخذ عن المبتدع اشترط بأن يكون صادقاً تقياً ، قال :" القدري ، والمعتزلي ، والجهمي ، والرافضي ، إذا علم صدقه في الحديث وتقواه ، ولم يكن داعياً إلى بدعته ، فالذي عليه أكثر العلماء قبول روايته ، والعمل بحديثه ... " (الذهبي ، ٢٠٠١ ، ١٤) .

وبعكس ذلك ، فرواية المشهور بالكذب والذي يضيف إلى رسول الله ﷺما ليس

منه قولاً أو فعلاً ، أو تقريرا متعمدا ذلك – فروايته على الأغلب غير مقبولة[١]

- **أن لا يكون فاحشاً في كلامه وخطابه** : ذكر الإمام أن أحمد بن بكار(ت٢٤٤ هـ) امتنع من الأخذ عن يعلى بن الأشدق(توفي بعد ١٨٠هـ)كونه "سمعه يُفحِش في خطابه " (الذهبي ، ٢٠٠١ ، ١٤) .
- **أن لا يكون مبتدعا**[٢] : وهذا الموضوع يحتاج إلى أن يقف المرء عنده ، فقد نص الأئمة على أن البدعة من أسباب الطعن في الراوي ، وهذا حكم عام يتقيد بضوابط عدة، فصّل فيها الذهبي في أكثر من موضع في كتبه ومصنفاته سواء بالتصريح أو التلميح ، ومن ذلك :

– من عاش في بعض الظروف ، وجانب الصواب بحكم تأثير البيئة عليه ، والتربية التي تلقاها في بيته فإنه معذور في ذلك إن شاء الله وخطؤه مغفور ، ومن الأمثلة على ذلك ما ضربه الذهبي خلال تأريخه وترجمته لرجال الدولة العبيدية في المغرب (نسبة إلى عبيد الله المهدي) والدولة البويهية بالمشرق ، وقد بيّن من خلال ذلك حال من أثرت البيئة في عقيدته باطناً وظاهراً ، وحال من أثرت فيه باطناً لا ظاهراً ، ومقدار تغلب العلماء على ذلك . و في هذا تفصيل يضيق المقام عن الخوض فيه .

– مراعاة نوع البدعة ،أشار الذهبي في كتابه ميزان الاعتدال " أن البدعة على ضربين: فبدعة صغرى ، كالتشيع بلا غلو ولا تحرّق ، فهذا كثير في التابعين وتابعيهم مع الدين والورع والصدق ، فلو ردّ حديث هؤلاء لذهب جملة من الآثار النبوية، وهذه مفسدة بيّنة ، ثم بدعة كبرى ، كالرفض والغلو فيه ، والحطّ على أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، والدعاء إلى ذلك ، فهذا النوع لا يحتج بهم ولا كرامة أيضاً. فما استحضر الآن في هذا الضرب رجلا صادقا ولا مأمونا ، بل الكذب شعارهم ، والتقية والنفاق دثارهم ، فكيف يقبل نقل من هذا حاله ! حاشا وكلا . فالشيعي في زمن السلف وعرفهم هو من تكلم في عثمان والزبير وطلحة ومعاوية وطائفة ممن حارب علياً – رضي الله

---

(١) أنظر بعض التفصيلات في: محمد بن الثاني عمر موسى , ضوابط الجرح والتعديل عند الذهبي/ ص٤٠١.
(٢) البدعة : هي طريقة في الدين مخترعة تضاهي الشرعية ، يقصد بالسلوك عليها المبالغة في التعبد لله سبحانه وتعالى وهذه بدعة في التعبد .

أما الابتداع في الاعتقاد فهو اعتقاد ما هو خلاف المعروف عن النبي ﷺ أو أصحابه لا بمعاندة ، بل بنوع شبهة (السخاوي : فتح المغيث ٣٢٧/١)

عنه – وتعرض لسبهم ، والغالي في زماننا وعرفنا هو الذي يكفر هؤلاء السادة ، ويتبرأ من الشيخين أيضا ، فهذا ضال معثر" . (موسى ، ٢٠٠٠) .

وقد فصل الإمام في رسالته " الموقظة في علم مصطلح الحديث " (١٤٠٥هـ) مراتب البدعة من جهة المعتقد على النحو التالي : من بدعته غليظة ، من بدعته دون ذلك ، الداعي إلى بدعته ، الكاف ، وما بين ذلك .

فمتى جمع الغلظ والدعوة تجنب الأخذ عنه ، ومتى جمع الخفة والكف أخذوا عنه وقبلوه فالغلظ كغلاة الخوارج ، والجهمية[١] ، والرافضة ، والخفة كالتشيع[٢] والمرجئة [٣] ، وأما من استعمل الكذب نصرا لرأيه كالخطابية[٤] ، فبالأولى رد حديثه ."

وفصل في بعض هذه الفرق بقوله : "كل من أحب الشيخين فليس بغال ، بلى من تعرض لهما بشيء من تنقص فهو رافضي غال ، فإن سب فهو من شرار الرافضة ، فإن كفّر فقد باء بالكفر ، واستحق الخزي " (الذهبي ، ٢٠٠١ ، ١٤).

وأضاف – رحمه الله – في موقع آخر مبينا حال القبول أو الرفض ، وواضعا بعض الشروط لذلك ، تظهر في الشاهد التالي بشكل واضح :" القدري والمعتزلي والجهمي والرافضي، إذا عُلم صدقه وتقواه ، ولم يكن داعياً إلى بدعته ، فالذي عليه أكثر العلماء قبول روايته ، والعمل بحديثه ، وترددوا في الداعية ، هل يؤخذ عنه ؟ فذهب كثير من الحفاظ ، إلى تجنب حديثه، وهجرانه ، وقال بعضهم : إذا علمنا صدقه ، وكان داعية ، ووجدنا عنده سنة تفرد بها فكيف يسوغ لنا ترك السنة ؟ فجميع تصرفات أئمة الحديث تؤذن بأن المبتدع إذا لم تُبح بدعته خروجه من دائرة الإسلام ، ولم تبح دمه ، فإن قبول ما رواه سائغ . وهذه المسألة لم تتبرهن لي

---

(١) الجهمية : من ينفي صفات الله تعالى التي أثبتها الكتاب والسنة ، ويقول أن القرآن مخلوق .

(٢) التشيع : هو محبة علي رضي الله عنه وتقديمه على الصحابة ، فمن قدمه على أبي بكر وعمر فهو غال في تشيعه ، ويطلق عليه رافضي ، وإلا فشيعي ، فإن انضاف إلى ذلك السب أو التصريح بالبغض فغال في الرفض، وإن اعتقد الرجعة إلى الدنيا ، فأشد في الغلو .

(٣) الإرجاء : بمعنى التأخير ، وهو عندهم على قسمين : منهم من أراد به تأخير القول في الحكم في تصويب إحدى الطائفتين اللتين تقاتلتا بعد عثمان ، ومنهم من أراد تأخير القول في الحكم على من أتى الكبائر وترك الفرائض بالنار,لأن الإيمان عندهم: الإقرار والاعتقاد ولا يضر العمل مع ذلك (ابن حجر،هدي الساري ٤٥٩/١)

(٤) الخطابية : من الرافضة , ينسبون إلى أبي الخطاب وكان يأمر أصحابه أن يشهدوا على من خالفهم بـــالزور (لسان العرب , خطب)

كما ينبغي ، والذي اتضح لي منها أن من دخل في بدعة ، ولم يعد من رؤوسها ولا أمعن فيها ، يقبل حديثه ... " (الذهبي ، ٢٠٠١ ، ١٤) .

وقد طبق الذهبي ما يقول به عملياً ، فأخذ العلم عن رافضي ، فقد قال في ترجمة محمد بن طلحة بن عثمان (ت ٤١٣هـ) : "كتبت عنه وكان رافضيا "(الذهبي،١٩٩٣، ٤) .

- **أن لا يصل إلى حد الهرم الذي يخلط معه أو يتغير :**

قال الإمام ناصحاً وموصياً المحدثين :" وليمتنع مع الهرم وتغير الذهن ، وليعهد إلى أهله وإخوانه حال صحته، إنكم متى رأيتموني تغيرت فامنعوني من الرواية "(الذهبي ،٢٠٠٠، ٢٨) .

ويبدو **أن** الذهبي قد فرق بين التغير والاختلاط ، فقد قال في ترجمة هشام بن عـــــروة (ت ١٤٦هـ) منافحاً عنه ومدافعاً ضد من قال بأنه اختلط وتغير :" إن الحافظ يتغير حفظـــه إذا كبر، وتنقص حدّة ذهنه ، فليس هو في شيخوخته كهو (كما هو) في شـــبيبته ، ومـــا ثـــم أحـــد بمعصوم من السهو والنسيان ، وما هذا التغير بضار أصلا ، وإنما الـــذي يضـــر الاخـــتلاط ، وهشام لم يختلط قط ، هذا أمر مقطوع به ، وحديثه محتج به في (الموطأ) والصحاح ، والسنن ، فقول ابن قطان " أنه اختلط" قول مردود مرذول ، فأرني إماما من الكبـــار ســـلم مـــن الخطـــأ والوهـــم." (الذهبي ، ٢٠٠١ ، ١٤) .

وهكذا يرى الباحث أن الضرر الذي يترك معه الأخذ عن العالم يكمن في الاختلاط ، ويرى بعضهم أنّ لعدم تحديث الراوي المختلط في حال اختلاطه سببين :

الأول : أن يأنس الراوي من نفسه تغيرا فيترك الرواية تورعاً ، وقد مدح الذهبي توقف جعفـــر القريابي (ت ٣٠١هـ) وإمساكه عن الحديث لما شعر بأنه قد تغير بقوله : " نعم ما صنع ، فإنـــه أنس من نفسه تغيراً ، فتورع وترك الرواية " (الذهبي ، ٢٠٠١ ، ١٤) .

الثاني : أن يحجبه أهله فلا يسمع منه أحد في حال اختلاطه : وقد بين الذهبي حالات عديدة من هذا القبيل ، فقد ذكر في ترجمة عبد الوهاب بن عبد المجيد بن الصلت الثقفي (ت ١٩٤هـ) أنـــه قد رمي بالاختلاط والتغير قبل موته بثلاث أو أربع سنين ، فقال مدافعا :" لكن ما ضر تغيره ، فإنه لم يحدث زمن التغير بشيء ، وأضاف بأنه وجرير بن حازم قد تغيرا فحجب الناس عـــنهم (موسى ، ٢٠٠٠) . ولعل ما أوصى به الذهبي من آداب المحدث في الموقظة (٢٠٠٠) خيـــر شاهد على هذا الموضوع .

ويتصل بهذا الأمر قضايا ومسائل تتعلق بالخطأ والنسيان ، وهــل يقــدحان بالعــالم . والظاهر أن الإمام يرى أنه ليس من شرط الثقة من العلماء أن لا يخلط ولا يتوهم . فقد دافع عن هشام بن عروة (ت ١٤٦هـ) بقوله " ... وما ثم أحد بمعصوم من السهو والنسيان ، فأرني إماما من الكبار سلم من الخطأ والوهم " (الذهبي ، ٢٠٠١ ، ١٤) وقال في خطأ وقــع فيــه الإمــام الحافظ وكيع بن الجراح (ت ١٩٧هـ) " كل أحد يؤخذ من قوله ويترك ، فلا قدوة فــي خطــأ العالم ، نعم ، ولا يوبخ بما فعله باجتهاد (الذهبي ، ٢٠٠١ ، ١٤) .

*** تلقي العلم عن ذوي العاهات الجسمية :**

إن المتتبع لتراجم الرجال عند الذهبي وغيره يجد العديد من العلماء الذين كانت عنــدهم عاهات جسدية ، فمنهم الأعمى ، والأصم ، وغيرهم " وهذا لم يمنعهم من أن يكونــوا أعلامــا يشار إليهم بالبنان ، وتشد إليهم الرحال ، ولا أدل على ذلك من الجانب العملي في حياة الذهبي ، من أنّه سمع من أصم فقال في ترجمة شيخه الخرائطي الأصم (ت ٧١٦هـ) قرأت عليه بأعلى صوتي في أذنه ثلاثة أحاديث .. (المنجد ، ١٩٧٨) وهذا دليل على صحة التلقي عن هذه الفئــة من العلماء .

أخذ الأجرة على التعليم – بخاصة الشرعي منه –

أخذ الأجرة من المواضيع المختلف عليها بين علماء التربيــة المســلمين بــين المــانع والمجيز، وقد وقف الذهبي موقفا هو أقرب إلى الإجازة في هذه القضية ، فهو في البدايــة قــام بتخريج بعض الأحاديث المتعلقة بالموضوع مبيناً ضعفها ، فقد أشار إلى حديث " أجر المعلمين والمؤذنين والأئمة حرام " بأنه موضوع " وسنده ظلمات " وقال في حديث " نهي عــن التعلــيم والأذان بالأجرة ، فمن فعل ذلك فعليه لعنة الله " هذا موضوع ، " وفيه متروكان وانقطاع " [١]

ولما استلم مشيخة دار الحديث التنكزية قرر فيها ثلاثين محدثا لكــل مــنهم جرايــة[٢] وجامكية[٣] وكل شهر سبعة دراهم ونصف رطل خبز ، وقرر للشيخ ثلاثــين رطــل خبــز ... ولقارئ الحديث عشرين درهما وثماني أواق خبز ... " (ابن كثير ، ١٩٩٨) .

(١) انظر تخريج الذهبي للحديثين في كتابه ترتيب الموضوعات ، باب العلم ، الحديثين ١٢٨-١٢٩ ص٥٧
(٢) الجراية : وهي الجاري من الوظائف ، ويقال أجريت عليه كذا ، أي أدمت له(لسان العرب ، جري) .
(٣) الجامكية : كلمة فارسية ، جمعها جوامك ، وجماكي ، وهي العطاء ، أو الراتب ، أو الأجرة ، أو الوظيفة، ويقال جوامك المدرسين أي رواتبهم (دوزي , ٢ / ١٢٧)

وقد قسم – رحمه الله – من يأخذ الأجرة على التحديث والتعليم إلى عدة أقسام مبيناً حكم كل قسم منها ، وفي النصوص التالية بيان لذلك :

– قال معلقا على من اعتقد أنه في النار لمجرد أخذه الأجرة عن حديث رسول الله ﷺ : الظاهر أنه أخذ الذهب وكنزه ولم يزكه فهذا أشد من مجرد الأخذ ، فمن أخذ من الأمراء والكبار بلا سؤال وهو محتاج فهذا مغتفر له ، فإن أخذ بسؤال ، رخص له بقدر القوت ، وما زاد فلا ، ومن سأل وأخذ فوق الكفاية ذم، ومن سأل مع الغنى والكفاية حرم عليه الأخذ ، فإن أخذ المال والحالة هذه وكنزه، ولم يؤد حق الله فهو من الظالمين الفاسقين ، فاستفت قلبك ، وكن خصما لربك على نفسك . (الذهبي ، ٢٠٠١ ، ١٤) .

وعقب على من سأل أحد العلماء ، العالم يأخذ على قراءة العلم ؟ فقال : جائز ، حلال أن لا أقرأ لك ورقة إلا بدرهم ، ومن أخذني أن أقعد معك طول النهار ، وأدع ما يلزمني من أسبابي، ونفقة عيالي ؟ " فقال الذهبي : هذا الذي قاله متوجه في حق متسبب يفوته الكسب والاحتراف ، لتعوقه بالرواية ، كما قال علي بن بيان الرزاز – الذي تفرد بعلو جزء ابن عرفه، فكان يطلب على تسميعه دينارا ، ويقول : أنتم إنما تطلبون مني العلو ، وإلا فاسمعوا الجزء من أصحابي ، ففي الدرب جماعة سمعوه مني " ، فإن كان الشيخ عسرا ثقيلا لا شغل له ، وهو غني فلا يعطى شيئا ، والله الموفق " . (الذهبي ، ٢٠٠١ ، ١٤) .

– وقال في فصل طلب العلم في مصنفه " ست رسائل (١٩٨٨) منتقدا من طلب العلم للرياسة وأخذ الأجر وهو صاحب غنى " له ألوف من المال يتجر فيها ، وهذا لا ارتاب أنّه يحرم عليه أخذ الجامكية ، لأنه من الأغنياء التجار ، ومن ذوي الثروة واليسار ، أو أرباب المزارع والعقار، فكيف يزاحم الفقهاء ، ويضيق عليهم ؟ إذ أخذ الجامكية إنما موضوعه : استعانة على طلب العلم ونشره ، وهذا الرجل في غنى عن أخذ صدقات الملوك والوزراء والأمراء ، ولا يحل له أن يأخذ لعلمه أجرة ولا ثمنا ، وهو في عداد المسرفين وفي عداد الكانزين فلو صرف وليّ الأمر هؤلاء من الجهات لعد من العادلين "

– وقال منتقداً هشام بن عمار (ت ٢٤٥ هـ) " الذي كان يبيع الحديث حتى أمسك بعضهم عن الأخذ عنه " والعجب من هذا الإمام مع جلالته ، كيف فعل هذا ولم يكن محتاجا وله اجتهاده (الذهبي ، ٢٠٠١ ، ١٤) .

– وأورد الإمام بعض الأحاديث في كتابه الطب النبوي (١٩٨٧) معقباً على القصص بقولــه : "وفي أخذهم القطيع دليل على أخذ الأجرة على الطب والرقى " .

ومما سبق فالباحث يلمح الأصناف التالية ، حسب حالهم في أخذ الأجرة :

أ – الذي يأخذ دون أن يسأل أو يشترط ذلك على تعليمه ، فهذا يجوز له ذلك خاصة إذا أخذ من الأمراء والكبار ، وكان صاحب حاجه . ويغتفر له ذلك بإذن الله تعالى .

ب– الذي يشترط الأخذ والأجرة ، وهو فقير محتاج ، فهذا يجوز له الأخذ بقدر قوته ، الذي فاته كسبه عند انقطاعه للتعليم ، وهذا يساعده على طلب العلم ونشره دون عسر أو ضيق .

ج – الذي يشترط الأجرة ، ويأخذ فوق كفايته يعد مذموماً .

د – الذي يشترط الأجرة ، مع الغنى والكفاية وعدم الحاجة ، فهذا يحرم عليه ، ولا يرخص له أخذه ، حتى لو كان دون عمل أو لا شغل له .

هــ – وقد اشترط الذهبي في جميع الحالات ضرورة إخراج حق الله في هذا المــال ، وعــدم كنزه، فالمرء قد يباح له أخذ الأجرة ، ولكنه يعاقب على كنز المال دون تأدية حق الله فيه مــن الزكاة والصدقة .

ب. العلاقات بين الآباء والأبناء

ظهرت العلاقة بين الآباء أو أولياء الأمور والأبناء في أكثر من موقع في كتب الذهبي ومصنفاته ، حيث جاءت في معظمها على شكل حقوق وواجبات أو تطبيقات عملية كانت للذهبي مع أسرته وأقاربه ، وقد اجتهد الباحث في تقسيم الشواهد على هذا الموضوع على وفق ما ظهرت لدى الذهبي :

* **علاقة الذهبي بأسرته وأقاربه :** وقد جاءت هذه العلاقة على شكل ممارسات عملية يمكن الإفادة منها في موضوع العلاقات –قصد الحديث– ويمكن ملاحظة ذلك في أمثلة لدى الإمام كان في بعضها ابناً متعلماً ، وكان في غيرها مربياً مسؤولاً فقد اهتم به ذووه في صغره بشكل واضح ، وهذا يدل على قوة الرابطة التي كانت بينهم ، فجده عثمان **(ت ٦٨٣هـ)** كان يعالجه من عيب في لسانه ليحسن منطقه "كان يدمنني على النطق بالراء ليقوم لساني" **(الذهبي ،١٩٨٨، ٢٤)** ومرضعته ، عمته ست الأهل بنت عثمان **(ت ٧٢٩هـ)** اهتمت به ، وقرأ عليها ، وأخوه في الرضاعة علاء الدين ابن العطار **(ت ٦٧٧هـ)** استجاز له جملة من شيوخ عصره

سنة مولده حيث انتفع بذلك كثيرا (الذهبي ، ١٩٨٨ ، ٢٤) أما والده أحمد(ت ٦٩٧هـ) فقد كان القدوة والمثال لولده حيث نشأ وتدرّج وهو يراه يقبل على طلب العلم ، فتبع أثره في ذلك .

وكان الإمام محترماً لوالده ومطيعاً له حتى في الأمور التي تكون ضد رغباته فقد تمنى السفر للأخذ عن عبد الرحمن بن وريدة البغدادي (ت ٦٩٧هـ) لكنه كان يتوقف عن ذلك احتراما لولده الذي كان يخاف عليه ، وفي ذلك يقول : وكنت أتحسر على الرحلة إليه ، وما أجسر خوفاً من الوالد لأن كان يمنعني " (الذهبي ،١٩٩٧، ١٦) .

أما علاقة الإمام بأبنائه وحرصه على تعليمهم فقد ظهر لها شواهد عدة منها : عمله على الحصول على إجازات لابنته (أمة العزيز) من أكثر من واحد باستدعاء منه وبطلبه ، واصطحابه لأبنائه وأحفاده معه إلى مجالس العلم وحلقاته ، إضافة إلى أنه أجاز لهم رواية بعض كتبه مثل "تاريخ الإسلام" (معروف ، ١٩٧٦)

*** واجب الآباء تجاه أبنائهم وحقوقهم عليهم** : أورد الإمام كثيراً من القصص والحوادث وعلق عليها مبيناً رأيه الذي يمكن الإفادة منه في جانب العلاقات ومن ذلك أنه رأى ضرورة احترام الأب لمشاعر ولده والحفاظ على أسراره وخصوصياته فقد ذكر خلال ترجمته لعبد الرحمن بن بشر (ت ٢٦٠هـ) ،أنه لمَا احتلم عبد الرحمن(بلغ سن الحلم) . قام أبوه بدعوة عدد من العلماء وأصحاب الحديث على الطعام ، فلما فرغوا قال: اشهدوا أن ابني قد احتلم ، وهو ذا يسمع من عبد الرزاق (ت ٢١١هـ) ، فقال الذهبي معلقاً:هذا الإعلام إيلام للصبي وتخجيل له (الذهبي،٢٠٠١، ١٤).

ورأى الإمام أن من واجب الآباء الرحمة بالأبناء والعطف عليهم وإشعارهم بالحنان فقد علق على قصة أبي العباس أحمد بن عبد الله اللخمي المعروف بابن الحطيئة (ت ٥٦٠هـ) مع ابنته التي ولدت له ، فلمَا كبرت أقرأها بالسبع[1]، وقرأت عليه الصحيحين وغير ذلك، وكتبت الكثير ، وتعلمت عليه كثيرا من العلم ، ولم ينظر إليها قط حتى بعد أن كبرت و تزوجت. فقال : لا مدح في مثل هذا بل السنَة بخلافه ، فقد كان سيد البشر ﷺ يحمل أمامه بنت ابنته وهو في الصلاة (الذهبي ، ٢٠٠١ ، ١٤) .

أي أن الذهبي قد عاب على هذا العالم عدم نظره إلى ابنته وإشعارها بحنانه ، رغم كل ما قدمه لها من تعليم وعناية .

كما رأى ضرورة حماية الآباء لمن يعولون من الأهل فقال معلقاً على قول زيد بن أبي الزرقاء (ت ١٩٧ هـ) " إذا كان للرجـل عيـال ، وخاف على دينـه فليهـرب " قال : " يهرب لكن بشرط أن لا يضيع من يعول "(الذهبي ، ٢٠٠١ ، ١٤) .

ومن أوجه الحماية التي رآها الذهبي أن يختار الآباء لأبنائهم البيئات الصالحة ويحذروهم من الرفقة السيئة ويمنعوهم ذلك ، وفي هذا يقول ناصحاً : فإن كان الجار ديوثاً ، أو قليل الغيرة، أو حريمه على غير الطريق المستقيم فتحول عنه ، أو فاجهد أن لا يؤذوا زوجتك فإن ذلك فسادٌ كثير ، وخف على نفسك ، ولا تدخل منزله ، واقطع الود بكل ممكن ، وإن لم تقبل مني ربما حصل لك هوى وطمع وغلبت عن نفسك أو ابنك أو خادمك أو أختك ، وإن ألزمتهم بالتحويل عن جوارك فافعل ، بلطف وبرغبة ورهبة " .

ويرتبط بجانب الحماية أيضاً عمل الآباء على تجنيب أبنائهم ما يمكن أن يفسد عقيدتهم أو يؤثر عليها سلباً ، فقد أوصى الذهبي في كتابه "تشبيه الخسيس بأهل الخميس" (١٩٨٨) الآباء بمنع آبائهم وأهليهم المشاركة في أعياد المشركين ومظاهرها –بخاصة ما هو متعلق بالعقيدة–

(١) السبع : جمعها الأسباع ، وهي قراءة القرآن وختمه في سبعة أيام ، وقد أطلق على المكان الذي يقرأ فيه السّبع (الحجاج :التعليم في مدينة دمشق .... ص : ١٨-١٩).

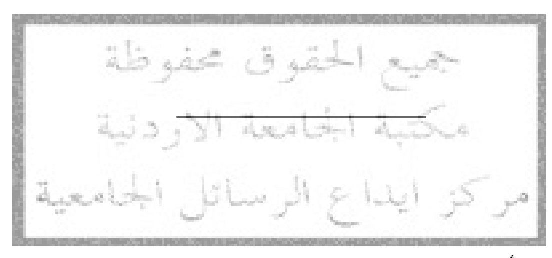
فقال : بئس المربي أنت أيها المسلم إذا لم تنه أهلك وأولادك عن ذلك ، وتعرفهم أن ذلك عند النصارى لا يحل لنا أن نشاركهم فيها ويعتقد الباحث أن منع المشاركة في مظاهر هذه الأعياد هو تعارض بعضها مع العقيدة الإسلامية مثل : عمل الصليب على الأبواب طرداً للسحر أو الاعتقاد بنزول مريم عليها السلام لتبارك بعض الأوراق المصبوغة وما شابه .

لقد حث الإسلام على معاملة أهل الكتاب[١] معاملة حسنة مثل الإهداء إليهم وتقبل هداياهم وهذا ما أبرزه الذهبي بقوله : " فعل المنكرات في الخميس الخسيس على مراتب بعضها أخذ من بعض ، فقبول الهدية من الجار النصراني إذا أهدى لك من في عيده من البيض ونحو ذلك مباح، لكن تمكين الصبيان من شراء البيض والمقامرة به حرام .

ومن الأمور التي ذكرها الذهبي في موضوع العلاقات قوله بأن الأبناء يتأثرون بعلوم والديهم فقد علق على قول أبي مسعود الرازي (ت ٢٥٨هـ) كتبت الحديث و أنا ابن اثنتي عشرة سنة ، فقال : " بكر بطلب العلم لأن أباه من أهل الحديث أيضا "(الذهبي ، ٢٠٠١ ، ١٤)

ويركز الذهبي على أن يشارك كل من الأب والأم (الوالدين) في تربية أبنائهما كل حسب دوره ووظيفته فيعملوا على غرس المبادئ والفضائل في نفوسهم ويبين لهم ما يلزم فعله

وما ينبغي تجنبه والابتعاد عنه ، بحيث يتتابع هذا التوجيه بشكل مستمر مع مراعاة تدرج نمو الطفل من سن التمييز إلى سن البلوغ (الذهبي ، ٢٠٠١ ، ١٤)



(١) أنظر للتفصيل في هذا الأمر ، القرضاوي ، غير المسلمين في المجتمع الإسلامي .

ج. العلاقات بين المعلمين أنفسهم

أشار الذهبي في عدد من المواضع والمواقف إلى الموضوع أعلاه ، مبينا وجود اختلافات وخلافات بين بعض العلماء ذاكراً بعض أسبابها ، ومعلقاً على ذلك ، ثم واضعاً بعض القواعد والأسس التي يجب أن تحكم العلاقات بينهم – كما يراها – ، ومن آرائه حول الموضوع أنه رأى أن قضية الاختلافات بين العلماء قديمة حديثة ، فقد علق على الخصومات الشديدة التي وقعت بين بعض العلماء وما تبعها من شتائم ودسائس فقال : " ما زال الأئمة يختلفون قديما وحديثا ، ولكن من ذميم أخلاقهم وقيعة بعضهم في بعض ، وسد باب الاعتذار ، نسأل الله تعالى العفو ، وترك الهوى (الذهبي، ١٩٩٧ ، ١٦)

وشدد الإمام النكير على بعض المتكلمين في رفاقهم لخلافات بينهم ، مبيناً أن هذا مما يجب تجنبه وعدم الوقوع فيه فقال : " استفق ويحك ، وسل ربك العافية ، فكلام الأقران بعضهم في بعض أمر عجيب ، وقع فيه سادة ، فرحم الله الجميع (الذهبي ، ٢٠٠١ ، ١٤)

وقد بين الإمام أن الاختلافات بين العلماء وكلام بعضهم في بعض يعود إلى أسباب منها :

- **الاختلاف في المعتقد أو المذهب** : قال الذهبي في كتابه " تاريخ الإسلام " (١٩٩٣) : "كان أبو نعيم (ت ٤٣٠هـ) كثير الحطّ على ابن مندة (ت ٣٩٥هـ) لمكان المعتقد واختلافهما في المذهب "وقال في " ميزان الاعتدال" (١٩٦٣) " البلاء الذي بين الرجلين هو الاعتقاد "
- **الجهل** : كأن يذم أحد العلماء آخر ، ويقدحه ويجرحه لجهله بالعلوم التي يحملها ، قال الإمام : " الكلام بسبب الجهل بمراتب العلوم ، فيُحتاج إليه في المتأخرين أكثر ، فقد انتشرت علوم للأوائل ، وفيها حق كالحساب والهندسة والطب ، وباطل كالقول في الطبيعيات وكثير من الإلهيات وأحكام النجوم , فيحتاج القادح أن يكون مميزاً بين الحق والباطل ، فلا يكفَر من ليس بكافر، أو يقبل رواية كافر "(الذهبي ،١٤٠٥ هـ ، ٢٩) .
- **عدم الورع ، والأخذ بالتوهم** : وفي ذلك يقول الذهبي بأن مما تدخل فيه الآفة عنـــــد الجرح " الخلل الواقع بسبب عدم الورع و الأخذ بالتوهم و القرائن التي قد تتخلف

(تختلف) قال ﷺ : " الظن أكذب الحديث " [1]. فلا بد من العلم والتقوى في الجرح (الذهبي ،١٤٠٥ هـ ، ٢٩) .

- **الحسد** : علق الذهبي على العداوة بين بعض العلماء وكلامهم في بعضهم بقوله : كلام الأقران بعضهم في بعض لا يعبأ به لا سيما إذا لاح لك أنه لعداوة ، أو لمذهب ، أو لحسد .(الذهبي ، ١٩٦٣ ، ٣٠) .

- **الاختلاف الواقع بين المتصوفة وأهل العلم الظاهر** : علق الذهبي على كلام الشيخ ابن وهب (ت ٣٠٨هـ) الذي يقول فيه : " الاختلاف الواقع بين المتصوفة وأهل العلم الظاهر أوقع بينهم تنافر أوجب كلام بعضهم في بعض " فقال – أي الذهبي – " وهذه غمرة لا يخلص منها إلا العالم الوافي بشواهد الشريعة – " (الذهبي ،١٤٠٥ هـ ، ٢٩) .

- **التنافس (خاصة غير الشريف)** : علق على التنازع بين أبي عبد الله بن مندة وأبي نعيم، حيث نال الأخير من الأول في كتبه ، فقال : عُرف وهن كلام الأقران المتنافسين بعضـــهم في بعض ، نسأل الله السماح " (الذهبي ، ٢٠٠١ ، ١٤)

– **الهوى والعصبية** : وفي ذلك يقول معلقاً " كلام الأقران إذا تبرهن لنا أنه بهوى وعصبية، لا يلتفت إليه ، بل يطوى ولا يروى " (الذهبي ، ٢٠٠١ ، ١٤)

ولم يكتف الإمام الذهبي – رحمه الله – بذكر مسببات تلك العلاقات ، بل أنـــه وضـــع بعض القواعد ، ليسهم من خلالها في منع تكدير صفو العلاقات بين العلماء ، بما يعود بـــالنفع على المتعلمين ، ومن ذلك :

- أن الاختلاف أمر طبيعي ، بل من الواجب الإنكار على العالم إن أخطأ ولكن بالحسنى :
وفي ذلك يقول معلقا على وضع أبي الحسن ابن سكر كتاباً في الرد على الغزالـــي أســـماه (إحياء ميّت الأحياء في الرد على كتاب الإحياء) : " ما زال الأئمة يخالف بعضهم بعضا ، ويرد هذا على هذا ، ولسنا ممن يذم العالم بالهوى والجهل " . (الذهبي ، ٢٠٠١ ، ١٤) .

ويقول معلقا على رد أبي بكر بن العربي (ت ٦٣٨ هـ) على أبي حامد الغزالي في

(١) رواه أبو هريرة ، البخاري ، كتاب النكاح ، باب لا يخطب على خطبة أخيه ، (٥١٤٤) ١٠٦/٩ ، و مسلم ، كتاب البر والصلة والآداب ، باب تحريم الظن والتجسس ، ١١٨/١٦ ، وأبو داوود ، كتاب الأدب ، باب في الظن (٤٩١٧) ص٧٣٧ وهو حديث صحيح .

بعض المسائل العلمية بقوله : " كذا فليكن الرد بأدب وسكينة " .(الذهبي ، ٢٠٠١ ، ١٤)

- الردود المتبادلة بين العلماء بحسن نية تزيد من علم كل منهم وتوضح الغامض من الأمور ، وفيه يقول : " وما زال العلماء ، قديماً وحديثاً يرد بعضهم على بعض فـــي البحـــث وفـــي التواليف ، ويمثل ذلك يتفقه العالم ، وتتبرهن له المشكلات ، ولكن في زماننا قد يعاقب الفقيه إذا اعتنى بذلك لسوء نيته ، ولطلبه للظهور والتكثر ، فيقوم عليه قضاة وأضداد ، نسأل الله حسن الخاتمة ، وإخلاص العمل " (الذهبي ، ٢٠٠١ ، ١٤)
- العبرة بكثرة محاسن العالم : وقد فصل الذهبي في ذلك على النحو التالي :

- قال في ترجمة قتادة بن دعامة السدوسي (ت ١١٧ هـ) : أن الكبير من أئمـــة العلـــم إذا كثر صوابه ، وعلم تحريه للحق ، واتسع علمه ، وظهر ذكـــاؤه ، وعُـــرف صـــلاحه وورعه واتباعه ، يغفـــــر له ، ولا نضلله ونطرحه وننسى محاسنه ، ولا نقتدي به في بدعته وخطئه ، ونرجو له التوبة من ذلك . (الذهبي ، ٢٠٠١ ، ١٤) .

- قال معلقا على وصف ابن الجوزي لمحمد بن أحمد العثماني (ت٥٢٧ هـ) بأنه كان غالياً في مذهب الأشعري " : غلاة المعتزلة ، وغلاة الشيعة ، وغلاة .....وغلاة........قد ماجت بهم الدنيا وكثروا ، وفيهم أذكياء ، وعباد وعلماء نحب العالم على ما فيه من الاتباع والصفات الحميدة ، ولا نحب ما ابتدع فيه بتأويل سائغ ، وإنما العبرة بكثرة المحاسن " (الذهبي ، ٢٠٠١ ، ١٤)
- باب الاجتهاد مفتوح ، فقد يجتهد العالم فيصيب ، وقد يجتهد ويخطئ : وفي ذلك يعلق الذهبي على من تكلم في أبي حامد الغزالي فيقول : ما زال العلماء يختلفون ، ويتكلم العالم باجتهاده ، وكل منهم معذور مأجور ، ومن عاند أو خرق الإجماع فهو مأزور ، وإلى الله ترجع الأمور (الذهبي ،٢٠٠١ ، ١٤) ويقول معلقاً على منتقدي ابن قدامة لقوله في العقائد على طريقة أهل مذهبه : " وكذا كل فرقة تتعجب من الأخرى ، ولا عجب في ذلك ، ونرجو لكل من بذل جهده في تطلب الحق أن يغفر له من هذه الأمة المرحومة " (الذهبي ، ٢٠٠١ ، ١٤) ويعيب على العلماء الذين يهجرون زميلاً لهم لأنه أخطأ في اجتهاده ، مبينا أنه إذا أخطأ المعلم ، وقوطع بسبب ذلك ، فلن يسلم أحد ، حيث أن الخطأ من طبيعة البشر (الذهبي ،٢٠٠١ ، ١٤)

- حذر الذهبي من الخوض في العلماء دون سبب ، بقوله : والعاقل خصم نفسه ، ومن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه ، ولحوم العلماء مسمومة ، وما نقل من ذلك لتبيين غلط العالم، وكثرة وهمه ، أو نقص حفظه ، فليس من هذا النمط ، بل للتوضيح "(الذهبي ،٢٠٠١ ، ١٤)
- أوصى بضرورة سد الأبواب المؤدية إلى الخلافات والبغضاء بين العلماء ، ومن ذلك هجر الكتب والدواوين التي تذكر بعض الروايات – كذبا – : " وما زال يمر بنا في الدواوين والكتب والأجزاء ، ولكن أكثر ذلك منقطع وضعيف ، وبعضه كذب وهذا فيما بأيدينا وبين علمائنا ، فينبغي طيه وإخفاؤه ، بل إعدامه لتصفو القلوب ، وتتوفر على حب الصحابة ، والترضي عنهم، وكتمان ذلك متعين عن العامة وآحاد العلماء ، وقد يرخص في مطالعة ذلك خلوة للعالم المصنف العري من الهوى . (الذهبي ، ٢٠٠١ ، ١٤)
- ومن الأمور التي رأى أفضلية تركها ، المجادلة والمعارضة ، وخاصة فيما لا طائل تحته ، أو المؤدي إلى زرع الشحناء في النفوس وفي ذلك يقول في ترجمة شيخه ورفيقه المزي (ت ٧٤٢ هـ) شيخي ، ورفيقي ... كان يقرر طريقة السلف في السنة ، ويعضد ذلك

بمباحث نظرية وقواعد كلامية ، وجرى بيننا مجادلات ومعارضات في ذلك ...تركها أسلم وأولى " . (الذهبي ، ١٣٧٤هـ ،٥)

- استحب الشيخ أن يبادئ العالم زميله بالحديث إن رأى منه جفوة بسبب اختلافات بينهما ولذلك فقد أعجبه ما قام به الشافعي بعد مناظرته ليونس الصدفي (ت ٢٦٤هـ) ، حيث لقيه بعد افتراق ، فأخذ بيده قائلا يا أبا موسى . ألا يستقيم أن نكون أخواناً وإن لم نتفق في مسألة: فقال : – أي الذهبي – هذا يدل على كمال عقل هذا الإمام ، وفقه نفسه ، فما زال النظراء يختلفون .(الذهبي ، ٢٠٠١ ، ١٤) .
- رأى ضرورة احترام العلماء بعضهم بعضا ، واعترافهم بفضل بعض ، وتعاونهم ، ومن شواهد ذلك :

• استخدامه عبارات الاحترام والمحبة في وصفه لزميل له وهو عثمان بن يوسف النويري المالكي (ولد سنة ٦٧٣هـ) " أخي وحبيبي وشيخي ووداذي ، أحسن الله جزاءه ... محاسنه غزيرة ... وهو خيرٌ مني وأشد حباً لي في الله .." (الذهبي ، ١٩٨٨ ، ٢٥).

• تعليقه على مدح أحدهم لعبد الرزاق بن همام (ت ٢١١هـ) بقوله : " كان عبد الرزاق أعلمنا واحفظنا " قلت – أي الذهبي – هكذا كان النظراء يعترفون لأقرانهم بالحفظ " (الذهبي ، ٢٠٠١ ، ١٤)

• تعاونه مع صديقه أحمد بن محمد بن إسماعيل الحراني المقرئ (ت ٧٢٥هـ) حيث يقول: " حمل إليّ إجازاته ، فعملت له منها ما يكتب لتلاميذه " (الذهبي ، ١٩٩٧ ،١٦)

• إشاراته العديدة إلى تبادل الخدمات والتعاون بين العلماء ، حيث يجد له الباحث ألفاظاً عديدةً في هذا المجال – خاصة في كتابه المعجم المختص – مثل : كتب علي وكتبت عنه ، أفادني أشياء .

- رأى ضرورة أن لا يصل الاختلاف بين أهل العلم إلى حد الاقتتال ، ولذلك فقد وصف اقتتال بعضهم نصرة لشيوخهم بقوله : ما هؤلاء بأصحاب الحديث ، بل فجرة جهلة ، أبعد الله شرهم . (الذهبي ، ٢٠٠١ ، ١٤) .
- رأى أن إرضاء الناس غاية لا تدرك ، ولذلك لا يضر مع الأمانة ورضى الله شيء ، وفي ذلك شواهد :

- قال في معرض تعرض العلماء الكبار للانتقاد والكلام من أهـــل الفـــرق كـــالروافض والخوارج : " إذا كان مثل الفضيل (ت ١٨٦هـ) يتكلم فيه ، فمن الذي يسلم من ألســـنة الناس ، لكن إذا ثبتت إمامة الرجل وفضله ،لم يضره ما قيل فيه .(الذهبي ،٢٠٠١،١٤)
- قال معلقاً على قول أحدهم : ما رأيت أحدا يُعتمد عليه في دينه وعلمه وعقله راضياً [مرضيا]عنه، قال : " إذا رضي الله عنه ، فلا اعتبار بهم " (الذهبي ، ٢٠٠١ ، ١٤) .

الفصل الرابع

الأفكار التربوية للذهبي

بين الأصالة والمعاصرة

مقدمة :

من المعروف بداهة أن العلوم هي تراث أنسأني مشترك بين جميع البشر ، ويتعلق بهذا الأمر بعض الجوانب منها : أن من طبيعة العلم وخصائصه أنه قابل للتغيير أو التعديل أو تصحيح نفسه بنفسه ، وهذا يعني أن المعرفة دائمة النمو والتطور ولذلك فأن اكتفاء التربية في بعض المجتمعات بنقل الثقافة والعلوم كما هي من جيل إلى آخر دون تغيير أو تطوير سيؤدي حتماً إلى وجود نسخ متطابقة للأجيال مما يعني انتفاء التطور واستحالة التقدم ، حيث يشير بعضهم إلى " أن من سنن البناء الإجتماعي أن الجماعة التي لا تخطو إلى الإمام خطوة لا تكون فقط قد جمدت ، وإنما تكون تأخرت خطوة ، لأن الآخرين يخطون خطوة بل خطوات ، فتتسع الهوة ويزيد التخلف (علي ، ١٩٩٨) .

ويشهر في هذا السياق إلى حقائق هامة مفادها أن ثوابت الأمة المتعلقة بأمور دينها وأصوله وقواعده لا تخضع أبداً للتطوير أو التغيير ، كما أن العودة إلى فكر السلف ، وتصور تطبيق كامل ما جاء فيه من أمور الحياة في العصر الحاضر ، ويتنافى مع حتمية تطور المجتمعات وتغيرها باستمرار .

ومن الحقائق أن فكر أي أنسأن مهما بلغت منزلته العلمية يتصف دائماً بالقصور والضعف حيث لا يوجد فكر بشري كامل ، كما أن محاكمة فكر أي شخص لا يجوز أن تكون منفصلة عن الظروف التي عاشها ، والعوامل التي أثرت فيه كفرد في المجتمع ، إضافة إلى أن إسهامات الأفراد والجماعات العلمية مهما قلت ، وفي أي مرحلة من المراحل تعد بمثابة إضافات جديدة إلى الموجود سابقاً .

وانطلاقا مما سبق سيحاول الباحث في الصفحات القادمة تقديم أفكار الإمام الذهبي التربوية التي استخلصها من خلال استعراضه لما ورد منها في كتبه ومصنفاته ، في محاولة للإجابة عن بعض أسئلة الدراسة ومنها :

- ما المبادئ والأسس التربوية المتضمنة فكر الإمام الذهبي ؟
- بم تتفق أفكار الإمام التربوية مع الفكر التربوي في العصر الحاضر وبم يختلف عنه ؟
- ما إمكانية توظيف أفكار الإمام التربوية في هذا العصر ؟

ومما ينبه إليه الباحث هنا أنه قد فصّل خلال الفصلين السابقين في ذكر الشواهد على أفكار الإمام التربوية ، أما في هذا الفصل فسيعمل على تناول اللازم منها ولكن بصورة مجمله –منعاً للتكرار– لمقارنة ذلك مع الفكر في العصر الحاضر مع التنويه إلى أنه قد يذكر الشاهد مرة أخرى حيث يلزم .

الفكر التربوي للذهبي بين الأصالة والمعاصرة

تناول الباحث في الفصل الثاني من هذه الدراسة موضوع طبيعة العلم والعلوم في فكر الذهبي ، حيث بين أفكاره المتعلقة بجوانب الموضوع ، وفي هذا الفصل سيحاول الباحث مقارنة تلك الأفكار مع ما يماثلها أو يقترب من ذلك في العصر الحاضر من خلال ثلاثة محاور رئيسة هي : إلزامية التعليم ، وأهداف التربية والتعليم ، ثم أقسام العلوم وأصحابها .

أولاً : وجوب التعليم وإلزاميته في فكر الذهبي بين الأصالة والمعاصرة

حث الإسلام على طلب العلم وتحصيله ، وأوجب نشره وحذر من حجبه أو كتمانه ، يظهر هذا في أبرز مصادر الفكر الإسلامي وهي : القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ، ففي سبيل التشجيع على طلب العلم ميز سبحانه أهل العلم بقوله **{ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِين لا يَعْلَمُونَ إنما يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الألْبَابِ }**(الزمر : ٩) وبقوله **{ يَرْفَع اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِير}** (المجادلة : ١١).

كما أشار إلى ذلك ﷺ مبيناً أن معرفة الدين والتفقه فيه من كرم الله على عباده وتوفيقه لهم فقال : (من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين)(١) .

أما في مجال التحذير من كتمان العلم وعدم نشره فقد هدد سبحانه من يفعل ذلك باللعنة فقال **{ أن الَّذِين يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاه لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَـئِكَ يَلعَنُهُمُ اللّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ}** (البقرة : ١٥٩) وبين ﷺ خطورة الكتمان وعاقبته فقال من سئل عن علم فكتمه جاء يوم القيامة ملجماً بلجام من نار ، ومن قال في القرآن بغير ما يعلم جاء يوم القيامة ملجما بلجام من نار " (٢) .

(١) رواه البخاري ، كتاب العلم ، باب من يرد الله به خيراً ، حديث رقم ٧١ ، ١٩٧/١ .
(٢) رواه أبو داوود ، كتاب العلم ، باب كراهية منع العلم (٣٦٥٨) ص٥٥٤ ،والترمذي ، كتاب العلم عن رسول الله ﷺ ، باب ما جاء في كتمان العلم ، (٢٦٤٩) ص٥٩٧

وقد لاحظ الباحث أن أفكار الإمام في هذا المجال قد نبعت من فهمه لطبيعة هذا الموضوع المستمد من الخطاب المذكور أنفاً ، يظهر هذا في حثه على طلب العلم وتعليمه في محاولة لسد الفراغ الذي تركه غياب التعليم الرسمي العام في دولة المماليك حيث بين وجوب طلب العلم وفرضية ذلك وفضله في كثير من الأحيان على الانشغال بنوافل العبادات ، بخاصة لمن كان مجتهداً في العلم ومخلصاً في طلبه ، كما دعا إلى الاستمرار في الطلب طيلة الحياة وإلى الممات دون تقاعس أو كسل ، ووجه خطابه إلى العلماء والمعلمين مبيناً أن تعليم الطلبة والعوام هو من جوانب المعروف ، ومن أفضل ما يتقرب به العبد إلى الله ، وأشار إلى واجب الأسرة في هذا الموضوع .

ويشير الباحث في سياق ما سبق إلى أن كتمان العلم وعدم نشره سيؤدي إلى حصره في فئة من الناس يضيع ويختفي بموتهم ، بينما يؤدي تناقله إلى نشره بين الناس والإفادة منه في النهوض بالمجتمع ، كما أن نشر العلم وتعليم الآخرين يحتاج أن يكون صاحب ذلك على دراية وعلم ، وهذا لا يتم إلا بالتعلم والتعليم ، ولذلك فالقاعدة الشريعة تقول " أن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب " ،

ويضاف إلى ذلك أن كلا من طلب العلم ونشره يقوم به الفرد المسلم التزاما بأوامر الله وسعيا نحو كسب رضاه ، ويرى الباحث مما سبق أن موضوع وجوب طلب العلم وتعليمه قد يختلف في بعض جوانبه عما هو شائع حول مفهوم الإلزام في العصر الحاضر فمن المعروف أن عبارة " إلزامية التعليم " من العبارات الحديثة التي برزت في الفكر الحديث ، نتيجة لغلبة المؤسسات الديمقراطية ، وظهور مفاهيم العدالة والرفاهية الاجتماعية ، كما تأكدت – عالميا – بشكل واضح في الميثاق العالمي لحقوق الإنسان (مرسي ، ١٩٧٨) حيث أشارت المادة السادسة والعشرين من هذا الإعلان الذي صدر عن الأمم المتحدة في العاشر من كانون الأول سنة ١٩٤٨ ، وما تبعه من إعلان حقوق الطفل بصيغته النهائية في العشرين من تشرين ثاني سنة ١٩٥٩ إلى أن " لكل فرد الحق في التعليم ، الذي يشترط أن يكون مجانيا على الأقل في المرحلة الابتدائية والتعليم الأساسي ، وأن يكون التعليم الابتدائي إلزاميا "(شهلا ، وآخرون١٩٧٢) .

أي أن الدولة تتكفل بتوفير الفرص والإمكانات التعليمية للذين هم في سن الإلزام ، مع الطلب إلى المواطنين إلزام أطفالهم الإفادة من الفرص التعليمية الممنوحة لهم (التل ، وآخرون ، ١٩٩٣) .

ومن هنا يمكن تبين بعض جوانب الاختلاف بين المنهجين في الآتي :

- أن الوجوب والإلزام عند الذهبي ينبع من الدين والعقيدة ومما افترضه الله سبحانه على عباده المؤمنين ، بينما ينبع التعليم الإلزامي من قوانين الدول التي تلزم بها أفراد المجتمع .
- أن المتعلم ضمن المنهج الأول يعد نفسه في عبادة لله وهو يطلب العلم ، ولذلك فهو يجتهد فيه ، وينافس زملاءه على وفقه ، كما أن ولي الأمر سيلحق به الإثم أن أهمل تعليم من يكفلهم ، أما في المنهج الثاني فالتعليم حق للفرد ، قد يتنازل عنه ، أو يجبر على التنازل لأسباب عدة في حال غياب عين الرقيب – المتمثل في الدولة – التي لا يزيد عقابها على ذلك عن الغرامة أو التعزير ، مع وعد بالسماح للولد بالتعليم ، يسهل على ولي الأمر عدم تنفيذه بحجج كثيرة .

- أن الوجوب في المنهج الأول فريضة جماعية على المسلمين جميعا ، يعطى الفرد فيه حرية اختيار معلمه ومادة التعلم – كما سيأتي تفصيل ذلك لاحقاً – بينما هو في الآخر حقوق خاصة ترعاها الدولة ، والمتعلم فيها مجبر على منهج معين وفي ظروف معينة .

ولا يعني ما سبق انتقاص الباحث من فكرة الإلزام الشائعة ، بل أنه يعدها من مميزات هذا العصر في محاولة للقضاء على حالة اقتصار التعليم على فئات خاصة من المجتمع تسمح لهم الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية به ، وتحرم سواهم منه ، ولكن إذا أضيف إلى التربية في العصر الحاضر التركيز على مفهوم الوجوب في التربية الإسلامية فلا شك أنه سيكون لذلك أثر عظيم ، قد نرى من مظاهره انخفاض نسبة الهدر والتسرب وما شابه .

أهداف التربية والتعليم في فكر الإمام بين الأصالة والمعاصرة

تبين فيما سبق أهمية العلم ووجوب طلبه وتعليمه ، وهنا يثور السؤال ، ما الغرض من طلب العلم ؟ وما الأهداف التي يمكن تحقيقها من خلال ذلك ؟

نص العديد ممن تناولوا تاريخ التربية لدى الأمم والشعوب في العصور المختلفة ، أن طبيعة التربية تتأثر إلى حد كبير بشكل الحياة في المجتمع ، والعوامل الداخلية والخارجية التي تحكم مسيرته ، إضافة إلى المعتقدات والأفكار السائدة ، ومن هذا وغيره تتبع فلسفة المجتمع التي يشتق منها التربويون أهدافهم .

وإذا استعرض الباحث أغراض التربية والتعليم لدى الأمة الإسلامية يجد أن الغرض النهائي لها يتمثل في تحقيق العبودية لله سبحانه في حياة الفرد والمجتمع. قال تعالى : **{ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإنس إلا لِيَعْبُدُونِ }** (الذاريات : ٥٦) . ولا تقتصر العبادة على ابتغاء الدار الآخرة بحسب بل أنها تشمل أيضاً أخذ الإنسان بنصيبه من الدنيا **{ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنيَا }** (القصص:٧٧) ، والعبادة كهدف أسمى للتربية الإسلامية هي إيمان وعلم وخلق .(عبد الواسع ، ١٩٦٩) .

ولا يبتعد الذهبي عن هدف التربية العام في الإسلام ، ولا عن سبل تحقيقه ، بل أنه يفصل في بعض الأهداف التي تدور في فلكه ، ومن أبرز الأهداف العامة التي يمكن تلمسها في فكر هذا الإمام ، خشية الله وتقواه والسعي نحو إرضائه والعمل بالعلم وقطف ثمرته وطلب الرزق والكسب الحلال وطلب العلم للعلم ذاته ، ومحبة فيه .

وقد اشترط الذهبي لتحقيق الأهداف المذكورة ضرورة استحضار النية السليمة في جميع الأحوال ، أو تصحيحها أن كانت غير ذلك ، مع التحذير من عاقبة سوء النية ، أو حصرها في المنافع الدنيوية فحسب ، ومما أشار إليه الإمام في هذا المجال أن المسلم لا يتوقف عن طلب العلم حتى لو كان من غير نية ، لأن فطرته السليمة ونفسه الزكية التي تأبى الجهل ستقوده حتما إلى أن يعقد نيته في عمله ، وهذا لا يكون إلا بتوفيق الله تعالى .

وقد نوّه بعضهم إلى أن مما يتعرض له طلبة العلم ، دخول الشيطان عليهم من باب التشكيك في أعمالهم ، وأن الرياء يدخل فيها ، حيث يلاحظ أنهم يتوقفون عن طلب العلم أو تعليم الناس ووعظهم إذا وجدوا من يثني عليهم ، أو يعجب بهم كثيرا . (كرزون ، ١٩٩٦) .

ويرى الباحث أن بعض أهداف العلم لدى الذهبي قد تكون متضمنة لدى أصحاب التربية في العصر الحاضر الذين يضعون أهدافاً عامة يشتقونها من فلسفة التربية التي تنبثق عن دستور الدولة ، وتراثها ، وبعض المبادئ والتجارب الوطنية لديها[٢] ، فالذهبي وأن كان ذكر هذه الأهداف دون تفصيل كما هي في التربية الحاضرة ، إلا أن المتتبع لفكره يجد أن التفصيلات – التي سيتم تناولها لاحقا – مبثوثة في أماكن أخرى من شواهده ، التي تأتي تحت مواضيع مثل التربية الأخلاقية ، والتربية الصحية ، وتعليم اللغة ، وتنقيح العلوم .

وسيحاول الباحث إلقاء الضوء على أهداف الذهبي ومثيلاتها في التربية الحاضرة وهي :

* **تقوى الله وخشيته** : ينبع هذا الهدف من الفطرة السليمة التي فطر الله الإنسان عليها – قبل أن تؤثر فيها المؤثرات المختلفة – حيث ارتضى كل أنسان أن يكون عبدا لخالقه ، معترفا بربوبيته وألوهيته،ساعيا لإرضائه في كل أعماله وتصرفاته ، وفي كل الظروف والحالات ، من خلال إدراكه لمهامه وما يترتب عليها ، وبما يحقق فيه إنسانية الإنسان ، وليكون أنسأناً صالحاً مصلحاً في كل مظاهر حياته كما تسعى إلى ذلك التربية الإسلامية .

وإذا قارن الباحث هذا الهدف مع ما يماثله في التربية في العصر الحاضر ، فأنه يجد أن هدف التقوى لا يشار إليه صراحة إلا في مناهج التربية الإسلامية التي تحاول أن تبين علاقة الإنسان بالكون والحياة منطلقة من فطرته التي فطره الله عليها ، أما عدا ذلك فالإشارة إليه ضعيفة وهذا يمثل فصلاً بين العلوم الدينية وغيرها قد يجعل الإنسان حائراً قلقاً مشوش الأفكار حول مهمته في الوجود ، والصحيح أن تعمل التربية على إثبات هذا الهدف في نفوس التلاميذ في كل جوانب المعرفة التي يتلقونها أو يعملون بها ، إضافة إلى التركيز على أن يكون لكل متعلم هدفاً أو أهدافاً خاصة يسعى لتحقيقها على بصيرة وهدى وإذا أنتقل الحديث إلى مقارنة هدف التقوى المتصل بإيجاد الإنسان الصالح المتقي المصلح مع أبرز ما تهدف إليه التربية الحاضرة وهو تنشئة المواطن الصالح يجد الباحث أن الهدف الأخير كما أشار عبد الله (١٩٩٦) قد برز في أوروبا بظهور الدولة الألمانية في القرن التاسع عشر ، حيث رغبت الدولة في

---

(٢) أنظر مثالا على ذلك فلسفة التربية وأهدافها في الأردن ، عبيدات والرشدان : التربية والتعليم في الأردن من عام ١٩٢١– ١٩٩٣ ص ٥٢– ٥٤

المحافظة على مكاسبها السياسية ، فوجدت في التربية ضالتها المنشودة ، ولهذا حلت فيها – وفي الدول إلا وروبية الآخر فيما بعد – النزعة القومية محل النزعة الإنسانية ، والديانة النصرانية ، وفي ظل هذا النظام أصبحت الكفاءة الاجتماعية مرتبطة بمصالح الدولة ، وأصبحت التربية أداة لإخضاع الفرد للدولة .

ويرى عبد الله (١٩٩٦) أن المواطنة الصالحة لها وجه خير وآخر منتقد ، أما الخيّر ، فلا يكره أن يكون الأفراد في كل مجتمع من المجتمعات مواطنين صالحين ، يعتز الواحد منهم بانتمائه لمجتمعه ، ويحرص على تقدمه ، ويضحي بنفسه دفاعا عن القيم الاجتماعية التي يؤمن بها ، فالمواطنة الصالحة تضمن للمجتمع الواحد تآلف أفراده ، وتعاونهم ، وحرصهم على تقدمه وازدهاره .

أما الانتقادات التي توجه إلى هذا المفهوم فمنها : أنه مصطلح غامض غير محدود ، وتتراوح الصفات الدالة عليه بين طيب المعشر ، والوعي السياسي ، ومن الانتقادات أيضا أن المواطنة الصالحة ترتبط بوطن معين ، وقد يكون من المبادئ التي يؤمن بها مجتمع معين تدمير المجتمع المجاور بصرف النظر عن أي نوع من القيم عندئذ يصبح التزام المواطن بشريعة الغاب صفة من صفات المواطنة الصالحة ، ومعنى هذا أن القيم المرتبطة بهذا المفهوم قد تختلف من بلد إلى آخر ، بل قد تتغير داخل المجتمع الواحد نتيجة التغيرات السياسية.

وأبرز الانتقادات التي توجه إلى هذا المفهوم ، هيمنة الدولة على التربية ، وقد يؤدي حرص الدولة على طبع أفراد المجتمع بطابع معين إلى تزييف الحقائق التاريخية ، أو الاجتماعية ، وإلى قتل روح النقد ، إذ من السهل اتهام المنتقدين بالخيانة ، وفي مثل هذه الأجواء يصبح شغل التربية الشاغل تبرير ما تقوم به القيادة السياسية وغرس روح فلانقياد الأعمى للقائد الملهم الذي لا يخطئ أبدا (عبد الله ، ١٩٩٦) .

ويرى الباحث مما سبق أن هدف التربية الإسلامية أقرب إلى مفهوم الإنسانية ، فالتقوى والخشية تمنع أن المسلم من فلاعتداء على حق أخيه الإنسان ، بل تطلب أن منه أن يحسن إليه ،قال تعالى **{ لا يَنْهَاكُم الله عَن اللذِينَ لَم يُقاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ ولَمْ يُخرجوكُم مِن دياركُم أن تَبَروهُم وتُقسِطوا إليهم أن الله يُحِب المُقسِطين }** (الممتحنة : ٨)

* **كسب الرزق :** اشترط الذهبي أن يهدف الإنسان من ورائه إلى توفير القوت الحلال لأهله ، وما يساعده في إكمال طلبه للعلم وتحصيل المعرفة ، وأن يتوج ذلك كله حسن النية .

وهذا الهدف يتفق مع طلب الشريعة من العباد أن يسعوا في الأرض طالبين الرزق الحلال ، قال تعالى **{ هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور }** (الملك:١٥)

أما في التربية الحاضرة فقد تمثلت أزمة هذا الهدف في الآتي :

– جعل الناس يتهافتون على العمل ، حتى صار أفراد كل شعب كانهم آلات في معمل كبير، يسيرهم حكامهم أو كبار أغنيائهم لتحقيق هدف الإنتاج المادي ، غير شاعرين بإنسانيتهم ورسالتهم في هذه الحياة ، ولا يعرفون لماذا يعملون ؟!(النحلاوي ،١٩٨٢).

– زعم بعضهم أن الغرض من التربية المدرسية هو إعداد الطفل للعيش والربح بعد أن يغادر المدرسة ، فهم يربون أولادهم ليربحوا أكثر ، فكان الأمر عملية تجارية ، وقد زينت لهم هذه الفكرة دفع أولادهم ليتعلموا ما لا يوافق مؤهلاتهم ورغباتهم ، فتكون النتيجة في النهاية الفشل وضياع الزمن (وافي ، وآخرون ، ١٩٥٥) .

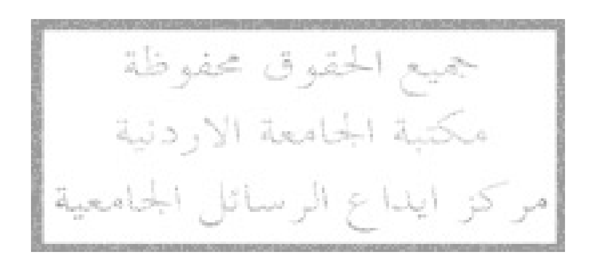
– ولا يخفى على كل مهتم ما يذهب إليه بعض أولياء الأمور – لسبب أو لآخر– في عصرنا– خاصة في الدول النامية – من الاعتقاد بعدم جدوى التوسع في العلم وطلبه ، ولذا فهم يكتفون بالتعليم الابتدائي أو بجزء منه ، ويخرجون ابناءهم من المدارس – في غياب عين الرقيب الأرضي – بحجة أن صنعة آبائهم أفضل ، والكسب فيها مضمون بعكس لو أرهق نفسه في طلب العلم وتخرج موظفاً ينتظر وظيفة لا تدر عليه إلا القليل ، أي كان هدفهم من تعليم من يعولون (أن يفكوا الحرف) كما يقولون ، ليساعدهم في بعض ما يحتاجون ، وهم يطلبون الكسب وهذه الرؤيا تتعارض مع ما كان ينظر إليه –إلى وقت قريب– نحو العلم بأنه سبيل للرقي في السلم فلاجتماعي ولا شك أن هذا يعود إلى الثقافة التي يحملها الآباء في تعاملهم مع ابنائهم .

ويرى الباحث أن كسب الرزق والعيش في بحبوحة هو من حق كل فرد لكن أن يتحول هدف الإنسان إلى أن يعيش حياته لكسب الرزق فقط ، بغض النظر عن الأسلوب شرعياً كان أم غير شرعي ، فهذا هو المرفوض ، ومن هنا فأن الدولة معنية في السعي نحو تقديم التسهيلات التي لا تجعل الفقر والحاجة يقفان حجر عثرة في وجه التعليم – خاصة في سن الإلزام – هذا بالنسبة للطالب ، أما المعلم فالمطلوب توفير الحياة الكريمة التي تسعل له العطاء أكثر .

* **العمل بالعلم وقطف ثمرته** : ويعد هذا الهدف من أبرز ما تهدف إليه التربية قديماً وحديثاً بحيث يكون العلم وظيفياً وينعكس إيجاباً على حياة الأفراد في كافة أوجه حياتهم ، وسيتم التوسع في هذا الموضوع خلال الحديث عن مبدأ العلم والعمل به .

* **طلب العلم لذاته ومحبة فيه** : أشار الذهبي إلى هذا الهدف مبيناً أن الإنسان يسعى إليه ليقي نفسه الجهل الذي تأباه النفوس الزكية والفطر الذكية ، بحيث يتحول مع طول التواصل والألفة معه إلى أن يصبح عادة يحبها ولا ينفك عنها .

ويعتقد الباحث أن هذا الهدف هو مما تسعى إليه التربية الحديثة بحيث يحب المتعلم علمه ويتفانى فيه .



أقسام العلوم وأصحابها في فكر الإمام الذهبي
بين الأصالة والمعاصرة

أشار الباحث سابقا إلى أن الذهبي صنف العلوم – من وجهة نظره – على النحو التالي :

- التصنيف وفق الأحكام التكليفية (فرض ، ومستحب ، ومباح ، ومكروه ، وحرام) .
- التصنيف وفق نفع العلوم وضررها .
- ويتصل بهذين التصنيفين ، نشر العلوم من عدمه ، ثم ما يتعلق بترتيبها وفق الأولويات.

ويمكن للمتأمل في هذا التقسيم أن يستخرج المنهاج التعليمي ، والعلوم التي ركز عليها الذهبي ، ودعا إليها ، وهي :

* **العلوم الدينية والشرعية وفروعها وهي :** القرآن الكريم وما يتعلق به من القراءات والتفسير ، والحديث النبوي الشريف ، وعلم الفقه ، وعلم الفرائض والمواريث ، والسيرة النبوية الشريفة ، والمغازي وسير الخلفاء ، وعلم الجرح والتعديل ، وعلم أصول الدين .

* **علوم العربية وما يتعلق بها وهي :** اللغة، والنحو ، والشعر ، وإلا نشاء ، وعلم الوعظ

* **الداب والعلوم الأخرى مثل :**الطب والعلوم الصحية : النفسية والجسمية ، ومعرفة تاريخ العالم ، والحساب والهندسة ، والعلوم الطبيعية .

وقد نص الذهبي على ضرورة البدء بالقرآن الكريم ، ثم الحديث النبوي الشريف ، وينتقل بعدها المتعلم إلى المستحبات ، فالمباحات .

أما العلوم التي نص على كراهتها وحرمتها فهي : السحر ، والكيمياء ، والسيمياء ، والطيرة ، والشعبذة ، والتنجيم ، والرمل ، وعلم المنطق ، والفلسفة ، والنجوم ، والموسيقى ، وعلم الكلام المذموم .

ويبدو أن تقسيم الذهبي للعلوم على هذا النحو أنطلق من عقيدته السلفية التي تدعو إلى التمسك بالدين الصحيح ، ونبذ الخرافات والجهل ، ولعل الاضطرابات السياسية كانت لها آثارها في هذا التقسيم وبخاصة أن الإنسان يلجأ عادة في مثل هذه الظروف إلى تمتين صلته بالله تعالى .

ويمكن إجمال أفكار الإمام حول العلوم وتقسيماتها وموقفه من كل منها كما برز في رسالتيه : زغل العلم ، ومسائل في طلب العلم وأقسامه بالآتي :

- طلب العلوم المتعلقة بفروض العين ، واجب على كل مسلم ومسلمة ، ثم يليها فروض

الكفاية، فالمستحبات ، والمباحات ، كلٌ حسب دوره ومركزه .

- تكون الأولويات في الطلب حسب المتعلم ، وحاجته ، وما يلزمه مما يتصل مباشرة بظروف عمله ، أو العبادة التي يريد تأديتها كالحج ، أو الزكاة .
- الاستعانة بالله حين الطلب لازمة لكل من المعلم والمتعلم .
- هناك علوم تنعكس مباشرة على الفرد ، ومن خلال تمثله لها يحقق بعض الأهداف ، ومنها : الطمأنينة والارتياح ، ثم الكسب وقبول الناس له ، وإنزاله المنزلة التي تليق به، مثل : مدى تمكنه من القرآن وعلومه ، أو الحديث وما يتعلق به .
- هناك علوم نافعة للمجتمع يلزم العمل بها ضمن شروط من أبرزها النية الصالحة ، ومنها : الطب ، والنحو ، والحساب .
- العلوم النافعة هي مما يلزم نشره وتعليمه للناس .
- العلوم الضارة التي لا نفع فيها يحرم تعلمها ، أو نشرها .
- لكل علم من علوم عصره منافع ومضار ، بعضها كامل النفع ، وبعضها لا نفع فيه ، وبعضها له ظروفه وشروطه .

وبناء على ما سبق سيحاول الباحث في الصفحات القادمة تناول علوم عصر الإمام ومجمل موقفه من كل منها ، ثم مقارنة ذلك مع الفكر التربوي في العصر الحاضر في سياق الإجابة عن أحد أسئلة الدراسة : بم تتفق أفكار الإمام التربوية مع الفكر التربوي في العصر الحاضر وبم تختلف عنه ؟؟

علم القراءات (القراءة والتجويد) : وهو من العلوم التي يختص بها المسلمون دون غيرهم من أصحاب الديانات الآخر، لذا فهو يعد من أشرف العلوم لتعلقه بالقرآن الكريم دستور الأمه الذي بتحكيمه تسعد ، وبنبذه تشقى ، وقد أفرد الباحث الحديث عنه لخصوصية تعلقه المباشر بكتاب الله سبحانه .

وقد كان من أبرز تعليقات الإمام على بعض العاملين في هذا العلم : اهتمام بعضهم بتجويد القراءة على حساب تدبر المعنى ، وعدم الخشوع في أثناء التلاوة ، إضافة إلى الغرور الذي أصاب بعضهم مما جعلهم يتكبرون على الآخرين مزدرين ما حصلوه في هذا المجال .

وتأتي تعليقات الذهبي تلك عن دراية وعلم ، فقد قضى فترة من حياته طالبا لهذا العلم ومؤلفا فبه ، فحاشاه أن يكون قصده من انتقاده تثبيط عزائم المشتغلين بهذا العلم ، بخاصة وهو

يعرف أن الله سبحانه قد دعا إلى إحسان تلاوة القرآن بقوله : **{ ورتل القرآن ترتيلا }** (المزمل :٤) كما أن النبي ﷺ قال فيما يرويه ابو هريرة – رضي الله عنه – (لم يأذن الله لشيء ما اذن لنبي أن يتغنى بالقرآن) ، وقد ورد في تفسير كلمة يتغنى أنها تعنى تحسين الصوت [١] .

وقد لاحظ الباحث أن أنتقادات الذهبي لسلوكات بعض القراء قد نبه إليها غير واحد من اهل هذا العلم حديثا ، فقد اشار صقر (١٣٩٦ هـ) منتقدا استغلال فريق من الناس رخصة القراءات حتى صار بعضهم نوعا من الفنأنين له جمهور معجب باللحن والحنجرة الذهبية ، لا يبالي بالمعنى ولا باداب التلاوة ، إنما هو الهتاف والطرب ، ومن وراء ذلك الغفلة والعصيأن ، كما أن بعض المعنيين في هذا المجال وضعوا بعض القواعد والآداب [٢] التي يجب أن يتحلى بها قاريء القرآن وقد اشتقوا تلك القواعد من سنة المصطفى ﷺ واقوال بعض اهل العلم قديما .

ويضيف الباحث هنا أن تعاون المدارس مع المساجد في هذا العلم بطريقة مخططة قد يؤدي إلى نتائج باهرة .

علوم الحديث ، والفقه ، والتفسير ، وأصول الدين : وهذه أيضا من علوم المسلمين المتعلقة بأمور دينهم ، وقد رأى الباحث تناولها معا لصلتها بعضها ببعض ، ولتشابه الانتقادات الموجهة إليها ، ومن ذلك : ضعف الخلاص في النية ، وسوء التمثل بآداب العلم ، وكثرة المراء والجدل ، وضعف ارتباط العلم بالعمل ، وسوء اختيار المعلم ، وقد نوقشت بعض هذه الأمور مسبقا ، وسيتم مناقشة الباقي كل في موضعه.

أما ما يتعلق بالتفسير فقد عاب الذهبي قلة الاعتناء به ، في عصره ، كما عاب اشتغال بعضهم في تفاسير تحتوي – كما يعتقد – إشكالات وتشكيكات تؤثر على القارئ سلبا ، ومنها تفسير الرازي .

---

(١) رواه البخاري ، كتاب فضائل القرآن ، باب من لم يتغنى بالقرآن ، حديث رقم ٥٠٢٣ ، ٦٨٦/٨ .
(٢) أنظر : النووي ,التبيان في آداب حملة القرآن وعبد الرحمن حبنكة الميدأني , قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل .

وقد لاحظ الباحث ما يتعارض مع دقة كلام الذهبي حول الاعتناء بالتفسير ، فقد ظهر في القرنين السابع والثامن الهجريين – عصر الإمام – عدد لا بأس به من كتب التفسير إضافة إلى كتاب مفاتح الغيب للفخر الرازي (ت ٦٠٦ هـ) مثل الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (ت ٦٧١ هـ) والبحر المحيط لابن حبان (ت ٧٤٥ هـ) وتفسير القرآن العظيم لابن كثير (ت ٧٧٤ هـ) [١] .

وهذا العدد –لاشك– يدل على وجود الاهتمام بهذا العلم ، ويبدو أن الذهبي قال هذا في معرض استنهاضه لمزيد من العناية بالتفسير ، بخاصة المعروف منه بالتفسير المأثور ، وهو الأقرب إلى العقيدة السلفية .

ولعل انتقاد الذهبي لهذا التفسير يعود إلى غلبة النزعة الكلامية عليه ، حتى لا يخلو منه تحليل لأي آية من آيات الكتاب العزيز ، إضافة إلى ما ورد فيه من كلام حول إرادة الله وأفعاله، وقدرته ومشيئته ، والتكليف وأفعال العباد ، وكلام الله ، والتشبيه والتجسيم[٢] ومن المعروف أن الذهبي كان يقف موقفاً مناهضاً من علم الكلام شأنه كمعظم أصحاب الفكر السلفي ، وينبه الذهبي إلى قضية مهمة في التفسير وهي وجود أكثر من قول لتفسير الآية الواحدة ، حيث يضيع الحق بينها ، وبالتالي التباس الأمر على العامة[٣] .

ويرى الباحث أن هذه القضية ما زالت قائمة بسبب اختلاف المفسرين في فهم ما ترمي إليه الآيات ، أو اختلاف مصادرهم في التفسير ، أو حتى المذهبية لدى بعضهم[٤] .

ومن القضايا التي نبّه إليها الذهبي خلال حديثه حول كل من " علم أصول الدين " وأصول الفقه ، والحديث . ضرورة ابتعاد المسلمين عن المسائل المختلف فيها بشكل كبير ،

---

(١) أنظر : محمود بسيوني فوده ، نشأة التفسير ومناهجه .
(٢) أنظر : عبد العزيز المجدوب , الرازي من خلال تفسيره .
(٣) لم يعط الذهبي حلاً للمشكلة , بل ترك القارئ حائراً وبالرجوع إلى مقدمة تفسير القرآن العظيم لابن كثير (ت ٧٧٤ هـ) وجد الباحث ما يمكن أن يكون جواباً أو حلاً للقضية حيث قال ابن كثير : فأن قال قائل فما أحسن طرق التفسير فالجواب أن أصح الطريق أن يفسر القرآن بالقرآن ... فأن أعياك ذلك فعليك بالسنة فأنها شارحة للقرآن وموضحة له فإذا لم تجد رجعت إلى أقوال الصحابة فأنهم أدرى بذلك لما شاهدوا من القرائن والأحوال التي اختصوا بها ولما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح والعمل الصالح فإذا لم تجد التفسير في القرآن ولا في السنة ولا وجدته عن الصحابة فقد رجع كثير من الأمة في ذلك إلى أقوال التابعين و ... ص٣-٨
(٤) أنظر : محمود بسيوني فودة , نشأة التفسير ومناهجه في ضوء المذاهب الإسلامية .

والتي يورث العمل بها الضغائن في النفوس ، حتى يصل الأمر إلى حد التكفير ، أو الاقتتال الدموي ، إضافة إلى ما يسببه التعصب المذهبي من نتائج مشابهة .

ورغم المحاولات التي يقوم بها القائمون على المناهج في بعض البلاد الإسلامية من خلال وضع مقررات تحاول فيها الابتعاد عن التناقض في الآراء الفقهية ، ومراعاة التيسير على الناس ورفع الحرج عنهم[1] ، إلا أن الباحث يلمس أن القضية ما زالت متجذرة لدى بعض الأفراد والجماعات ، حيث يزيد الأمر عن حدّه في بعض الظروف والحالات .

علم اللغة : يرى الذهبي أن إتقان اللغة هو شرط أساسي لمعظم المشتغلين بعلوم الدين ، فاللغة يحتاجها المفسر ، والمقرئ ، والفقيه ، والمحدث ، حيث أن ضعف اللغة يؤدي إلى ضعف الخطاب .

ويلمس الباحث من كلام الذهبي أن ضعف اللغة عند هذه الطائفة من الناس سيؤدي حتما إلى انقطاع الصلة بالقرآن الكريم ، فالعلوم المذكورة نابعة منه ، ومفسرة لمحتواه . ولعل هذا هو ما يهدف إليه القائمون على الحملة على اللغة في عصرنا الحاضر ، حيث يقول العقاد :" أن الحملة على اللغة في الأقطار الآخر إنما هي حملة على لسانها أو على أدبها وثمرات تفكيرها على أبعد الاحتمال ، ولكن الحملة على لغتنا نحن ، حملة على كل شيء يعنينا ، وعلى كل تقليد من تقاليدنا الاجتماعية والدينية وعلى اللسان والفكر والضمير في ضربة واحدة ؛ لأن زوال اللغة في أكثر الأمم يبقيها بجميع مقوماتها غير ألفاظها ، ولكن زوال اللغة العربية لا يبقي للعربي أو المسلم قواما يميزه عن سائر الأقوام ، ولا يعصمه أن يذوب في غمار الأمم فلا تبقى له باقية من بيان ولا عرف ولا معرفة ولا إيمان " (أمين ، ١٩٦٥) .

ويقول أحدهم " أن ثقافة كل أمة كامنة في لغتها ، فاللغة هي أبرز السمات الثقافية ، وما من حضارة إنسانية إلا وصحبتها نهضة لغوية (علي ، ٢٠٠١) .

ويلاحظ الباحث بأن القائمين على المناهج في العصر الحاضر يولون اللغة العربية اهتماما كبيرا في المناهج والمقررات التي يضعونها للطلبة إلا أن هناك بعض العوامل التي تحول دون إتقانها ومن ذلك :

---

(١) أنظر : منهاج التربية الإسلامية وخطوطه العريضة – الأردن – المواصفات العامة لكتب التربية الإسلامية .

– اختلاف اللغة المحكية سواء في البيت ، أو الشارع ، أو وسائل الإعلام عن اللغة الفصيحة .

– ضعف المعلمين أنفسهم في اللغة العربية ، وميلهم إلى التحدث بالعامية في أثناء التدريس.

علم الحساب : أشار الذهبي إلى أن هذا العلم ليس من علوم الإسلام ، بل من علوم القبط والفرس ، مبيناً أن الاشتغال بهذا العلم يعد صنعة تعود على صاحبها بالنفع في الدنيا ، ولكنه اشترط ضرورة تقوى الله في أثناء العمل والأمانة خاصة فيما يتعلق بالحساب المتعلق بالصدقات، ومال الأوقاف والمدارس .

ويستدرك الذهبي في موقع آخر خلال تفسيره لقوله ﷺ " **أنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب** "[1] فيقول : لقد صدق الرسول ﷺ في إخباره بذلك إذ الحكم للغالب ، فنفى عنه وعن أمته الكتابة والحساب لندرة ذلك فيهم وقلته ، وإلا فقد كان فيهم كتاب الوحي وغير ذلك ، وكان فيهم من يحسب قال تعالى **{ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ }** (الإسراء:١٢) .

ويضيف أيضاً " وهو عليه السلام نفى عن الأمة الحساب ، فعلمنا أن المنفي كمال علم ذلك ودقائقه التي يحيط بها القبط والأوائل ، فأن ذلك ما لم يحتج إليه دين الإسلام ولله الحمد ، فأن القبط عمقوا في الحساب والجبر ، وأشياء تضيع الزمان ، وأرباب الهيئة تكلموا في سير النجوم والشمس والقمر والكسوف والقرآن بأمور طويلة لم يأت بها الشرع ، فلما ذكر النبي ﷺ الشهور ومعرفتها بين أن معرفتها ليست بالطرق التي يفعلها المنجم وأصحاب التقويم ، وأن ذلك لا نعبأ به في ديننا ، ولا نحسب الشهر بذلك أبدا، ثم بين أن الشهر يثبت بالرؤية فقط ، فتكون تسعا وعشرين أو بتكملة الثلاثين ، فلا نحتاج مع الثلاثين إلى تكلف رؤية " (الذهبي، ٢٠٠١، ١٤) .

ويقول في موقع آخر : وقوله عليه السلام " لا نحسب" حق ، ومع هذا فقد كان يعرف السنين والحساب ، وقسّم الفيء ، وقسمة المواريث بالحساب العربي الفطري ، لا بحساب القبط ولا الجبر والمقابلة .(الذهبي ، ٢٠٠١ ، ١٤) .

---

(١) رواه مسلم ، كتاب الصيام ، باب وجوب صوم رمضان ،١٩٢/٧ ، والبخاري ، كتاب الصوم ،باب قول النبي ﷺ لا نكتب ولا نحسب (١٩١٣) ١٥١/٤

ويلاحظ الباحث من النصوص السابقة ما يلي :

- تفريق الذهبي بين مفهوم الحساب العربي الفطري ، ومفهومه عند القبط والفرس ومن تأثر بهم وبخاصة المتعلق بحسابات النجوم ، وتحديد دخول الأشهر، والجبر، والمقابلة .
- لم يرفض الذهبي العمل في علم الحساب إلا بقدر تعارضه مع الأمور النقلية ، بل أنه أشار إلى أنه من العلوم التي يحتاج إليها ، ويكتسب الناس من خلالها ، وقد وضع لذلك شروطا من أهمها : الأمانة ، وتقوى الله سبحانه وتعالى .

وقد وجد الباحث في مواقع أخرى أن الإمام قد عدّ هذا العلم من علوم الحكمة الرياضية التي لا يرفضها كما يرفض الفلسفة الإلهية فقال : " الحكمة الرياضية فيها حق من طبائع هندسية وحساب ونحو ذلك ، ولكنه بين أن المرء فيها لا يؤجر ولا يحاسب .!! وهذا مما يثير التساؤلات ." كيف يرى الذهبي أن من أهداف العلم كسب الرزق . وأن الحساب من العلوم النافعة والجائز العمل بها ، ثم يقول : أنه من العلوم التي لا يثاب عليها المرء ولا يعاقب إلا في الأسباب الموجبة للعقاب ؟!!

وإذا كان هذا الأمر هو المشهور من آراء الإمام ، فقد وجد الباحث أن الأمر ربما يكون متعلقا بالنية ، فهو يقول معقبا في موضع آخر وحول هذه العلوم "أنها صنعة بلا ثواب ولا عقاب إذا كان صاحبها سليم الاعتقاد عادلاً خيراً – كما رأينا جماعة منهم– وقد يثاب الرجل على تعليمها بالنية أن شاء الله تعالى " (الذهبي ، ١٤٠٤هـ ، ١٢) .

وبغض النظر عن حكم الإمام على هذه العلوم ، والظروف التي أحاطت بذلك ، إلا أن الباحث يرى أن هذا العلم وغيره من العلوم كالطب والهندسة هي من العلوم النافعة للمسلمين ، وقد بدا واضحاً في العصر الحاضر مقدار النفع والقيمة لها في كثير من مجالات الحياة .

علم النجوم : قال تعالى مبينا بعض حكمته من خلق النجوم **{ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُم النُّجُومَ لِتَهتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ البَرِ وَالبَحرِ}** (الأنعام : ٩٧) وقال سبحانه **{ وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ }** (النحل : ١٦) .

وقد تناول الذهبي هذا العلم فأنتقد ما يقوم به بعضهم من أفعال التنجيم المقترنة بالجهل والخرافات والصادرة عنها مبينا أن الجهل أفضل من هذا العلم ولذلك فقد صنفه ضمن العلوم الباطلة التي تؤذي المرء في دينه وتضلله .

ويرى الباحث أن هذا العلم قد نال حظاً من الدراسة من قبل علماء المسلمين وباحثيهم ، حيث بينوا صحيحه من باطله[١] . ومن هنا فالباحث يعتقد أن الانتقاد الوارد في كلام الذهبي لهذا العلم إنما المقصود به تلك الأعمال التي يقوم بها بعض المنجمين من فلادعاء بمعرفة الغيب والاستدلال بحركة البروج الفلكية على طبائع الناس ، وادعاء معرفة حظوظهم ،من خلال عمليات حسابية.

أما معرفة أحوال الشمس والقمر وغيرها من النجوم والكواكب ، والاستدلال بانتقال الشمس في البروج الفلكية على تغيير الفصول كالحر والبرد ولاعتدال ، ثم معرفة مواقع النجوم والاستدلال من خلالها على الاتجاهات والمواقيت ، فهذا مما لم يرده العلماء شرعاً (القنوجي، ١٩٧٨) . ولذلك فالباحث يجزم أن عقيدة الذهبي ، وما عرف عنه من الانتصار للدين والدفاع عنه ، إلى جانب التمسك بالكتاب والسنة ، تمنعه من تحريم ما أمر الله به .

ويلاحظ الباحث أن هذا العلم قد اتخذ الشكلين السابقين حتى في العصر الحاضر، فلا يزال العلماء يستفيدون من علم النجوم والفلك في عمليات التنبؤ بأحوال الجو ، وحركة النجوم والكواكب ورصدها وما شابه ، ويرافق ذلك انتشار التنجيم والاستدلال بالبروج على حظوظ الناس – وما يرافق ذلك من ادعاءات وكذب – وللأسف فهذا لانتشار تخدمه وسائل الإعلام المسموعة والمقروءة والمرئية ؟!!!

علوم المنطق والحكمة والفلسفة الإلهية : من المعروف أن هذه العلوم كانت من ثمرات حركة الترجمة التي بدأت في العصر العباسي أيام المنصور وازدهرت في عصر المأمون . إذ تم ترجمة العديد من كتب اليونان وغيرهم .

ومن الملاحظ أن نظرة المسلمين إلى هذه العلوم كانت متفاوتة بين التأييد والمعارضة ، حيث دارت بين كلا الطرفين سجالات ، حفظتها الكتب كتلك التي كانت بين الغزالي وابن رشد

والمستعرض لأفكار الذهبي حول الموضوع يجد أنه لم يفعل إلا ما يمليه عليه إيمانه بعقيدته وفكره . فهو قد قال بحرمة علوم الحكمة المتعلقة بالفلسفة التلهية منطلقا من اعتقاده بتأثيرها على سلامة العقيدة .

ومن الجدير بالذكر أن معارك الخصوم حول مواضيع الكلام والمنطق والفلسفة ما تزال

(١) أنظر : عبد المجيد بن سالم المشعبي , التنجيم والمنجمون وحكم ذلك في الإسلام .

قائمة حتى في العصر الحاضر ، فبينما يُتَّهم معارضو هذه العلوم بالجمود الفكري والاستبداد بأمر التفكير ، والتنديد بالاجتهادات العقلية (علي ، ١٩٨٧) فأن هؤلاء يردون بأن أهل السنة لم يهملوا العقل ولم يعطلوه ، وإنما رأوا أن له حداً يقف عنده ، حيث أن الله لم يمنح العقـــل القدرة على معرفة بعض الأمور كالغيبيات . وكنه الله وصفاته ، وهذا لا يعني الجمود . كما أنهم في نظرتهم إلى الفلسفة يرون أن التوحيد السليم والعقيدة الصحيحة تغني عن الفلسفة التي هي عبارة عن فروض مقترحة ، تجيء فروض أخرى مضادة لها فتختلعها ، وهكذا فلا شيء يثبت للبحث ، إضافة إلى ما وقع فيه العاملون في هذا العلم من الدخول في مواضيع تبحث في كنه الله وجوهره وهو ما لا يستطاع الوصول إلى حقيقته ، فالله سبحانه يقول على لسان نبيه ﷺ " **تفكروا في خلقي ولا تفكروا في ذاتي** " [(١)] . ومن انتقادات المعارضين قولهم أن الفلسفة اليونانية ، أو الفلسفة الشرقية (مجوسية وهندية) إنما تمثل خصائص عقليات أمم أخرى تباين العقلية الإسلامية ، فلها قيمها ، وذاتيتها التي تستمد منها حضارتها فإذا تم التسليم بمنطق هؤلاء، فهذا يعني قيام أحكام عامة تهدم ما بناه المسلمون من أحكام لا سيما في نطاق الإلهيات كما يقول ابن تيمية (الجندي ، ١٩٧٨) .

ويضيف الجندي (١٩٨٢) أن هذه العلوم كانت نذير سوء وطالع شؤم على الأمة الإسلامية ، حيث خسر المسلمون بالفلسفة عقيدة الإيمان الفطري ، وقوة الاعتقاد النقي ، مع شيوع الشك ، والنحل المتعارضة ، وظهور الفرق التي كادت تؤلف بآرائها وعقائدها أديانا جديدة ، جلبت النكبات ، وأوغرت الصدور ، واستنزفت الأموال والدماء .

ويتبين الباحث مما سبق أن حقيقة الخلاف تعود إلى موضوع بحث الأمور المتعلقة بالفلسفة الإلهية وكنه الوجود من عدمه ، وهو يميل إلى رأي أهل السلف في هذا الأمر بالذات ، لأن الله سبحانه قد عرفنا بذاته وصفاته ووجوده بشكل عام ، فإذا حاول الإنسان التوسع في هذا الأمر معتمداً العقل فحسب دون الاستناد إلى مصادر شرعية سليمة فأنه سيضيع ، بخاصة والعقل الإنساني لا يعد كاملاً ، وهو قاصر عن الإحاطة بذلك ، كما أن بحث مثل هذه الأمور – بخاصة إذا دخل فيها ضعاف الإيمان والعقيدة أو المتأثرين بأفكار وعقائد أخرى – ستكون له نتائج خطيرة على عقيدة أبناء المسلمين ، وهذا ليس من باب الحجر على العقول ، فالمجال

---

(١) لم يعثر الباحث على حديث بهذا النص بل وجد (تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في الله) الطبراني ، المعجم الأوسط حديث رقم (٦٣١٩) .

مفتوح بحرية وبشكل كبير للعقل في الفكر الإسلامي في غير هذا المجال ، كالحكمة الطبيعية ، والرياضية ،مثل الهندسة ، والحساب وعلوم الطب ، وكافة أوجه العلوم الأخرى ، وما توصلت إليه البشرية مما يتعلق بالتقدم التكنولوجي ، فلماذا يعد مجرد منع هذا جموداً وتخلفاً ، ثم من هم الذين سيتخلف المسلمون عنهم ؟ وما مدى اتصالهم بالعقيدة ؟

علوم السحر والسيمياء والشعبذة(الشعوذة) والرمل : وهذه من العلوم المحرمة التي ذكرها الإمام في مصنفه " ست رسائل " (١٩٨٨) والمتمعن في تعريف كل من هذه العلوم يلمس سبب تحريم الذهبي لها . وهو اتصالها بالخرافات والسحر والشعوذة التي حذر الإسلام منها ، فالسيمياء نوع من السحر حاصلة إحداث مثالات خيالية في الجو لا وجود لها في الحس ، والشعوذة مبنية على خفة اليد بحيث يرى الناس الأمر المكررَ واحداً ، والواحد مكرراً بسرعة التحريك ، وهي من فروع السحر ، والرمل علم يعرف به الاستدلال على أحوال المسألة حين السؤال بأشكال الرمل وهي اثنا عشر شكلاً على عدد البروج . وأكثر مسائل هذا الفن أمور تخمينية مبنية على التجارب فليس بتام الكفاية ، ولا يفيد اليقين ، والسحر معروف ، أما الكيمياء وهي علم يعرف به طرق سلب الخواص من الجواهر المعدنية ، وجلب خاصة جديدة إليها ، وإفادتها خواصاً لم تكن لها ، والاعتماد فيه على أن الفلزات كلها مشتركة في النوعية ، والاختلاف الظاهر بينها إنما هو باعتبار أمور عرضية يجوز انتقالها . وقد اختلف في شأنها علماء المسلمين ، فقد أطال ابن خلدون في بيانها ثم عقد فصلاً في إنكار ثمرتها واستحالة وجودها وما ينشأ من المفاسد من انتحالها ، ثم قال : فالكيمياء أن صح وجودها كما تزعم الحكماء المتكلمون مثل جابر بن حيان ، ومسلمة بن أحمد المجريطي وأمثالهما فليست من باب الصنائع الطبيعية ، ولا تتم بأمر صناعي، وليس كلامهم فيها من منحى الطبيعيات ، إنما هو من منحى كلامهم في الأمور السحرية ، وسائر الخوارق ، وما كان من ذلك وغيره . (القنوجي ، ١٩٧٨) .

ويعتقد الباحث أن العلوم المذكورة أعلاه – عدا الكيمياء – ينطبق عليها سبب التحريم المذكور ، أما الكيمياء فقد ظهرت فائدتها في العصر الحاضر ، بما يكفي لو عاش أولئك العلماء في زماننا لما وسعهم إلا اعتبارها من العلوم الواجبة ، لذا فالباحث يرى أن الأمر يحتاج إلى دراسة واسعة ومتعمقة للوقوف على أسباب موقف بعض علماء المسلمين منها وما يماثلها من العلوم ومعرفة مدى تأثير ظروف العصر المختلفة في ذلك .

ومما يذكر للذهبي أنه لم يمنع الفئات من الاطلاع على العلوم المحرمة والباطلة – كما يراها – ولكن بشروط منها :

- قولـــه :" أن العلوم الباطلة كثيرة جداً فَلْتَحذَر ، ومن ابتلي بالنظر فيها للفرجة والمعرفة من الأذكياء ، فليقلل من ذلك ، وليطالعه وحده ، وليستغفر الله تعالى ، وليلتجئ إلى التوحيد والدعاء بالعافية في الدين (الذهبي ، ٢٠٠١ ، ١٤) .
- حسن النية والدعاء "قال بعد التحذير من مصنفات أهل البدع والضلال ، ... بأن النجاة والفوز تكون بالاستعانة بالله ، والابتهال إليه في الثبات على الإسلام ... فحسن قصد العالم يغفر له ، وينجو أن شاء الله " (الذهبي ، ٢٠٠١ ، ١٤) .
- قولـــه بضرورة التمكن من العلم والإيمان " فأن كان متمكنا من العلم والإيمان ، فلعله ينجو من تزلزل توحيده ، وأن كان جاهلاً بالسنن وبقواعد الإيمان تزلزل توحيده ، وطمع فيه الشيطان ... وربما تزندق " (الذهبي ، ٢٠٠١ ، ١٤) .

والمستعرض لهذه الشروط يجد أن الذهبي كان يركز بشكل كبير على أن لا تتأثر العقيدة .

التربية الصحية والبدنية : اهتم الإسلام بالصحة والتربية الصحية اهتماماً بالغاً ، فالمسلم يحتاج إلى جهد وطاقات كبيرة للقيام بواجباته ، نحو : طاعة الله ، وعبادته ، والدعوة إليه ، ولذلك فقد جاء الخطاب بضرورة الإعداد والاستعداد بشكل مستمر للمحافظة على عافية الجسم ، ووقايته من الأمراض ، كي يبقى قوياً . قال تعالى**{ وَأَعِدُّوا لَهُم مَا استَطَعتُم مِن قُوَّةٍ }** (إلانفال : ٦٠) . وقـــال ﷺ " **المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف** " [(١)] .

والقوة والصحة لا تكون في الجسم فحسب بل في مكونات الشخصية الإنسانية جميعها ، كي يستطيع الإنسان القيام بواجباته في مجتمعه ، فقد قال الشيباني (١٩٨٣) " أن المواطن الصالح إذا أراد أن يكون عضواً منتجاً في مجتمعه وقادراً على تحمل مشاق الحياة ومتاعبها ، فأنه يحتاج إلى صحة جسمية ونفسية جيدة ، ولياقة بدنية ، وعقلية مناسبة ... لأن العمل الفعال ذا القيمة الإنتاجية سواء كان جسمياً أو عقلياً يحتاج إلى طاقة جسمية عالية ، وحيوية متجددة ، ونفسية مطمئنة متكيفة مستقرة .

وقد لاحظ الباحث أن الذهبي بيّن في كتابه الطب النبوي (١٩٨٧) أمورا عديدة مما يتعلق بالصحة والتربية البدنية ، فمن المعلومات الصحية التي أوردها ، أن حالة النفس تابعة

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب القدر ، باب في الأمر بالقوة ، وترك العجز والاستعانة بالله

لصحة البدن ، وتتناسب معه تناسباً طردياً ، وأن الأفعال السليمة مرتبطة بالصحة والعافية ، كما أن نفس الإنسان وبدنه في حركة وسكون مستمرين ، وينتج عن كل منهما آثار مختلفة ، يضاف إلى هذا أنه يمكن السيطرة على الأعراض النفسية كالغضب ، والهم والفرح من خلال ترويض النفس بحيث لا يغلب أي عرض على الإنسان بشكل مستمر ، ويشير الذهبي إلى أن الفرح دون إسراف يكون تأثيره على الجسم إيجابيا ، بعكس الهم والغم وتأثيراتهما السلبية ، ويخلص إلى أن الله لم ينزل داء إلا ولـــه دواء ، وما على الإنسان إلا أن يتوكل على الله ويأخذ بالأسباب للوقاية والعلاج .

أما الاتجاهات والعادات الصحية ، فقد ذكر منها الذهبي :

- ضرورة استمرار شكر الله على نعمه ، والعافية من أفضل نعم الله على الإنسان بعد الإسلام .
- يلزم الإنسان كي يكون سليماً معافى أن يبتعد عن الخمول ويبقى دائم الحركة بشروط .
- أن يعود الإنسان نفسه على الحلم وعدم الغضب لتأثيرات ذلك عليه نفسياً وجسمياً .
- أن يبحث الإنسان عما يفرحه ويدخل إلى قلبه السرور ، ويبتعد عن الهم ومسبباته أن كان بإمكانه ذلك ، شرط عدم الإسراف أو التفريط .
- أن تناول الغذاء يجب أن لا يكون إلا عند الحاجة ، ولا يزيد عنها ، ومن الأفضل أن يقوم عن الطعام وبه خصاصة – أي لمّا يشبع بعد – .
- أن يتعود النوم بعد مدة من هضم الطعام ، بحيث يتجنب بعض الأوقات .
- أن يتجنب مضغ العلك ، وكسر الأشياء الصلبة ، وشرب البارد حفاظا على أسنانه .
- أن يمارس أنواع الرياضة التي تفيد جسمه مثل ركوب الخيل .
- أن يعتاد تدريب أعضاء جسمه بما يناسبها من أنواع الرياضة .
- أن يتعود الحفاظ على نظافة جسمه باستمرار مثل غسل اليدين بعد الطعام .

ويعترف الباحث أن مناقشة هذه الآراء يجب أن تكون من قبل متخصصين بالطب وصحة الجسم ، ومع ذلك . فأن ما يمكنه قوله أن بعضا مما ذكره الذهبي هو من البدهيات المعروفة في العصر الحاضر ومن ذلك :

- ربطه بين الصحة النفسية والجسمية ، فمن المعروف أن الاضطرابات الجسمية مثل زيادة الإفرازات في الغدد الصماء مثلاً قد يؤدي إلى زيادات في الطول ، أو السمنة ، التي يترافق معها في بعض الأوقات اضطرابات نفسية تؤدي إلى انطواء الفرد على نفسه ، وانعزاله بعيدا عن الناس وعدم مخالطتهم (مطاوع ، ١٩٩٥) .
- بين أهمية النوم بالنسبة للجسم موضحاً بعض العادات النافعة – كما يراها – ، وتشير التقارير الصحية أن كل فرد – تقريبا – ، يشعر باضطراب شديد إذا لم يأخذ كفايته من النوم، كما أن عادات النوم السيئة قد تعوّد العديد من الأفراد على أخذ مشاكلهم معهم إلى مضاجعهم مما يؤدي إلى القلق ، وقلة النوم ، وبالتالي اضطراب الجسم فالنفـــــس (البنا ،١٩٨٤)
- أشار إلى العادات الحسنة في تناول الطعام ، وهذا يتوافق تماما مع ما هو معروف حول الموضوع مثل " الغذاء الفائض عن حاجة الجسم يتم اختزانه على هيئة دهون وشحوم تحت الجلد ، وفي جدران الأوعية الدموية . ويتسبب عن ذلك بعض الأمراض مثل:تصلب الشرايين ، والفشل الكلوي ، وارتفاع ضغط الدم ، والتهاب المفاصل ، وداء النقرس ، و... كما أن امتلاء المعدة بالطعام والشراب فيه خطورة على حركة المعدة نفسها ، وعلى ما حولها من أجهزة وأعضاء ، إذ قد تضغط على القلب أو الرئة أو الحجاب الحاجز مما يعيق وظيفة النفس ، ويقلل إدخال الأكسجين اللازم لهضم الطعام ، إضافة إلى أن الطعام الزائد لا حاجة للجسم به[1] ولعل هذا يتوافق مع الحديث النبوي " ما ملأ آدمي وعاء شرا من بطنه ، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه ، فأن كان لا محالة فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه ." [٢]
- ممارسة أنواع الرياضة المفيدة للجسم ، وهذا يتوافق مع ما حض عليه الإسلام ، وحضت عليه التربية في العصر الحاضر ، ويلاحظ الباحث أن هناك إهمالا للتربية البدنية التي ركز عليها الإسلام كالفروسية والجري ، والسباحة ، والمصارعة ، والرماية، قياسا مع الاهتمام الشديد ببعض الألعاب مثل كرة القدم ، والطائرة ، وما شابه.

هذا ، ومن الجدير بالذكر أن التربية في العصر الحاضر ، اهتمت بموضوع التربية الصحية كثيرا ، ومن الأمثلة على ذلك أن وزارة التربية والتعليم وضعتها ضمن مناهج التعليم

---

(١) أنظر التعليقات الطبية للدكتور محمد كمال عبد العزيز في كتاب الطب النبوي للذهبي .
(٢) رواه الترمذي ، كتاب الزهد عن رسول الله ﷺ ، باب ما جاء في كراهية كثرة الأكل (٢٣٨٠) ص٥٣٥-٥٣٦ ،وسنن ابن ماجه ، كتاب الأطعمة ، باب الاقتصاد في الثاكل وكراهية الشبع (٣٣٤٩) ص٥٦٣ ،ومسند أحمد ، عن المقدام بن معدي كرب ،حديث رقم (١٧١٨٦) ،٤٢٢/٢٨

في الدولة ، وكلفت بعض المتخصصين للقيام بوضع دليل معلم لكل صف ، حيث كان من مفردات هذه الأدلة : جسم الإنسان نموه وتطوره ، والماء والصحة والتغذية ، والنظافة العامة والشخصية، والمشكلات الصحية الشائعة ، والعناية بأجزاء الجسم ، وقد تم تطبيق المشروع بالتعاون مع منظمة الأمم المتحدة للطفولة لفترة ، ثم قلّ العمل به إلى درجة كبيرة .

والباحث يرى ضرورة العودة إلى التركيز على هذا الموضوع فأن لم يكن في كتاب متخصص فليكن ضمن المقررات الدراسية المختلفة .

المبادئ والأسس التربوية في فكر الذهبي بين الأصالة والمعاصرة

سيعمل الباحث في الصفحات القادمة من هذا المبحث على مقارنة المبادئ والأسس التربوية التي برزت في فكر الإمام الذهبي مع ما يماثلها في العصر الحاضر ، محاولاً إظهار بعض جوانب لاتفاق أو الاختلاف فيما بينها .

* التربية المستمرة

يعد مبدأ التربية المستمرة من مستلزمات التربية الإسلامية ومميزاتها ، وهو يعنى بحفز الإنسان على الاستمرار في التعلم وطلب العلم إلى أقصى درجة ممكنة ، وما دامت به الحياة .

ويقوم هذا المبدأ عند المسلمين على " الاعتقاد بأن الله تعالى هو العالم العليم العلام ، وله المثل الأعلى في تمام العلم من حيث الأشياء والمكان والزمان والظاهر والباطن ، وما إلى ذلك، وهو مبدأ تحتّمه قابلية التعلم عند الإنسان التي أودعها الله فيه ، كما يستلزمه جهل الإنسان ابتداء بكل ما يحيط به " . (فرحان ، وآخرون ، ١٩٨٤) .

ويبدو أن التزام المسلمين بهذا المبدأ قد جاء من خلال فهمهم لتعاليم دينهم التي نصت على ذلك صراحة ، مثل قوله تعالى : **{ وَقُل رَبِّ زِدنِي عِلمَاً }** (طه : ١٣) ، وما ورد في الأثر " لا تزال عالماً ما كنت متعلماً فإذا استغنيت كنت جاهلاً " [١] .

وقد فهم الذهبي هذا المبدأ ، وطبقه في حياته قولاً وعملاً . أما عملاً فقد استمر في طلب العلم منذ صغره إلى أن قبضه الله إليه وأما قولاً فقد اعتبر أن من أبرز الشروط التي يجب أن يتحلى بها العالم الحافظ " أن لا يفتر عن طلب العلم إلى الممات بنية خالصة وتواضــــــــع " (الذهبي ، ٢٠٠١، ١٤) .

ومن الشواهد التي تدل على اهتمام الذهبي بهذا المبدأ أنه أوصى أحد تلاميذه بأن تكون له عادة في العلم تلوط به (أي تلتصق به ، ويلتصق بها) كناية عن الاستمرار في التعلم .

ومما فصله الذهبي في هذا المجال أنه لم يشترط التوقف عن طلب العلم أو تعليمه ونقله

---

(١) أنظر : ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله ، ر قم (٥٩١) ، ٤٠٨/١

إلى الآخرين إلا لمن بلغ حد الهرم وظهر عليه التغير والاختلاط .

أما عن طلب العلم للكبار ، فقد ذكر الذهبي أكثر من ترجمة لشيوخه ، وزملائه الذين رافقوه في طلب العلم وقد بلغوا سن الكهولة[٢] ، مما يدل على أن طلب العلم لم يكن مقتصراً على صغار السن ، حيث أنه لم يرد عنه صراحة أيّ تحديد لسن المتعلمين ، بل أنه مفتوح ومتوفر للجميع .

وقد برز الاهتمام بهذا المبدأ في العصر الحديث لعدة عوامل منها : التغير المتسارع في مختلف مظاهر الحياة ، وظهور الحاجة إلى وظائف ومهن جديدة ، وقصور الأنظمة التربوية عن الوفاء بتلبية حاجات التغير ومواجهة تحديات العصر ، إضافة إلى الانفجار السكاني وعجز الأنظمة عن تطبيق مبدأ التربية للجميع نتيجة لتزايد أعداد الطلبة ، وعجز المدرسة عن استيعابهم ، واضطرار بعض الطلبة إلى ترك المدرسة في مراحل مبكرة لأسباب مختلفة ، مما يحتم ضرورة توفر فرص التعليم أمامهم (جرادات وآخرون ، ١٩٨٤) .

أمام هذه العوامل وغيرها فقد سارعت المنظمات العالمية لوضع توصية للدول الأعضاء فيها للاهتمام بهذا الموضوع ، فقد عقدت اليونسكو ثلاثة مؤتمرات دولية حول التربية المستديمة وتعليم الكبار في إيلسيفور (١٩٤٩) ، ومونتريال (١٩٦٠) وطوكيو(١٩٧٢) حيث كان من أبرز ما أوصى به المؤتمر الأخير وأقره المؤتمر العام في دورته التاسعة عشر في نيروبي ١٩٧٦ بعد مناقشة مستفيضة ما يلي :

- أن عبارة " تعليم الكبار " تدل على إتاحة الفرص للأشخاص الذين يعتبرهم المجتمع كباراً لتنمية مهاراتهم ، وإثراء معارفهم ، وتحسين مؤهلاتهم الفنية أو إعطائها منحى جديداً ، وتطوير مواقفهم وسلوكهم ، بما يضمن التفتح الكامل لشخصيتهم من جهة ، ويحقق المشاركة في تنمية اجتماعية اقتصادية وثقافية متوازنة ومستقلة من جهة ثانية .
- أن تعليم الكبار لا يمكن النظر إليه بحد ذاته فحسب ، وإنما هو جزء من مشروع شامل للتربية المستديمة .
- أن عبارة " التربية المستديمة" تشير إلى مشروع شامل يهدف إلى إعادة تشكيل النظام التعليمي القائم ، وإلى تنمية جميع الإمكانات التعليمية غير النظامية في أن معاً .

- يكون الإنسان في هذا المشروع هو صانع تربيته عبر التفاعل الدائم بين أعماله وتفكيره

---

(٢) أنظر : المعجم المختص بالمحدثين للذهبي .

- لا تنحصر التربية في حدود المرحلة المدرسية ، وإنما ينبغي أن تمتد على مراحل الحياة كلها ، وأن تشمل جميع الكفاءات وميادين المعرفة ، وأن يتاح اكتسابها بوسائل متعددة ، وأن تساعد على تنمية الشخصية في شتى أشكالها .
- أن العلميات التعليمية التي تستهدف الأطفال والشبان والكبار من مختلف الأعمار ، على امتداد حياتهم ، وبأي شكل من الأشكال ، ينبغي أن ينظر إليها على أنها كل متكامل . (اليونسكو ، ١٩٨٢) .

وقد فصّل بعضهم مفهوم تعليم الكبار ، مبيناً أنه لا ينحصر في برامج محو الأمية التقليدية ، التي ترتكز أساساً على تعلم الأساسيات الثلاثة الأولى ، من قراءة ، وكتابة ، وعمليات حسابية وإنما يعني التعليم المستمر باستمرار الحياة ذاتها ، ولذلك فقد صنف الكبار إلى ثلاث فئات رئيسة هي :

- الراشدون الذين لم تتح لهم فرصة لالتحاق بالتعليم ، ولم يتمكنوا من تعلم الأساسيات .
- الراشدون الذين توقفوا عن مواصلة تعليمهم في مرحلة ما من مراحل التعليم لسبب من الأسباب .
- الراشدون الذين أنهوا تعليمهم ويرغبون في استمرارية تدريبهم ، وتأهيلهم وتجديد خبراتهم ، وذلك من أجل نموهم المعرفي والمهني والشخصي (فالوقي ، ١٩٨٧) .

وهكذا يتبين للباحث فضل أسبقية المسلمين – والذهبي منهم – في توظيف هذا المبدأ، إضافة إلى ميزات بارزة للتربية المستمرة عند المسلمين منها : أن معنى الاستمرارية ينصرف أيضا إلى التعليم ، فالمسلم مأمور إذا تعلم شيئا أن لا يكتمه ، بل يقوم بمهمة تبليغه إلى من يحتك بهم ويتعامل معهم من الناس طلاباً وأفراد مجتمع . فكل متعلم من المنظور الإسلامي هو معلم في الوقت نفسه ، وهو مأجور من الله حين يتعلم ، ومأجور ثانية حين يعلم غيره ما تعلمه ، قال تعالى **{ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أنزلَ إلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَأن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رسَالَتَهُ وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاس أن الله لا يَهدِي الْقَوْمَ الْكَافِرُوْن }** (المائدة : ٦٧) ، وقال سبحانه **{ أن الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أنزَلَ اللّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ**

بهِ ثمَنًا قلِيلاً أولـئِكَ مَا يَأكُلُون فِي بُطُونِـهِمْ إلا النَّارَ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللّهُ يَوْمَ الْقِيَامة وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ َ} (البقرة : ١٧٤) ، ومخطئ من يظن أن ذاك قاصر على المتخصصين وكبار العلماء ، بل هو واجب كل من يعلّم ما يفيد سواء من أمر الدين أو الدنيا . (فرحان ، وآخرون ، ١٩٨٤) .

ومن الميزات الأخرى أن التربية المستمرة هي الأساس في الإسلام ، ومن هذا الأساس أو الأصل تتفرع ألوان التربية الأخرى ، وقد وضّح عبود (١٩٧٧) هذه الفكرة مبيناً أن الإنسان هو المحور الذي تدور حوله الأيديولوجية الإسلامية ، فهو الذي كرمه الله بالعقل ، وجعله خليفة له في الأرض بقدر توظيفه لعقله وجسمه وروحه في طاعة الله سبحانه ، وبقدر موازنته بين حاجات جسمه وروحه ، وبين مسؤولياته كفرد وكعضو في جماعة ، مبيناً أن التربية هي المسؤولة عن هذه العمليات ، فهي تبدأ مع الفرد منذ نشأته دون أن تتدخل الدولة في ذلك – حيث بقي دورها محدودا حتى بعد إنشاء نظام المدرسة في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) – .

أي أن العقل هو مدخل الإنسان للحياة الكريمة ، وهو يحتاج إلى غذاء ، وغذاؤه العلم الذي يعد جزءاً أساسياً من الأيديولوجيا الإسلامية ، وكذلك حال التربية ، حيث يصبح المقصود منها في الإسلام ، التربية المستمرة التي يتفرع عنها ألوان التربية الأخرى كما ذكر سابقاً .

أما في المجتمعات القديمة والحاضرة ، فتعتبر التربية ، والتربية المدرسية بوجه خاص هي الأساس أو الأصل ، ومنه تتفرع التربية المستمرة .

ومن المميزات أيضا أن الذي فجر التربية المستمرة في العصر الحاضر عدة عوامل خارجية من أبرزها التقدم العلمي وانفجار المعرفة . فهي تقوم على أساس مصلحة الفرد والمجتمع بمختلف مؤسساته ، بينما يلاحظ الباحث أن التربية المستمرة في الإسلام مصدرها أعماق الفرد المسلم ، تستثيره ليحقق إنسانيته وينهض برسالته ، وهو يقوم بالتعلم بطيبة نفسٍ ورضاً مستفيداً من كل الوسائل المتاحة ، سعياً نحو إرضاء خالقه بالدرجة الأولى .

* الحرص على استثمار الوقت واغتنامه

يعد مبدأ استثمار الوقت من المبادئ القديمة والحديثة الحاضرة ، وقد حرص الإسلام على هذا المبدأ كثيرا ، فقد لفت الله – سبحانه – النظر إلى أهمية الوقت فأقسم به في مطالع سور متعددة من القرآن الكريم ، كما أشار إليه صلى اله عليه وسلم بقوله : (نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ) [١] . فالمسلم الذي تجتمع عليه نعمتان ، وهما الصحة

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب الرقاق ، باب لا عيش إلا عيش الآخرة ، (٦٤١٢) ١١/٢٣٣ .

في البدن والفراغ في الوقت ينبغي عليه أن يؤدي حقهما من الشكر لله سبحانه بالاستفادة منهما في طاعته ، ونيل مرضاته ، فإذا فرط في هذا فهو المغبون ، أي ذو الخسران الكبير ؛ لأن الصحة يعقبها السقم ، والفراغ يعقبه الشغل ، وكما أن التاجر له رأس مال يبتغي به الربح ، فكذلك المسلم رأس ماله صحته وفراغه ، لا يفرط بأي شيء منهما في غير طاعة الله التي هي التجارة الرابحة (كرزون ، ١٩٩٦) .

وقد أشار النووي (ت ٦٧٦هـ) في كتاب المجموع ، شرح المهذب للشيرازي(١٩٩٥) إلى أهمية الاستفادة من الوقت فقال : ينبغي لطالب العلم أن يكون حريصا على التعلم مواظباً عليه في جميع أوقاته ليلاً ونهاراً ، حضراً وسفراً ، ولا يذهب من أوقاته شيئاً في غير علم إلا بقدر الضرورة لأكل ونوم قدراً لا بد منه ، ونحوها كاستراحة يسيرة لإزالة الملل .

ويلاحظ الباحث أن الذهبي قد طبق – عمليا – هذا المبدأ في حياته ، ومن شواهد ذلك :

– لم يترك وقته يضيع سدى حتى وهو في السفر ، فقد قال واصفاً إحدى رحلاته ، وسماعه من شيخه في أثنائها " ورافقنا في الحج فسمعت منه بالعلى (العلا)[1] ومع أن كتاب " الفرج بعد الشدة" (الذهبي ، ١٩٨٨، ٢٤) .

– قال يصف رحلته إلى الإسكندرية وسماعه من الإمام ابن الصواف الجذامي (ت ٧٠٥هـ) – حيث دخل عليه فوجده قد أضر وأصم ، فقرأ عليه جزءاً ورفع صوته " وزهدني فيه أني كنت لا أدخل عليه إلا بمشقة ، وأمنع ، ويؤذن لي مرة ، وأيضا فكنت لا أقرأ ربع حزب جمعاً، حتى ينقطع صوتي لمكفن صممه " فخاف الذهبي ضياع الوقت القصير فتركه ، وذهب إلى إمام آخر (معروف ، ١٩٧٦) .

وتدل هذه الحادثة على التعب والمشقة التي كان يلاقيها طلبة العلم وهم يتنقلون من مكان إلى آخر للسماع والتعلم ، كما تدل على صبرهم وتحملهم ، إلا إذا وجدوا أن هذا الصبر قد لا يفيد ، وخوفا منهم على ضياع الوقت دون فائدة فهم يتركون القليل إلى مكان الفائدة الأكبر .

ولا تعني هذه الاستفادة من الوقت صرفه كاملا في التعلم والعمل دون الإبقاء على الوقت للترويح عن النفس ترويحاً بريئاً ، أو ما شابه ، " فالإسلام يدعو إلى توزيع الوقت بين

العبادة والعمل الجاد ، والتعلم والتفكير في الكون والمجتمع والتاريخ والإنسان من أجل فهم سنن الله – سبحانه – التي تسير هذه المخلوقات وتحكمها ، وإدراك عظمة الخالق والانتفاع بها فـــي

---

(١) العلا : بلدة في شمال السعودية حاليا .

الحياة الدنيا ، هذا إلى جانب السمر الطيب والترفيه المقبول والتزاور وممارسة أنواع الرياضة الهادفة، كالسباحة ، والرماية ، وركوب الخيل (شبير ، ١٩٨٩) .

وإذا كانت الضرورة تقتضي تقدير الوقت بصورة عامة ، سواء كان وقت عمل أو وقت فراغ ، فأن الضرورة لتقدير وقت الفراغ وحسن استغلاله ،هي أشد بالنسبة لمواطننا العربي الذي لا يحسن عادة استغلال أوقات فراغه ، في تنمية نفسه ثقافياً واجتماعياً واقتصادياً ، وفي بناء هوايته والتدريب اللازم لتنميتها (الشيباني ، ١٩٨٣) .

وقد أشار بعض الباحثين المحدثين إلى أن زيادة وقت الفراغ قد أدت إلى انتشار الوسائل غير النافعة لتمضية الوقت والتسلية ، فنبهوا إلى ضرورة أن تتحمل المدرسة مسؤوليتها عن الاتجاه الذي سيسلكه الأطفال – عندما يكبرون – نحو وقت الفراغ وطريقة استخدامهم له ، وقالوا أن المدنية الحديثة أمام خيارين : إما أن يقضي الأفراد وقت فراغهم فيها على طريقة الإغريق في توجيههم للبحث والثقافة والمحادثة الراقية ، وألعاب المضمار والميدان ، أو عن طريق المسرات التي كانت سائدة في روما المضمحلة ، حين كانت مدنيتها تتقرض ، والجماهير لم يكن لهم هم سوى الخبز وألعاب السيرك . (دوترنز، د.ت) .

* مراعاة الفروق الفردية

تعد الفروق الفردية بين الأفراد سواء في مجال الاستعدادات أم القدرات ، أم السمات , حقيقة واقعة عرفها الناس منذ القدم وراعوها ولكن بدرجات متفاوتة ، فقد قسم أفلاطون الناس إلى فئات ، ووضع كل فرد في عمل خاص به مراعاة للفروق بينهم ، وأدرك أرسطو أهمية الفروق بين الجناس والطبقات الاجتماعية وبين الجنسين ، ولكنه أرجع ذلك إلى عوامل وراثية ، أما في القرون الوسطى فقد أهمل هذا الجانب إهمالا كبيراً مما ضر بالحياة والمجتمع والتربية والتعليم (الرشدان ، وجعنيني ، ١٩٩٤) .

أن الناظر في النص أعلاه يتردّد في نفسه التساؤل التالي : هل من العدل تعميم الإهمال في هذا الجانب في القرون الوسطى ليشمل أوروبا التي كانت تعيش في تلك الفترة في ظلام وجهل وتخلف – بالتساوي مع بلاد المسلمين التي كانت تعيش عصر النور والإشراق وقمة الحضارة ؟! فإذا كان الحال كذلك في أوروبا – وهذا ما يغلب عليه الظن مما عناه الباحثان الكريمان – أو لدى أصحاب الفلسفة المثالية كما أشار صمويلسون وماركوويتز (١٩٨٨) –

فأن شواهد الاهتمام بالفروق الفردية في الإسلام كثيرة ، ومنها :

– قال تعالى :**{ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلاً }** (الإسراء : ٨٤) .

– وقال سبحانه : **{ لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفساً إلا وُسعَهَا }** (البقرة : ٢٨٦) ، وقال : **{ لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفساً إلا مَا أتَاهَا }** (الطلاق : ٧) .

وتدل الآيات الكريمة أعلاه أن كل أنسان لديه استعدادات وقدرات وقابليات وطاقات تختلف عما لدى غيره ، ولذلك يأتي التكليف الرباني متوافقاً مع حجم ما لدى كل منهم .

ومن استعراض الإمام الذهبي يجد الباحث أنه قد أشار إلى هذا الموضوع حين نصح العلماء والمعلمين بضرورة مراعاة قدرات طلبتهم ، وبأن لا يحدثوهم بما لا تبلغه عقولهم ، لأن بعضهم قد يفهم ما يضره ، وحين أشار في نصيحة مماثلة إلى ضرورة تجنب رواية ما لا تحتمله قلوب العامة ، وأن كان لا بد من الأمر فليكن في مجالس خاصة للمعنيين ، حيث أن المجالس تحوي جماعات مختلفة الأفهام .

وهكذا يتبين للباحث سبق المسلمين في هذا المبدأ ، وأفضلية وضوح أسبابه وما يرمي إليه ، إضافة إلى أخذه بعين الاعتبار في العملية التعليمية / التعلمية .

أما في التربية الحديثة فتشير الدراسات إلى أن المقاييس الأولى للفروق الفردية بدأت في علم الفلك حين اهتم بسل (Bessel) بقياس ما عرف بعد ذلك باسم المعادلة الشخصية ، ويقصد بها الفروق القائمة بين تقدير الأشخاص لظاهرة معينة ، ثم توالت الدراسات بعد ذلك ، ففي عام ١٩٨٥ اتخذت سيكولوجية الفروق الفردية صورة محددة ، حين نشر بينيه (Binet) وهنري(Henri) مقالة بعنوان " علم النفس الفردي " ، وتبعهم العالم شترن (stern) حيث أصدر عام ١٩٠٠ كتابه " علم نفس الفروق الفردية " . ومنذ ذلك اليوم ازداد اهتمام علماء النفس والتربية بهذا الموضوع ، وبتطوير طرق القياس وتجميع المعلومات عن الفروق الفردية ، ظهرت الاختبارات العقلية للفرد والجماعة لقياس الذكاء والقدرات الخاصة والشخصية والميول والاتجاهات . (الرشدان وجعنيني ، ١٩٩٤) .

ربط العلم بالعمل :

أكد الإسلام على هذا المبدأ تأكيدا واضحا لا يرقى إليه الشك ، فالمتمعن في كتاب الله – عز وجل – قلما يجد الإيمان غير مربوط بالعمل الصالح ، ومن ذلك قوله سبحانه **{وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كانوا يَعْمَلُون}** (العنكبوت : ٧) وقوله : **{ أن الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كانت لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا }** (الكهف : ١٠٧) .

وقد مقت الله – سبحانه – للمؤمنين أن لا يقرنوا قولهم بعملهم فقال : **{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ {٢} كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُون}** (الصف: ٢ ، ٣) .

ولعل قصور المنافقين عن تطبيق هذا المبدأ في سلوكهم وتصرفاتهم ، هو سبب توعد رب العزة إياهم بسوء العاقبة بقوله : **{ أن الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الاسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا }** (النساء : ١٤٥) .

وقد اشترط الإسلام أن يكون عمل المسلم وفعله نافعا ، ولذلك فقد حذر النبي ﷺ واستعاذ بالله من العلم غير النافع فكان دأبه قول : " **اللهم أني أعوذ بك من علم لا ينفع ، ومن قلب لا يخشع ، ومن نفس لا تشبع ، ومن دعوة لا يستجاب لها** " [(١)] .

ويعد هذا المبدأ من المبادئ الرئيسة عند جلّ علماء التربية المسلمين في العصور الإسلامية كافة ، وقد لاحظ الباحث وضوح هذا المبدأ في أفكار الإمام الذهبي التربوية ومن الشواهد على ذلك أنه :

- عدّ عدم موافقة العمل للعلم من الكبائر مستشهدا على ذلك بالعديد من الأحاديث الدالة على ذلك (الذهبي ، ١٩٨٨ ، ٢٠)
- عدّ عدم العمل بالعلم ، والعمل بغير علم ، والامتناع عن التعلم ، ومنع الناس منه ، نعوتاً لجهلة العامة ، وأنهم لو عملوا بيسير ما عرفوا لأفلحوا (الذهبي ، ٢٠٠١ ، ١٤)
- علق على قول الشعبي : ليتني لم أكن علمت من ذي العلم شيئا – فقال : " لأنه – أي علم الحديث – حجة على العالم ، فينبغي أن يعمل به " (الذهبي ، ٢٠٠١ ، ١٤)

- علق على أحد العلماء الذين كثر تعبدهم لله ، ولم تكثر رواياتهم فقال : وهل يراد من العلم إلا ثمرته " (الذهبي ، ٢٠٠١ ، ١٤) أي انعكاس العلم النظري على الفرد ، وعمله به .

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب التعوذ ١٧/٤١ ،والنسائي ، كتاب الاستعاذة ،باب الاستعاذة من الشقاق والنفاق وسوء الأخلاق (٥٤٧٠) ، ص ٨٢٤

- قال معلقا على الذين لا يعملون بما يتعلمون " وهل شيء أقبح من شاب يخدم السّنة ، ولا يعمل بها " (الذهبي ، ١٩٩٢ ، ٣١)
- علق على من وصف التقوى بأنها " العمل بطاعة الله ، على نور من الله ، رجاء ثواب الله ، وترك معاصي الله ، على نور من الله ، مخافة عذاب الله " فقال أبدع وأوجز ، فلا تقوى إلا بعمل ، ولا عمل إلا بترو من العلم والاتباع " ولا ينفع ذلك إلا باالإخلاص لله " (الذهبي ، ٢٠٠١ ، ١٤)
- جعل حديث " ويل لمن لم ينتفع بعمله " [١] ضمن الأحاديث التي اختارها لطائفة من المشايخ الكبار " (الذهبي ، ١٩٨٨ ، ١١)
- كثر مدحه بعض العلماء الذين ترجم لهم لأنهم كانوا يربطون العلم بالعمل [٢] .

ومن الشواهد السابقة يجد الباحث أن العلم لم يكن منفصلا عن العمل ، فهما واحد يسيران معا ولمقصد واحد ، فنحن نتعلم لنحسن العمل ، ونعمل طلباً للعلم وبموجبه ، فالإسلام إيمان وأعمال ، أو معتقدات مرتبطة بمشاعر " (زيعور ، ١٩٨٥)

وقد علق النحلاوي (١٩٨٢) على تصرفات بعضهم قياسا مع هذا المبدأ فقال : " التربية الإسلامية لا ترضى من المسلم أن يكون كإله – كبعض الشعوب الأوروبية – يعمل ويطيع دون أن يعرف هدفه من العمل ، ودوره في هذه الحياة دون أن يربط كل أعماله بمصيره بعد الحياة الدنيا ، ويحسب حساباً لكل خطوة يخطوها في هذه الحياة .

ومما يلاحظ أن بعضهم قد ربط بهذا المبدأ شعارين للإسلام هما (العلم للعلم) و(العلم للمجتمع) فقال حول الأول : أن العلم في الإسلام – كما نراه في الكتاب والسنة – هدف له قيمته في حد ذاته ، فهو وحده القادر على تحقيق إنسانية الإنسان ، ورفعه إلى الدرجة التي يكون بها مستحقاً ذلك التكريم الذي كرمه به ربه حين استخلفه ، كما أن هذا الشعار اتخذ سبيلاً

لتقدم الإنسان من حيث هو أنسأن ، وسبيلا لرفاهية المجتمع الإسلامي وسموّه . (عبود ، ١٩٧٧)

---

(١) رواه الدارمي ، كتاب المقدمة ، باب العمل بالعلم رقم (٢٦٢) ، ٧٩/١ وقد ورد الحديث عن ابن الدرداء بلفظ (أن من أشر الناس عند الله منزلة يوم القيامة عالماً لا ينتفع بعلمه) ،

(٢) من ألفاظه في سير أعلام النبلاء : كان هذا رأسا في العلم والعمل ١٦٠/٤ ، وحد الولي الرسوخ في العلم والعمل ٢٦٠/١٠ ، ومن جمع العلم والعمل فناهيك به ١١٨/١٣ . أما في طبقات القراء فمن ذلك : كان إماما في العلم والعمل ٢٨/١ ، وكان من أهل العلم والعمل ٧٦٨/٢

وقد أشار الذهبي إلى هذا الشعار ضمن أهداف العلم لديه مبينا أن العلم قد يحَب محبة لا توصف مع قطع نظر محب العلم عن الرياسة والمال ، ومثل هذا يرجى له أن يؤول علمه إلى الخير والنفع به (الذهبي ، ١٩٨٨، ١٣)

أما الشعار الآخر الذي ذكره عبود (١٩٧٧) وهو العلم للمجتمع ، فهو يرى بأنه يزيد أهمية عن الأول ، لأن العلم إذا لم يترجم إلى عمل نافع ، أو سلوك حميد ، أو نظم وقوانين صالحة ، فأنه يكون لغواً فارغاً . وتلك سمة الكفار والمنافقين في كل زمان ومكان .

وقد بين الكاتب أن نظرية (العلم للعلم) قد شاعت ووجدت رواجاً في المجتمعات الغربية (الرأسمالية) وأن نظرية (العلم للمجتمع) قد شاعت ووجدت رواجاً في روسيا بعد ثورتها البلشفية ، ومنها انتقلت إلى المجتمعات الشيوعية الأخرى ، لأنها جزء من النظرية الماركسية – اللينينية .

ويعيب الكاتب على الفصل التعسفي بين الشعارين مبينا أن العلم حتى لو كان للمجتمع فأن له متعة في حد ذاته ، والعلم حتى لو كان للعلم ، له فوائده الاجتماعية ، ويضيف بأن هذا الفصل لا وجود له في الإسلام ، ولا مكان للفصل بين العلم والعمل ، أو بين النظرية والتطبيق، فالعلم هو الطريق إلى التطبيق ، وهو السبيل إلى النهوض بالفرد والمجتمع على السواء .

ويلاحظ الباحث أن التربية في العصر الحاضر تركز – من خلال أهداف التعليم التي تضعها لمناهج المواد المختلفة في كافة المراحل – على ضرورة تمثل المتعلم للقيم والاتجاهات العلمية بصورة وظيفية ، بحيث تنعكس على شخصيته وتصرفاته . (الكيلاني ،وآخرون،١٩٩١)

أي أن التربية الحاضرة ترفض صراحة أن يكتفي المتعلم بعلوم نظرية فحسب ، بل تطالبه أن يمارس ما تعلمه عملياً وعلى أرض الواقع ، وهذا يتوافق تماماً مع ما ذهب إليه الذهبي ، وغيره من علماء التربية في العصور الإسلامية .

تعليم المرأة في فكر الإمام الذهبي

تشير بعض الدراسات أن تعليم المرأة كان منذ فجر التاريخ دون تعليم الرجل ، بحيث كان متفاوتا بين المنع بالكلية ، أو الاقتصار فيه على بعض ما يخص عملها في التربية المنزلية، أو ربما تعليمها بعض مبادئ القراءة والكتابة والحساب وما شابه (غانم ، ١٩٩٩) .

وربما يعود التفاوت في الاهتمام المذكور إلى اختلاف نظر المجتمعات إلى المرأة وقيمتها – وحقوقها وواجباتها .

ومع بدء بعثة النبي محمد صلى اله عليه وسلم أخذت المرأة وضعها الطبيعي كشريك للرجل لها حقوقها وعليها واجباتها تجاه المجتمع ، وقد أشارت سنجريد هونكه[1] إلى هذا الموضوع بقولها " أن تعبيرات احترام المرأة دخلت اللغات الأوروبية على يد العرب والمسلمين (الجندي ، ١٩٨٠) .

وقد حث الإسلام على تعليم المرأة ، فقد جاء في الخطاب النبوي قوله ﷺ " طلب العلم فريضة على كل مسلم " وفي رواية " ومسلمة" ، ولو توقف الأمر عند كلمة "مسلم " لكفا ، فهي جاءت نكرة غير معرفة لتشمل الجنسين الذكر والأنثى ، ويؤيد ذلك أن الله – سبحانه – قد ميز بين الناس ذكرهم وأنثاهم بالعلم فقال **{ هَل يَستَوِي الَّذِينَ يَعلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعلَمُونَ }** (الزمر : ٩) ،كما يؤيد هذا الفعل النبوي ، ففي الصحيحين عن أبي سعيد الخدري – رضي الله عنه– قال : جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله ! ذهب الرجال بحديثك ، فاجعل لنا من نفسك يوما نأتيك فيه تعلمنا فيه مما علمك الله ، فقال " اجتمعن في يوم كذا في مكان كذا " فأتاهن فعلمهن مما علمه الله [٢].

ولم يتوقف الأمر عند حد تعليم المرأة ، بل أنتقل إلى أن تقوم بواجبها في تعليم غيرها ، ابتداء من أبنائها وبناتها في البيت ، ثم النساء في مجالسهن ، ثم الرجال من خلال بعض أساليب التعليم المعروفة (٣)

---

(١) سنجريد هونكة : هي صاحبة الكتاب الشهير شمس العرب تسطع على الغرب .
(٢) البخاري ، كتاب فلاعتصام بالكتاب والسنة ، باب تعليم النبي ﷺ أمته من الرجال والنساء (٧٣١٠) ، ١٣/٣٠٥-٣٠٦ ، وصحيح مسلم ، كتاب البر والصلة والآداب ،باب من يموت له ولد فيحتسبه ١٤١/١٦
(٣) أنظر : أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان , عناية النساء بالحديث النبوي , وعبد المتعال الجبري ,المرأة في التصور الإسلامي .

وقد كان الذهبي نفسه خير دليل على ما تقدم ، فقد حوت كتبه العديد من الأدلة على ما وصلت إليه المرأة من شؤون التعليم في ذلك العصر ، ومن ذلك ما رواه عن حصول عمته ست الجاهل على الإجازات العلمية ، ثم تعلمه على يديها ، وما فعله هو نفسه حين أجاز لابنته غير واحد من علماء عصره ، وما ذكره من لهفته على السفر للالتقاء بإحدى العالمات حيث قال : " كنت أتلهف على لقيها { لقياها } ، ورحلت إلى مصر وعلمي أنها باقية ، فدخلت فوجدتها قد ماتت من عشرة أيام " (الذهبي ، ١٩٩٣، ٤) .

ويضاف إلى ما سبق ما أورده في كتابه معجم الشيوخ (١٩٨٨) من ترجمات للعديد من شيخاته ، ومن أخذ عنهن ، وكيف كان ذلك ، ومن أمثلة ترجماته تلك :

- أسماء بنت أبي بكر المقدسية (ت ٧٠٧هـ) "قرأت عليها منتقى من جزء ابن عرفة " .
- أسماء بنت محمد بن عبد الرحيم (ت ٧٢٣هـ) "سمعت منها مع ابني عبد الرحمن ، وخرجت عنها ، وقرأت عليها " .
- حبيبة بنت عبد الرحمن المقدسية (ت ٧٣٣هـ) "أجازت لحفيدي محمد بن عبد الرحمن
- زينب بنت محمد بن عبد الملك المقدسية ، كتبت لي بالإجازة ، ورويت لها ".

وهذه الشواهد وغيرها خير دليل للرد على من قال بأن الإسلام حجر على تعليم المرأة مستشهدا ببعض الآراء لتربويين مسلمين مثل القابسي (ت ٤٠٣هـ) الذي كان يرى اقتصار تعليمها على القرآن وعلومه ، ومنعها الترسل والشعر تخوفاً عليها . وأبو الثناء الإلوسي (ت ١٢٧٠هـ) صاحب كتاب (الإصابة في منع النساء من الكتابة) .

وقد ردّ مرسي (١٩٨٧) مبينا أن هذه الآراء كانت تحركها دوافع الغيرة الشديدة على المرأة ، والتخوف من كل ما يحتمل فيه مجال الغواية والانحراف ، إضافة إلى أنه أورد بعض

ردود علماء التربية المسلمين على ذلك مثل كتاب " عقود الجمان في جواز تعليم الكتابة للنسوان" لشمس الحق آبادي وغيره .

التربية الأخلاقية عند الإمام الذهبي

تعد الأخلاق من أبرز متطلبات تنظيم المجتمعات ، إذ أن عدم وجودها يعني سيادة شريعة الغاب ، وسيطرة القوة على الحق حيث تنتفي الإنسانية ، وينعدم معناها ، فالخلق لغة يعني : الدين والطبع والسجية والفطرة (ابن منظور ، ١٩٩٠) أما اصطلاحا فقد أورد العلماء عدة تعريفات له ، تشير في معظمها إلى سجايا النفس التي يستحق الموصوف بها المدح أو الذم (الكيلاني ، وآخرون ، ١٩٨٩) ومن ذلك :

– عرفه ابن مسكويه بقوله (الخلق حال للنفس داعية لها إلى أفعالها من غير فكر ولا رويّة) (عبد الرحمن ، ١٩٩١)

– وعرفه عبد الحميد ، والحياري (١٩٨٥) بأنه قوة راسخة في الإرادة تنزع إلى اختيار ما هو خير ، أو اختيار ما هو شر ، في حين أشار آخرون بأنه مجموعة التصرفات القولية والفعلية التي تصدر عن الإنسان ،أو هي الصفات الظاهرة التي يتصف بها الإنسان (الكيلاني،وآخرون، ١٩٨٩) .

أما التربية الخلقية فيقصد بها " رياضة الناشئين على المسلك الحسن المتزن واستهواؤهم إليه ، وأخذهم بما يقوي إرادتهم وينمي شخصياتهم ويؤدي إلى تكاملها ، ويؤهلهم للاشتراك في حياة المجتمع الذي هم أفراده بأوسع معاني كلمة الاشتراك " (وافي ، وآخرون ، ١٩٥٥) .

وقد عرفت المجتمعات الأخلاق والتربية الخلقية منذ القدم ، وأن كانت ليست واحدة عند الجميع ، كما أن الفلاسفة والعلماء والمربين اتفقوا منذ أقدم العصور على أهمية الأخلاق في

حياة الأفراد والمجتمعات ، حتى أنهم يكادون يجمعون على أنها هي الهدف الأسمى للتربية والتعليم :

- يقول إيراسموس : ينبغي العناية بالهدف الأخلاقي في التربية والوقوف عنده طويلا . (عبد الدايم ، ١٩٨١) .
- ويرى هيربارت الألماني (١٧٨٢م –١٨٤١م) : أن الغرض الأصلي من التربية هو رقي الأخلاق الإنسانية (وافي ، وآخرون ، ١٩٥٥) .
- أما التربية الإسلامية فقد اهتمت بهذا الجانب على مر العصور الإسلامية ، والشواهد على ذلك كثيرة ، ومنها :

- قوله تعالى واصفا نبيه ﷺ ومادحــــا:**{ وَأنكَ لَعَلَى خُلَقٍ عَظِيم }** (القلم: ٤)
- تمييز النبي ﷺ لكمال المؤمنين بقدر حسن أخلاقهم ، فعن أبي هريرة– رضي الله عنه – أن رسول الله ﷺ سئل عن أكثر ما يدخل الناس الجنة فقال: "**تقوى الله وحسن الخلق**"[(١)]

وقد درس علماء التربية المسلمين الأخلاق ، وفصّلوا الكلام فيها[(٢)] ، فأشاروا إلى خصائصها بأنها جزء من الإسلام ، وجزء من العبادة ، وأنها واقعية ملائمة للفطرة ، وشاملة للفرد والجماعة ومتوازنة وإيجابية (الكيلاني ، وآخرون ،١٩٨٩) و(الجندي ،١٩٨٠) كما بين بعضهم أبرز وسائل التربية الخلقية في الإسلام مثل الوعظ وإلا رشاد والنصح المباشر ، والإيحاء من خلال الشعر والأخبار ، والقدوة والمحاكاة ، وتكوين العادات الحسنة في الأطفال منذ الصغر ، ثم دور كل من الأسرة والمدرسة والمجتمع في ذلك (الأبراشي ، ١٩٨٩) .

وهكذا فموضوع الأخلاق والتربية الخلقية ، هو موضوع كبير متشعب ربما يحتاج إلى العديد من الدراسات للإحاطة به .

أما التربية الأخلاقية عند الذهبي ، فقد اجتهد الباحث أن يتناول بعض الموضوعات المتعلقة بأدب المعلم وواجباته ، وآداب المتعلم وأخلاقه ، وبعض العلاقات التربوية بين أولياء الأمور والمعلمين والمتعلمين بعضهم ببعض ، ثم يدرسها ضمن التوزيع المقترح الآتي : الأخلاق الفكرية والعقدية ،وموضوعها الصلة بالله ، والأخلاق الجماعية المجتمعية وموضوعها المجتمع والعلاقات الاجتماعية ، ثم الأخلاق المهنية المتعلقة بعمل المعلم ومهنته .

وسيحاول الباحث خلال ذلك مقارنة هذه التربية مع ما يدعو إليه الفكر التربوي في العصر الحاضر .

(١) رواه الترمذي ، كتاب البر والصلة ، عن رسول الله ﷺ ، باب ما جاء في حسن الخلق حديث رقم (٢٠٠٤) ص:٤٥٤

(٢)أنظر : الحسني , تهذيب الأخلاق ، و الدجوي ,فتح الخلاق في مكارم الأخلاق ، و الآجرى , أخلاق العالم والمتعلم ,و عبد الله علوان , تربية الأولاد في الإسلام , و علي محمود , تربية الناشئ المسلم ، ومحمد سعيد رسلان , آداب طالب العلم .

الأخلاق الفكرية والعقدية :

يحتكم الناس في غالب تصرفاتهم وسلوكاتهم إلى العقيدة والمبادئ والأفكار التي يؤمنون بها ، فأهل الديانات –مثلاً- يحتكمون إلى ما ورد في مضامينها وتكون تصرفاتهم أكثر ثباتاً لطبيعة مصدر الاحتكام المقدس ، وثبات ما فيه من أوامر ونواهي ، أما أهل المذاهب الأرضية الفلسفية فأحوالهم أقل ثباتاً لطبيعة مصدرها البشري المتصف بتغيره وتقلب أحواله .

وقد لاحظ الباحث أن الآداب والأخلاق التي وضعها الذهبي كان مصدرها الدين الإسلامي وما دعا إليه ، أو أمر بتجنبه ومن أبرز الأخلاق التي دعا إليها : تقوى الله وخشيته، والإخلاص وصدق النية في العمل وملازمة ذكر الله سبحانه في سائر الأحوال ، وهذه تم الحديث عنها في ثنايا الدراسة بشكل مفصل حيث أن تمثلها يجعل الإنسان دائم فلاتصال بخالقه يحتكم لأوامره وينتهي بنواهيه في كافة تصرفاته ومعاملاته ، ويلاحظ أن غياب مثل هذه الأخلاق في المجتمعات – بخاصة الإسلامية – هو من أبرز أسباب الاضطرابات فيها ، فإذا تناول الباحث هدف ديمومة خلق التقوى والخشية لله تعالى وما ينتج عنه من إيجاد للإنسان الصالح في ذاته ومع غيره يجد أنه يختلف في مفهومه عن إيجاد المواطن الصالح في المفهوم الحديث ، حيث أن الأخير قد يسيء إلى غيره معتقداً أن عمله هذا واقع ضمن المواطنة الصالحة، أما عن خلق مثل فضيلة الذكر المستمر لله في سائر الأحوال فقد قصد بها الشارع أن يتمثل الإنسان خالقه على الدوام مما يجعل أقواله وأعماله مرتبطة بمراقبة الله له ، إضافة إلى اعتقاد المسلم أن ملازمة الذكر تحمي الإنسان من الشيطان وأعوانه وتعين على تحقيق الأعمال بتوفيق من الله تعالى ، فأين التربية الغربية ومن يدورون في فلكها من ذلك ؟!.

* **تجنب إيذاء النفس والبدن بحجة العبادة :** دعا الإسلام إلى الاقتصاد في الطاعات ، فقال سبحانه **{ يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ}** (البقرة : ١٨٥) ونعى رسول الله ﷺ على بعض المسلمين الذين أرادوا التشديد على أنفسهم بالعبادات بقوله :"**أنتم الذين قلتم كذا وكذا ؟ أما والله أني لأخشاكم لله وأتقاكم له ، لكني أصوم وأفطر ، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني** " .

- وقد فهم الذهبي هذا المنهج فسار عليه ، والمتتبع لآرائه يجد أنه يوصي بمتابعة السنن والعلم ، وتجنب المبالغة في التعبد المضر للجسم والعقل . يبرز هذا في تعليقه على من حرم نفسه الطعام فترة طويلة بحجة التعبد لله ، مبيناً أن عمله هذا غير جائز شرعاً ، إضافة إلى أن الجوع له تأثير على العقل وسلامته ، ويمكن أن يؤدي إلى تخيل الإنسان لأشياء ليست حقيقية ، وقد تؤدي به إلى الكفر ، إضافة إلى أنه حكم على من تسبب في زوال عقله سواء بالجوع ، أو الخلوات الطويلة أو الرياضة الصعبة بأنه عاص آثم .

- وهكذا يجد الباحث أن الإسلام كان عظيماً وهو يستجيب للحاجات والغرائز الفطرية في الإنسان ، قياساً مع بعض الدعوات سواء القديمة منها أو المحدثة والتي تدعو إلى عكس ذلك ، ومن الأمثلة على ذلك ما يعتقده بعض البوذيين حول شقاء البشر وتعاستهم بحيث يرجعون ذلك إلى الشهوات الجسمية ويرون أن لا خلاص للفرد إلا بالزهد والتعفف عما في الحياة من شهوات . أي لا بد للإنسان يحقق لنفسه النرفانا Nirvana ، التي يقصد بها حالة السعادة التي يصل إليها الفرد بابتعاده عن هذه الملذات والشهوات الجسمية ، وانعدام شعور الفرد بفرديته واتحاده بالله والفناء التام في الحياة الآخرة (الرشدان ، ٢٠٠٢) ومن الأمثلة الأخرى ما يسمى بالرهبانية التي ينقطع فيها الفرد للعبادة فلا يتزوج ، وقد بيّن الإسلام أن هذا العمل ليس مطلوباً من الإنسان ، بل هو ابتداع ، وعمل زائد ، قال الله تعالى: **{ورهبانية ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إلا ابْتِغَاء رضوان اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِها فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ}** (الحديد : ٢٧)

* **احترام أفكار الآخرين :**ضرب الإسلام أروع الأمثال في احترامه لأفكار الآخرين . ومناقشة معتقداتهم بالحسنى، إضافة إلى الباب الواسع في حرية التعبير – ضمن شروط معينة – والتفكير إلا في ذات الله – سبحانه– فأن ذات الله لا تحيط بها الفكرة ، كما وقف الإسلام عند

موضوع الدعوة إلى الفجور والزندقة، أو الترويج للإلحاد وأضعاف الدين ، فشدد النكير على من يفعل ذلك .

وقد لاحظ الباحث فهم الذهبي لهذا الموضوع فهو قد وقف بحزم في وجه العاملين بالحكمة الفلسفية الإلهية علماً واعتقاداً مبيناً أن هذه العلوم تخالف ما جاءت به الرسل – عليهم السلام – ولذا فأن دواءها التخلص منها ، ومن المعتقدين بها ، والمروجين لانتشارها .

أما في جانب الخلافات الفكرية ، فقد كان يميل إلى احترام أصحاب الأفكار ، ويدعو إلى التجاوز عن أخطائهم ، وعدم تكفيرهم ، أو الوقوف منهم مواقف العداء أو الجفاء والهجران ، فالعلماء بشر يصيبون ويخطئون ويستغفرون .

ويرى الباحث أن هذه الفضيلة تدل دلالة واضحة على احترام المسلمين لإنسانية الإنسان ما لم يصدر عنه الضرر بالآخرين ، إضافة إلى شيوع أجواء الديمقراطية ، وهذا يفوق السائد في العصر الحاضر ، من الحجر على أصحاب الرأي الآخر والإساءة إليهم .

* **التحذير من التعصب والمذهبية والتقليد الأعمى** : يشير بعض الباحثين إلى أن الأمة الإسلامية ، عانت منذ نهاية القرن الرابع الهجري من شيوع التقليد المذهبي ، والتعصب لذلك إلى حد تحريم بعضهم الاختلاط بمن خالفهم في الرأي والمعتقد ، إضافة إلى انتشار الكتب التي كانت تؤلف نصرة للمذاهب المتبعة ، وتنفيذا للمخالفة، كما أنه كثيرا ما كانت تنتهي الخصومات الجدلية بين الأتباع إلى فتن ومناوشات (الكيلاني ، ١٩٨٥) وقد سبقت الإشارة في مقدمة هذه الرسالة إلى بعض مظاهر المذهبية مثل انتشار المدارس المتخصصة بكل مذهب من المذاهب الأربعة، ووجود قضاة أربعة يمثل كل منهم مذهبا من هذه المذاهب .

ومن الجدير بالذكر أن الذهبي – الذي كان حنبلي المذهب – وقف موقفاً مخالفاً للتعصب المذهبي ، والتقليد الأعمى . فقد أنتقد في رسالته زغل العلم (١٤٠٤ هـ) تصرفات بعض أصحاب المذاهب الذين همهم الحكم بمذهبهم ، وتقليد أئمتهم دون تبصر وتدقيق . ودون تأسي بأصحاب المذاهب الأربعة الأصليين الذين كانوا يعتقدون " أن ما صح من الحديث فهو مذهبهم " وأنهم مجتهدون في المسائل التي يتعرضون لها ، فأن أصابوا فلهم أجران ، وفي خطئهم أجر على كل مسألة .

ومن الدلائل على موقف الذهبي هذا اعتقاده أن المتقيدين بمذهب واحد هم من القاصرين في العلم أو المتعصبين ، وأن تتبع الرخص في المذاهب ، يؤدي إلى ضعف الدين كما أنه لا يجوز لمن أنس من نفسه الفقه وسعة العلم الالتزام بمذهب واحد .

ويرى الباحث أن جذور أسباب ظاهرة التعصب تعود إلى قضية اختلاف الأفهام بين بني البشر فقد قضت مشيئة الله سبحانه خلق الناس بعقول ومدارك متباينة ، إضافة إلى جانب اختلاف الألسنة والألوان والتصورات والأفكار ، مما يؤدي إلى تعد الراء والأحكام واختلافها باختلاف القائلين بها ، ومن هنا يمكن القول أن ظاهرة الاختلاف بهذا المفهوم هي من الأمور الطبيعية ، وهي في الإسلام ليست بالجديدة بل أنها بدأت على عهد رسول الله ﷺ فقد اختلف الصحابة – والرسول ﷺ بين ظهرانيهم – في تفسير حديث " **لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة** " [١] حيث صلى بعضهم في الطريق ، وأنتظر آخرون حتى أتوا ديار بني قريظة ومع ذلك فأن النبي ﷺ لم يعنف واحداً منهم – وهذا دليل على أن بعض الاختلاف من الأمور الطبيعية التي لا يتوقف عندها – ، لكن الأمر اشتد في العصور الإسلامية المتعاقبة بخاصة في موضوع الاجتهاد إلى أن اتخذ ذلك المنحى الخطير من الاختلاف المذموم ، وما تبعه من مذهبية وتعصب .

والناظر في أحوال العصر الذي نعيش يجد أم من حسناته تضاؤل تلك الظاهرة بالمفهوم السابق بخاصة في دور العلم الرسمية ولا يعني هذا الاختفاء الكلي للظاهرة ، بل أن المتتبع لذلك يلاحظ أن بعض بذور التعصب لا تزال قائمة بخاصة بين بعض الفرق والجماعات في بلاد العرب والمسلمين ولكن بدرجات متفاوتة وبأشكال متنوعة . وهــذا – لعمري– من مظاهر الضعف والفرقة ، خاصة إذا حوربت الأفكار والآراء ، وأنتشر الكيد بين الجماعات .

ويرى الباحث أن المعنيين بالتربية ومناهجها بشكل خاص يقع عليهم العبء الأكبر في التصدي لهذه الظاهرة بحيث يتم ذلك من خلال خطوات يبتدؤون فيها مع الطلبة منذ الصغر لتدريبهم على احترام بعضهم بعضاً وعدم التعصب لآراء معينه تحتمل أن يكون فيها الصواب والخطأ إضافة إلى تجنب التقليد الأعمى دون تمحيص .

الأخلاق الجماعية المجتمعية

كان من أبرز ما أمكن للباحث استخلاصه من أفكار الذهبي حول الموضوع :

*** الدعوة إلى التواضع والابتعاد عن الكبر والعجب والخيلاء :**

لا شك أن الفضائل المذكورة هي من الفضائل الفردية إلا أن آثارها لا تظهر إلا من خلال العلاقات الاجتماعية .

وقد نص الإسلام على التحلي بهذه الأخلاق فقال تعالى موصياً رسوله ﷺ بالتواضع – بخاصة للمؤمنين من أتباعه**{ وَاخفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ المُؤمِنِينَ}**(الشعراء : ٢١٥) وقال على لسان لقمان الحكيم **{ وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمشِ فِي الأرض مَرَحَاً أن**

---

(١) رواه البخاري ، كتاب صلاة الخوف ، باب صلاة الطالب والمطلوب (٩٤٦) ٢/٥٠٦

اللهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُختَالٍ فَخُور } (لقمان:١٨) وقال عليه السلام في الحديث عن أبي هريرة – رضي الله عنه – (وما تواضع أحد لله إلا رفعه) [١] , وقال ﷺ محذرا " لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من كبر " [٢]

وقد لاحظ الباحث من تتبعه لسيرة الذهبي أنه كان آية في التواضع . ومن شواهد ذلك، أنه وصف نفسه بالنقص في العلم والعمل حين ترجم لنفسه ، وما تقدم بنصيحة لأحد إلا وضع النقص المراد علاجه في نفسه . كي لا يجرح الآخرين ، وكان يوصي العالم بالتواضع والصمت أن أعجبه كلامه .

أما حول الكبر والعجب والخيلاء ، فقد كان ينصح الطلبة بالحذر من التكبر والعجب بالعمل ، ويرى أن العالم إذا تكبر مجته نفوس العقلاء .

ولا شك أن من يتمثل خلق التواضع وعدم الكبر والعجب سيكون محبوبا من الناس ، ومقبولاً لديهم ، ويرى الباحث أن للدول والأنظمة والمعتقدات السائدة فيها دوراً كبيراً في شيوع هذه الأخلاق من عدمها ، فالإسلام بدوله وعلمائه يدعو إلى هذه الفضائل ، بينما يلاحظ أن الأنظمة التي يسودها نظام الطبقات أو الإقطاع تسهم بشكل كبير في شيوع التفرقة ، سواء بين الشعوب [٣] ، أو بين أبناء الشعب الواحد،[٤] وبالتالي فمن يتبوأ المنزلة العليا فأنه يرى نفسه على من دونه فيتكبر عليه ولا يخالطه إلا مخالطة السادة للعبيد ، وبالتالي فأن الأنظمة الفرعية في الدولة كالنظام الاقتصادي ، والاجتماعي ، والثقافي ، والسياسي ستتأثر بشكل كبير بسياسة الدولة .

*** نبذ الخلافات بين المعلمين واستبدال ذلك بالتعاون والاحترام المتبادل** :أفرد الباحث في الفصل الثالث من هذه الرسالة عنوانا لموضوع العلاقات بين العلماء/المعلمين

أنفسهم، حيث بين بعض آراء الذهبي وأفكاره حول الموضوع وفق ما استخرجه من كتبه ومصنفاته . وقد رأى الباحث قبل مقارنة هذه الأفكار مع مثيلاتها في التربية الحاضرة أن يبين بشيء من الاختصار بعض ما يتعلق بموضوع الاختلاف وما يتصل به فهو من أبرز أسباب سوء العلاقات بين المعلمين .

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب البر والصلة والآداب ، باب استحباب العفو والتواضع ١٤١/١٦
(٢) صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، باب تحريم الكبر وبيانه ٨٨/٢
(٣) أنظر ، بروتوكولات حكماء صهيون ، ونظر يهود إلى غيرهم ممن يطلقون عليهم (الغوييم) .
(٤) أنظر ، التربية عند الهنود ، واليونان وتأثرها بنظام الطبقات (الرشدان ، وجعنيني ص١٠٤ , ص١٢٠)

أشار العلواني (١٩٨٧) إلى أن فلاختلاف يكون على درجات متفاوتة، وبدوافع عديدة مثل الاختلاف الذي يدفع إليه العلم ويقتضيه العقل كمخالفة أهل الشرك والنفاق وبيان أمرهم للناس ، أو الاختلاف في الأمور الفرعية بين أهل العلم أو الاختلاف لهوى النفس وحب الذات

والاختلاف قد يكون ظاهرة إيجابية أن حسنت النوايا فتبرز فوائده مثل : رياضة الأذهان، وتلاقح الأفكار ، وفتح مجالات التفكير بما يؤدي إلى تعدد الحلول لكل واقعة ، كما أنه يمكن أن يكون ظاهرة سلبية بخاصة إذا كانت دوافعه غير سليمة ، وتجاوز حده من مغايرة في الرأي أو الموقف إلى الجدل فالخصومة فالشقاق ، كما ظهر في قضية المذهبية والتعصب الأعمى التي أشير إليها سابقاً .

وقد لاحظ الباحث من خلال تتبعه لأفكار الذهبي أن هذا الموضوع لقي عناية كبيرة من الإمام فقد أشار إلى أن موضوع الاختلافات بين العلماء هو من المواضيع القديمة الحديثة ، وبين بعض أسبابها وصورها ومظاهرها وإيجابياتها وسلبياتها ، وقدم نصائحه لتجنب الاختلافات وما ينتج عن بعضها من مشاكل متنوعة فأشار إلى ضرورة عدم الحجر على الانتقاد المتبادل بين العلماء بخاصة إذا كان بأدب وخلق ، ومشفوع بالنية الحسنة ، كما أشار إلى أن باب الاجتهاد مفتوح لا يغلق ولكل مجتهد نصيب من الأجر ، ورأى أن من الأسباب التي تؤدي إلى زيادة أواصر المحبة بين أهل العلم أن يغض النظر عن الزلات البسيطة وأن يتم التخاطب بين العلماء بالود والحسنى .

وهكذا يمكن القول أن الذهبي كان سباقا في آرائه وأفكاره حول الموضوع ، فقد وضع يده على أسباب الأزمة ، وقدم بعض المقترحات لحلها تقترب في كثير من جوانبها من المطالب به في التربية في العصر الحاضر ، فقد وضّح ميالاريه (١٩٨٥) أن وجود المناخ التربوي السليم الأمن ، ومراعاة الفوارق بين شخصيات المربين ، وتعاونهم فيما بينهم ، وضرورة الانسجام

والتناغم يخلق مناخا اجتماعيا ملائما لتكامل تنشئة التلاميذ كما أوصت بعض المواثيق الدولية والعربية [١] بضرورة إيجاد وسائل التعاون والتنسيق بين كليات التربية والمعلمين في الوطن العربي ، وضرورة توطيد علاقات الزمالة بين أفراد أسرة التعليم ، وقيامها على الثقة والاحترام المتبادلين ، والتعاون المثمر على أداء واجبات المهنة وتذليل صعوباتها .

---

(١) أنظر – ندوة عمداء كليات التربية والمعلمين بالجامعة العربية التي عقدت في الجامعة المستنصرية ببغداد سنة ١٩٧٤ إبراهيم مطاوع ، أصول التربية

– ميثاق المعلم العربي ، الذي أوصى به المؤتمر الثالث لوزارة التربية والتعليم العرب سنة ١٩٦٧ ، رشيد عبد الحميد ,ومحمود الحياري , أخلاقيات المهنة

أما أخلاقيات مهنة التعليم التي أقرتها وزارة التربية والتعليم الأردنية ، فقد جاء فيها تحت عنوان " مسؤوليات المعلم تجاه زملائه " ما يماثل بعض ما ذهب إليه الذهبي ، ومن ذلك اعتراف المعلم لزميله بالمساعدة المهنية التي يقدمها له ، وعدم انتقاد الزملاء بقصد التشهير بهم، وأن لا يشي بهم ، ولا ينشر الإشاعات عنهم ، وأن لا يوقع الفتنه بينهم (جرادات ، وآخرون ، ١٩٨٤) .

ومن الأخلاق الأخرى في هذا المجال التي يمكن تلمسها في فكر الإمام :

- **الصبر** : وهو من الأخلاق المحببة خاصة عند الابتلاء : قال الذهبي بعد ذكره لقصة الإمام مالك مع والي المدينة جعفر بن سليمان (ت ١٧٤هـ) ، حيث رفع إليه عن الإمام ما يكره فأمر بعقابه. قال :" المؤمن إذا امتحن وصبر واتعظ واستغفر ولم يتشاغل بذم من أنتقم منه ، فالله حكم مقسط ، ثم يحمد الله على سلامة دينه ، ويعلم أن عقوبة الدنيا أهون وخير له " (الذهبي ، ٢٠٠١ ، ١٤).

ويستفاد من قول الذهبي ضرورة صبر المسلم على من ظلمه ، وعدم التشاغل بالانتقام منه ، وإنما الاستمرار في العمل ، وترك الأمر لله سبحانه فهو الحكم العدل .

- **الصدق** : وهو خلق محمود ، حيث رأى الذهبي أن فضيلة الصدق – إذا رافقها التقوى ، وعدم الدعوة إلى البدع المخلة بالاعتقاد – فأنها تجعل من صاحبها مقبولاً لدى الآخرين موثوقاً به .

– **النميمة** : وهي من الأخلاق التي حذر منها المولى سبحانه ، ورسوله الكريم ﷺ ، وقد استنكر الذهبي كلام بعض العلماء في آخرين مستندا إلى ما نقل له عنهم ، فقال : قبح الله من ينقل البهتان ، ومن يمشي بالنميمة . (الذهبي ، ٢٠٠١ ، ١٤) .

– **الغضب والحدة** : وقد حذر الذهبي من هذا الخلق – خاصة إذا كان الأمر دنيوياً – كما بين بعض آثاره ومنها القطيعة والهجران بين المسلمين ، وتأثيراته النفسية على من يتصفون بهذا الخلق .

– **الرحمة بالأبناء والعطف عليهم** : وهذا الخلق مطلوب من الجميع بغض النظر عن مراكزهم الاجتماعية ، بل هو من أبرز واجبات الآباء تجاه أبنائهم ، فقد عاب الذهبي على من علّم ابنته وأدبها ، لكنه لم ينظر إليها قط مبيناً أن هذا الفعل مخالف للسنة النبوية .

– **اختيار البيئة الصالحة والتحذير من الرفقة السيئة** : ومن آراء الذهبي حول الموضوع ، ضرورة إبعاد الأهل عن الجيران ذوي الأخلاق السيئة ، وقطع الود معهم مبيناً الآثار السلبية التي قد تلحق بالأسرة (الام ، والأخت ، والابن ، والابنة) وحتى الخدم ، من الرفقة السيئة ، ويوضح أن هذا الأمر يجب أن يكون بأسلوب لطيف لكنه حازم ، إضافة إلى التحذير من رفقة الكفرة والمشركين أن كان ذلك يؤثر على عقيدة الأبناء ، مبينا أن هذا لا يعني مقاطعة الجار النصراني مثلاً ، بل لا بد من معاملته بلطف ، والإهداء إليه وتقبل هداياه ، أما أن وصل الأمر إلى المس بالعقيدة ، فعدم الموالاة أولى .

الأخلاق المهنية :

ربما يحتاج هذا الموضوع – للإحاطة به – إلى دراسة متخصصة لتشعبه لدى الإمام وكثرة فروعه ، ومن أبرز الأخلاق المهنية لدى الذهبي :

*** ضرورة أتأن المعلم لعمله :**

ولعل هذا الأمر من البدهيات التي دعت إليها التربية على مر العصور ، فتضع الخطط، وتدرب المعلمين على ذلك ، بهدف تحسين العملية التعليمية باستمرار.

وقد حض الإسلام على إحسان العمل وأتقنه فقال تعالى **{ أنا لا نُضِيعُ أجر مَن أحسَن عَمَلاً }** (الكهف : ٣٠) ، وقال ﷺ " **أن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه** "[1] .

أما مساهمات الذهبي في هذا المجال فقد تمثلت في موافقته لما ذهب إليه بعض العلماء حول أهمية كون العالم ضابطا وحاذقا في صنعته ، إضافة إلى انتقاده للعلماء الذين يكتبون ، ولا يدققون في عملهم ، وبالتالي فأنهم لا يتقنونه

وقد نادت التربية الحاضرة بضرورة إتقان المعلم لعمله . فقال بعضهم أن كفاية المعلم في التواصل وإتقانه مهاراته وفنونه تعد متطلبا أساسيا لقدرته على أحداث التعلم ، والمعلم الذي لا يتقن فنونه لا يستطيع النجاح في أدائه لمهماته التعليمية (بلقيس ، ١٩٧٧) ورأى آخرون أن المعلم الماهر هو الذي يعيد بناء نفسه باستمرار ، لينمو مهنيا وبالتالي يزداد إتقانا ، فالحصول

(١) أنظر: مسند أبي يعلى الموصلي ،حديث رقم (٤٣٨٦)، ٣٤٩/٧

على شهادة ...والتعين في وظيفة للتدريس لا يعني نهاية نمو المعلم مهنيا ، بل هو بداية نمو جديد يحتـــاج إلى عمـــل متواصل من جانب المعلـــم (عبد النور ، ١٩٧٧) .

ومن الجدير بالذكر في هذا المقام أن المؤسسات التربوية المختلفة تقوم بدورها في هذا الشأن من خلال تدريب المعلمين لتحسين نموهم المهني ورفع كفاياتهم بما يزيد من إتقانهم لعملهم خدمة للتلاميذ الذين هم الهدف الأسمى للعملية التعليمية/التعلمية .

*** التحري والتثبت في نقل العلم وتعليمه :**

ويمكن أن تدخل هذه الفضيلة ضمن فضيلة إتقان المعلم لعمله ، فالمعلم المتقن هو الذي يحرص على أن يوصل لتلاميذه الحق وعين الحقيقة التي لا شك فيها ، بعد أن يكون قد تأكد من صحة ما نقله ، ومن مظاهر إعلاء الذهبي لقيمة خلق التحري والتثبت أنه عاتب أهل العلم الذين لا يدققون في الأحاديث التي ينقلونها عن غيرهم ليعرفوا صحيحها من واهيها قبل نقلها للآخرين كما أنه رأى أن من عرف عنه تحريه للحق يكون موضع احترام من الجميع ، ويعفى عن زلـــله أن أخطأ.

ويعتبر الذهبي سباقا في هذا الأمر ، حيث عدَ هذا الخلق من أخلاقيات مهنة التعليم من منظور عالمي ، فمعظم الأنظمة التربوية في مختلف المجتمعات تتفق على مبادئ أساسية لمهنة

التعليم ومنها ، احترام حق كل تلميذ في الحصول على المعلومات الصحيحة و حسن الإفادة منها في حياته المستقبلية (عبد الحميد ، والحياري ،١٩٨٥) كما أن ووزارات التربية والتعليم اليوم تسعى جهدها إلى أن تكون المعلومات المقدمة خلال المناهج المقررة صحيحة بنسبة عالية ، إضافة إلى أنها تفتح للطلبة باب البحث و التحري سواء للتحقق من صحة المعلومات ،أو البحث عن المستجد منها .

ويرى الباحث ضرورة إعطاء المزيد من الاهتمام حول موضوع إجراء الأبحاث مع التأكيد على التثبت والصدق وتدريب الطلبة على ذلك منذ الصغر .

*** عدم التحدث بوجود من هو أعلى منه ، أو حتى يبلغ منزلة تؤهله للتعليم :**

كان مما اعتاده أهل العلم أن يعقدوا في كتبهم و مؤلفاتهم باباً حول توقير العلماء والكبار

وأهل الفضل [١] مستشهدين ببعض الآيات و الأحاديث الدالة على فضل تمثل هذا الخلق ومن ذلك قوله تعالى: **{قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعلَمُونَ}** (الزمر:٩). وقوله ﷺ في الحديث الذي يرويه عقبة بن عمرو البدري الأنصاري – رضي الله عنه – "**يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله ، فأن كانوا في القراءة سواء فأعلمهم بالسنة ، فأن كانوا في السنة سواء فأقدمهم هجرة ، فأن كانوا في الهجرة سواء فأقدمهم سنا ، ولا يُؤُمَّنَ الرجلُ الرجلَ في سلطانه ولا يقعد في بيته على تكرمته إلا بإذنه** " [٢] .

وعن أبي سعيد سمرة بن جندب – رضي الله عنه – قال : " لقد كنت على عهد رسول الله صلى الله عليه غلاما فكنت أحفظ عنه ،فما يمنعني من القول إلا أن ها هنا رجالا هم أسن مني "[٣]

والمتأمل لما سبق يجد أن الذهبي كان متمثلاً خلق الإسلام وهو يدلي بدلوه في هذا الموضوع فقد كان يرى أن من الأدب احترام العالم لمن هو أسن منه ، وأتقن منه علماً ، فلا يحدث بوجودهم كما كان ينتقد الذين يتصدون للاجتهاد و الفتوى ولمَا يبلغوا منزلة تسمح لهم بذلك .

وتعد هذه الأخلاق المذكورة من البدهيات في هذا العصر و مما تضعه المناهج التربوية ضمن أهدافها و تطلعاتها ، فهدف احترام الكبار وتوقيرهم موجود ضمن مجالات النمو التي

تسعى التربية لإيجادها لدى الأبناء [٤] ، أما النصح بعدم التصدي للاجتهاد و الفتوى إلا بعد الوصول إلى منزلة تسمح بهذا ، فقريب منه اشتراط حصول المعلمين على إجازة التعليم كي يسمح لهم بممارسة المهنة .

*محاسبة النفس وممارسة النقد الذاتي :

من المعلوم أن المحاسبة هي نوع من التقويم لأعمال الإنسان ، يعقبها الثواب أو العقاب، وقد اهتم الإسلام بضرورة أن يتأمل الإنسان أعماله ، فيحاسب نفسه بشكل دائم بحيث يستمر أن

---

(١) النووي , رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين .
(٢) صحيح مسلم ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب من أحق بالإمامة ، ١٧٢/٥
(٣) صحيح مسلم ، كتاب الجنائز ، باب أين يقوم الإمام من الميت للصرة عليه ، ٣٢/٧
(٤) أنظر : منهاج التربية الإسلامية وخطوطه العريضة في مرحلة التعليم الأساسي – الأردن – "الأهداف الخاصة والكفايات التعليمية" .

كان عمله حسناً ، ويتوقف – مع التوبة – أن كان مخطئا ، ومن كلام وهب بن منبه قال في حكمة آل داوود :"حق على العاقل أن لا يغفل عن أربع ساعات من بينها ساعة يحاسب فيها نفسه" [١] ، وقال عمر بن الخطاب (حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم) (فرحان ، وآخرون ، ١٩٨٤) .

وقد تمثل الذهبي هذا الخلق الفضيل فكان يدعو إليه مبينا آثاره ، ومن ذلك أنه رأى محاسبة النفس جزءاً من تقوى الله سبحانه ، تعين الإنسان على التوبة من الأخطاء التي يقع فيها ، كما تعينه على تعديل سلوكاته بما يرضي عنه الله ثم من يتعامل معهم ولذا فهو يرى أن تكون المحاسبة يجب أن تكون مستمرة غير منقطعة ، فالنفس دائما محبة للظهور والثناء .

وقد استخدم المربون المحدثون هذا الخلق في العصر الحاضر ، وجعلوه ضمن أبرز الاتجاهات الإيجابية التي تسعى التربية لتمليكها للمتعلم[٢] ، ولعل هذا الخلق يقترب من أحد المفاهيم التربوية الحديثة التي تعرف بـ "التفكير التأملي " والذي ازداد الاهتمام به لتمليك مهاراته للمعلمين ، فقد رأى شون (Schon) أن الخبرة التعليمية تبنى بالتدرج من خلال المرور بمواقف تعليمية معينة ، من أبرزها تفاعل المعلم مع نفسه في هذه المواقف ، التي تقتضي منه التأمل في ممارساته ، وإعطاءها التفسيرات والتبريرات قبل اتخاذه القرارات الخاصة بشأنها ، لذا فقد اقترح ثلاث مراحل لتنمية التفكير لدى المعلمين ، الأول قبل التفكير في العمل بحيث يكون التخطيط له واعيا ، والثانية في أثناء العمل ، حيث يعمل المعلم المتأمل على تعديل سير

الحصة في أثناء العمل في ضوء استجابات الطلبة وتقبلهم للأنشطة . أما المرحلة الثالثة فتكون بعد انتهاء العمل حيث يقوم بتحليل سلوكاته التعليمية ، ونقدها وتقويمها في ضوء التغذية الراجعة التي حصل عليها بعد تنفيذ المهمات التعليمية (مصطفى ، ٢٠٠٠) .

العناية بالمظهر والملبس والنظافة :

حض الإسلام على الاعتناء بالملبس والزينة والمظهر والنظافة ، قال تعالى **{يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُم عِندَ كُلِّ مَسجِدِ }** (الأعراف : ٣١) وقال ﷺ " **كلوا واشربوا والبسوا**

---

(١) أنظر : أبو عبيد القاسم بن سلام ، الخطب والمواعظ ،رقم النص (٥٥) ص ١٤٠-١٤١
(٢) أنظر : منهاج التربية الاجتماعية والوطنية وخطوطه العريضة – الإساس الإجتماعي للمنهاج .

وتصدقوا من غير إسراف ولا مخيلة " [1] وقال أيضا : " **أن الله طيب يحب الطيب ، نظيف يحب النظافة ، فنظفوا أفنيتكم ولا تشبهوا باليهود** " [2]

وقد تنبه الذهبي إلى هذا الأمر فجعل من آداب المحدث التأسي بما كان يفعله الإمام مالك قبل جلوسه للحديث من الاغتسال والتطيب ، ولبس الثياب الحسنة ، إضافة إلى ما ورد حول إعجابه بسمت بعض المعلمين وسكونهم ، وقوله بجواز لبس المشهور من الثياب بشرط أن يكون ذلك ضمن وسائل إعزاز الدين، وإرغام المنافقين ، دون بذخ أو تيه أو فخر (الذهبي ، ٢٠٠١، ١٤)

وغني عن الذكر أن التربية الحديثة تهتم بهذا الخلق وتركز عليه ، حتى أن بعض الدول تجعل للمتعلمين لباسا خاصا بهم ، وكذلك للمعلمين ليتميزوا بذلك ، ثم أن مراقبة نظافة الطلبة والتركيز على حسن مظهرهم هو مما لا يختلف عليه اثنان .

تحمل فلانتقاد والاعتراف بالخطأ والرجوع عنه :

قال عليه الصلاة والسلام مبينا حق المسلم على المسلم في تقديم النصح والإرشاد "**المؤمن مرآة المؤمن** " [3] .

وقد بين الذهبي رأيه في الخلقين أعلاه فأنتقد الذين يرفضون انتقاد التلميذ لأستاذه ، مبينا أن من يرفض هذا الأمر فأنه لا يفلح أبدا ، فهو ليس معصوماً عن الخطأ ، كما اعتبر أن الاعتراف بالخطأ حال وقوعه والرجوع عنه يعد من تثبت العالم وورعه وتقواه .

وقد تنبه القائمون على المناهج في العصر الحاضر إلى أهمية هذا الخلق فوضعوه ضمن مجالات النمو المراد تطويرها ، وجعلوا من أهدافهم في هذا المجال تدريب الطلبة على تقبل الرأي المخالف ، واحترام صاحبه والتسامح معه ، ثم الاعتراف بالخطأ والاعتذار عنه (٤)

ومن الجدير بالذكر أن الذهبي لم يترك قضية الانتقاد عائمة بل وضع لها بعض القواعد ليحسن الاستفادة منها ، فقد بيّن أن العلماء بشر يصيبون ويخطئون ، ولا يجوز أن نوصلهم إلى

---

(١) رواه البخاري ، كتاب اللباس، باب قول الله تعالى قل من حرم زينة الله ... (٥٧٨٣) ٢٦٤/١٠

(٢) رواه الترمذي ، كتاب الأدب عن رسول الله ﷺ ، باب ما جاء في النظافة .

(٣) رواه أبو داوود ، كتاب الأدب ، باب في النصيحة والحياطة (٤٩١٨) ص٧٣٧

(٤) أنظر : منهاج التربية الاجتماعية والوطنية وخطوطه العريضة ، الأهداف والكفايات الخاصة بالمبحث ، مجال النمو العقلي

درجة العصمة بحيث ينطبع في أذهان بعض الطلبة والعامة أنهم لا يخطئون ، وأشار إلى أن العلماء لا يصلون إلى درجة الكمال ، والإحاطة بكل العلوم ، فهم قد يكونون مبدعين في علوم مقصرين في غيرها ، وشدد على أن الاعتراض على المعلم ونقده ، يجب أن يكون لأسباب وجيهة ، وأن يتم في حدود اللياقة والأدب ، مشترطا في المنتقد أن يكون عادلاً ورعاً ، كما أشار إلى عدم الإكثار من النقد والمبالغة فيه وأن كان لا بد منه فقد رأى تجنب التحيز الذي يتم فيه أنتقاد بعض المعلمين وغض النظر عن آخرين تعصباً لهم .

الاجتهاد في العناية بالمتعلمين وتقديم العون لهم :

يعد هذا الأمر الوظيفة الرئيسة للمعلم ، وأبرز الواجبات المناطة به ، فالمتعلم هو محور العملية التعليمية/التعلمية وهدفها الرئيسي ، لذلك كان من أبرز أفكار الذهبي حول الموضوع أنه امتدح الساعين في مصالح تلاميذهم والمجتهدين في ذلك واصفاً إياهم بالخيرية والورع ، ومبيناً بعض الواجبات المناطة بهم مثل : حسن تقديم النصح للمتعلمين ، واختيار الموضوعات المناسبة للتلاميذ ، وتقديمها مراعيا الأولويات ، ومخاطبة المتعلمين على قدر عقولهم إضافة إلى ضرورة أن يكون المعلم قدوة حسنة لتلاميذه فيراقب ما يصدر عنه بحيث تبقى منزلته محفوظة بين

التلاميذ ومن يتعامل معهم ، كما أن المطلوب من المعلم أن يجتهد على نفسه ليكون نموه المهني والمعرفي مستمراً طيلة الحياة وأن يتوج ذلك بالإخلاص وصدق النية .

ولعل ما ذكر من آداب وأخلاق حول الموضوع لا يبتعد كثيراً عما تنادي به التربية في العصر الحاضر ، والشواهد على ذلك كثيرة ، فالناظر في كتب التربية وأخلاقيات المهنة يجد التركيز على الأدوار والمسؤوليات العديدة للمعلم بحيث يكون معلماً ، وناقلاً للخبرة ، وموجهاً ومرشداً ، ومعززاً ومشجعاً ، إضافة إلى ضرورة سعيه نحو تطوير نفسه باستمرار [١]

التوقف عن التعليم في حال عدم القدرة

لمس الباحث تعليقات للذهبي حول هذا الموضوع تبين أنه كان لديه بعض المعلومات حول أحوال الإنسان وما يمكن أن يطرأ عليه من تغييرات مختلفة ، فقد فرق بين الاختلاط

(١) أنظر مثلاً : عبد الحميد والحياري ، أخلاقيات المهنة ، وعزت جرادات وآخرون ، التدريس الفعال .

والتغير مبيناً أن الأخير يصيب كل أنسان مع تقدمه في السن ، وهذا ليس بضار إلا بقدر تأثيره، أما الاختلاط فهو ما يصيب الذهن لعوامل متعددة ، فتصدر عن الإنسان أقوال وأفعال ليست طبيعية ، كان يخالف المعروف أو يضطرب في نقله وتبليغه أو تعلمه وتعليمه ، أما الخطأ والنسيان فقد عدّه الذهبي من الأمور العادية التي لا يتوقف عندها كونه من طبيعة البشر .

ومما سبق فقد ذهب الإمام إلى أن من الأدب والخلق الحسن أن يتوقف المعلم –تورعاً– عن الاشتغال بالعلم أن لمس عدم القدرة في نفسه ، أو أن يعمل أهله وإخوانه على منعه من ذلك أن لمسوا فيه اختلاطا وتغيراً يخرجه عن دائرة الصواب .

وتشير الدراسات[١] إلى أن الذهبي ، قد فصل في هذا الأمر – بخاصة في علم الحديث وموضوع الجرح والتعديل الذي اشتهر به – وأن كان هذا التفصيل مختصاً بهذا العلم والمشتغلين به ، إلا أن الباحث يرى أنه يمكن أن ينطبق على المعلمين بعامة ، فالمتابع لما يجري في حقل التعليم في هذا العصر وغيره يلاحظ وجود عدد من المعلمين الذين يظهر منهم ضعفاً شديداً في عطائهم المتعلق بعملهم ، أو تصدر عنهم سلوكات وتصرفات مردها إلى كبر السن أو طول الخدمة ، أو الطبيعة والقدرة ، وهؤلاء يلزم ترتيب أوضاعهم بحيث يتوقفون عن العمل من تلقاء أنفسهم حفاظاً على هيبتهم أو توضع قوانين تلزمهم التوقف ، وفي كلا الحالتين يلزم تعويضهم بما يحفظ لهم رزقهم .

ومن الأفكار الأخرى التي ترتبط بالأخلاق المهنية والتي سبقت الإشارة إليها وتفصيلها في ثنايا الدراسة :الاهتمام بالوقت واستثماره ومراعاة الفروقات الفردية وربط العلم بالعمل والنظرية بالتطبيق .

---

(١) أنظر : محمد الثاني بن عمر موسى ، ضوابط الجرح والتعديل عند الذهبي ص٤٨٧-٥١٠

أساليب التعليم ووسائله وقواعده في فكر الإمام والفكر المعاصر

أشار بعضهم إلى أن العلماء والباحثين في التربية لم يتوصلوا إلى تحديد أسلوب تدريس معين في جميع الحالات ، ومع كل الأعمار ، وفي جميع المواد التدريسية ، وتحت كل الظروف والملابسات المكانية والزمانية (الطويبي ، ١٩٩٢) .

وبالنظر إلى أساليب التدريس وقواعده التي مرت في كتاب الإمام الذهبي ومصنفاته سواء تعلم من خلالها ، أم علّم بها ، أم كان له تعليقات على استخدامها ، لمس الباحث أن هذه الأساليب كانت مشتهرة في عصره ، والعصور الإسلامية التي سبقته ، وقد ذكر بعضها غير واحد من علماء التربية المسلمين .

ويمكن القول أن بعض هذه الطرق قد اختفى مع تقدم بعض أساليب التعليم الحديثة ، وبعضها ظل من الأساسيات التي بنيت عليها أساليب العصر الحاضر .

فمن الطرق التي لم يعد معمولا بها بشكل واسع ، بخاصة أنها كانت مرتبطة بأماكن التعليم المختلفة – غير المدارس – ولخصوصية تناولها للعلوم الدينية وعلى رأسها الحديث النبوي الشريف وعلومه حتى أنها عرفت في ذلك العصر تحت عنوان " طرق التحمل وصيغ الأداء " يمكن الإشارة إلى ما يلي :

* **الإجازة والأصناف المتعلقة به مثل :** المناولة ، والوجادة ، والمكاتبة ، وكلها تفيد إجازة العالم علومه ومروياته ومصنفاته لطلبته بحيث يمكنهم الاعتماد عليها ، ونقل ما فيها إلى الآخرين .

* **القراءة والعرض :** وقد اشتهرت هذه الطريقة لعدم وجود الطباعة ، حيث كان الطالب يقرأ على شيخه ما نقله عنه ، أو يستمع إلى قراءة غيره فيصحح ما كتب .

* **المذاكرة :** وهذا الأسلوب شاع عندما كان الطلبة يجالسون بعضهم بعضا ، أو يجلسون مع معلميهم يتذاكرون العلم فيما بينهم ، وقد يكتب بعضهم عن بعض خلال ذلك .

* **المقابلة :**أي مقارنة ما كتب الطالب بالأصل الموجود لدى معلمه ، وقد رأى الباحث أن هذا الأسلوب لا يزال معمولا به لدى بعض طلبة العلم الشرعي والعاملين في المخطوطات ، حيث يتم مقابلة المطبوع بالمخطوط للتأكد أو التصحيح .

* **الإملاء والاستملاء :**وهو من الطرق التي اشتهرت كثيرا ، والتي كان يتقوى بها العلماء، فيذكرون أنهم قد أخذوا علومهم إملاءً عن شيوخهم ، مما يزيد الثقة بما لديهم ، إلا أن هذا الأسلوب قد بدأ يختفي حتى أنه كان قليلا أيام الذهبي ، كما ذكر هو .

* **السماع :** وقد انتهى العمل بهذه الطريقة إلا ما يتم أحيانا في دروس الوعظ والإرشاد وشرح الكتب في المساجد من قبل بعض الشيوخ وطلبة العلم الشرعي .

* **التعليق :** ولم تكن هذه الطريقة مشهورة إلا عند الزملاء من طلبة العلم ، وقد يوجد في عصرنا مثله كان يكتب الزميل عن زميله شيئا يعجبه ، أو يقوم بتصويره ، أن عجز عن شراء الكتاب أن وجد .

أما من الأساليب التي استمر العمل ببعض مظاهرها ، فيمكن ملاحظة ما يلي :

* **أسلوب الملازمة :**وهو من الأساليب التي كان يتفاخر من تحصّل على علمه من خلالها ، حيث يكون أدرى بعلم شيخه وسلوكاته وأخلاقه من غيره من الطلبة لمداومة ملازمته إياه .

وكان طلبة العلم ينظرون إلى علم هذا الملازِم (بكسر الزاي) بثقة أكثر من غيره ، فهو قد تخصص في علمه ، كما أن العلماء – أنفسهم – كانوا على دراية بهؤلاء الطلبة ، وأكثر رضى عنهم من غيرهم من طلبة العلم ، ولذلك فقد اعتنوا بهم بدرجة أكبر .

ويرى الباحث أن هذا الأسلوب ، ربما لا يزال معمولاً ببعض مظاهره – خاصة في أمور التدريب العملي لطلبة العلوم المختلفة – ويلاحظ هذا في نظام " الامتياز " في التدريب

الطبي ، حيث يلازم الطبيب المتدرب ، طبيبا مختصا يتعلم على يديه ، ويعاونه ، كما يمكن مشاهدته في برنامج التربية العملية في كليات التربية ، حيث يلازم الطالب / المعلم ، معلما بعينه لفترة يتدرب على يديه تخطيطا وتنفيذا .

كما يعتقد الباحث أن نظام " معلم الصف " المعمول به في صفوف الحلقة الأساسية الأولى ، من الأول – الثالث . فيه شبه من هذا الأسلوب ، حيث يرى التربويون أن ملازمة الطالب – مع مجموعة من زملائه – لمعلم واحد فيه فوائد كثيرة تخدم المرحلة النمائية التي يمر بها الطلبة وتتوافق مع متطلباتها مثل مضار وجود أكثر من موجه ومعلم للطفل في هذه المرحلة ، وأن المعلم يكون بمثابة الأب لهؤلاء الطلبة يتحسس مشاكلهم ، ويتعاون مع الأسرة في حلها ، إضافة إلى كونه قدوة وحيدة لهم .

* **أسلوب المناظرة :** كان من فوائد هذا الأسلوب أنه كان يعود بالنفع على كلا المتناظرين ومشاهديهم ، حين ينجلي الغموض ويتبين الصحيح من الأفكار ، إضافة إلى ما يثيره هذا الأسلوب لمكامن التفكير لدى الناس ، كما قرن بعضهم مفهوم المناظرة بمفهوم الجدل وأشار بأن منهما ما هو سلبي ، ومنها ما هو إيجابي بحسب الغرض من العملية (حسن ، ١٩٩٩) .

وقد لاحظ الباحث أن الذهبي قد أشار إلى هذا الأسلوب ، فذكر أن من أبرز صفات المجتهد أن يكون قوي المناظرة ، كما أنتقد الذين يضيقون بالمناظرة ، بحيث يبدو ذلك على ملامحهم .

ومن المعروف أن أسلوب المناظرة يعد من الأساليب غير المباشرة في التعليم ، ومن مثيلات هذا الأسلوب في العصر الحاضر ما يعرف بالندوات ، وما يحدث فيها أحيانا من مناظرات وجدال وردود بين المشاركين ، إضافة إلى المناظرات المكتوبة على شكل ردود بين أهل العلم .

* **أسلوب الوعظ والنصح والإرشاد :** يعد هذا الأسلوب من الأساليب التي استخدمها القرآن الكريم بغزارة ، وأشار إليها في أكثر من موقع قال تعالى : **{ وَاذكُرُوا نِعمَةَ الله عَليكُم ومَا أنزلَ عَليكُم مِن الكِتابِ والحِكمَةِ يَعِظُكُم بهِ }** (البقرة:٢٣١) وقال سبحانه**{ ادعُ إلى سَبيلِ رَبِّكَ بالحِكمَةِ والمَوعِظَةِ الحَسَنَةِ}** (النحل :١٢٥) .

ولأهمية هذا الأسلوب فقد شكل جانبا أساسيا من خطبة الجمعة لدى المسلمين ، حيث يتفاوت الخطباء بقدر تأثيرهم في سامعيهم ، ولعل من أبرز أسباب التأثير ، النية الصالحة ،

إضافة إلى أن يكون الواعظ قدوة للموعوظين سواء بالانتهاء عن الأفعال التي ينهي عنها أو القيام بالأمور التي يأمر بها .

وقد وضع الذهبي بعض الشروط في الواعظ كي يكون مؤثرا في عمله وناجحا فيه مثل: أن لا يكون عبد بطنه أو شهوته ، وأن لا يكون ذا قلب قاس ، وأن لا يكون فاسقاً أو منحلاً وأن تكون مواعظه نافعة ذات وقع في النفوس .

والمتأمل في الشروط التي وضعها الإمام يجد أنها صادرة عن خبير مجرب ، فكيف يكون واعظا من كان عبد بطنه ، بحيث يعرف عنه نهمه وشرهه ، وكيف يؤثر في سامعيه من كان جامد القلب ليس فيه رحمة ، وكيف يتعظ الناس بمن عرف عنه الفسق والانحلال وإتيان المعاصي وضعف التقوى والخشية لله ، ثم كيف يكون ناجحا من كانت مواعظه في واد ، وهموم الناس ومطالبهم وحاجاتهم في واد آخر .

أما النصيحة فقد رأى الذهبي أنها واجبة لله وللأئمة والعامة ومن لا يقم بها يعد ناقص الدين ، كما أنها يجب أن تكون متقدمة على هجران صاحب الكبيرة أو عدم موادته ، إضافة إلى أنه رأى أن لا يسكت الناصح عن الصدوع بالحق في وجه أحد بغض النظر عن منزلته شريطة أن يكون قادراً على بيان الحق . ومن الأخلاق التي رأى تحلي الناصح بها أن يكون متواضعاً في أثناء نصحه ، وأن يضع النصيحة في قالب يقبلها المنصوح ويتمثل ما جاء فيها .

والملاحظ أن هذا الأسلوب لا يزال كبير النفع للمتعلمين ، لتوجيههم إلى ما فيه خيرهم وصلاحهم ورقي أمتهم ومجتمعهم بشرط الالتزام بالآتي :

- أن يكون المعلم لبقا في نصحه مبتعدا عن أسلوب النواهي والأوامر ، افعل كذا ، لا تفعل كذا.
- أن يستخدم الأسلوب غير المباشر في النصح والتوجيه ، مثل الاستعانة بالقصص وما تتضمنه من مغازي أخلاقية وتربوية مرغوبة .
- الاستعانة بدروس التاريخ وما فيه من عظات وعبر ، خاصة تلك التي ذكرها القرآن وكتب السير والتراجم . (مرسي ، ١٩٨٧) .

* **أسلوب التلقين والحفظ :** ساد أسلوب التلقين والحفظ في الممارسات التعليمية القديمة ، ولا يزال يمارس حتى الآن ويرجع ذلك إلى التصور الذي كان يؤمن به المعلمون بالنسبة لعملية التعلم ، حيث كان الهدف من التعليم حشو عقل التلاميذ بالمعلومات عن طريق الحفظ والتلقين ، وكان التحصيل الدراسي غاية في ذاته ، وقيمة التلميذ تقاس بمقدار ما حفظه من معلومات ،

وتحصّل في عقله من معارف ، وليست التربية الإسلامية وحيدة زمانها في ذلك ، وإنما هي ممارسة شاعت في التعليم في مختلف المجتمعات وعلى مر العصور (مرسي ، ١٩٨٧) .

ويمكن استخدام الشواهد الواردة في أساليب السماع ، والقراءة والعرض والإملاء كأدلة على أسلوب التلقين ، فهي تقوم عليه ، وأما موضوع الحفظ فقد استخدمه الذهبي كأسلوب تعلم وتعليم ونصح به وبين بعض ما يتعلق به ، ومن آراءه حول ذلك أن الإكثار من الحفظ يقوي ملكة الحفظ والحافظة ، وأن الفكر والتفكير وذكر الله يساعدان على عملية الحفظ .

*** أسلوب الترغيب والترهيب :**

من المشهور لدى المربين وعلماء التربية ، أن الإنسان يعدل سلوكه بمقدار ما يترتب عليه من نتائج ، سارة كانت أم مؤلمة ، ضارة أم نافعة .

ويعد أسلوب الترغيب والترهيب أو الثواب والعقاب ، من الأساليب الشائعة لدى الأمم ، أما في الإسلام فقد كثر استخدام هذا الأسلوب في مصادر الشريعة من قرأن وسنة ، ومن ذلك قوله تعالى : **{ مَن يُطِعِ اللهَ وَرَسولَهُ يُدخِلهُ جَناتٍ تَجري مِن تَحتِها الأنهَارُ }** (النساء: ١٣) وقوله جل جلاله **{ بَلى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأحاطت بِهِ خَطيئَتهُ فَأولئِكَ أصحَابُ النارِ هُم فِيها خَالِدُون }** (البقرة:٨١) .

ويجد الباحث أن كتب الأحاديث والفقه تناولت هذا الموضوع ، مبينة ما رغّب به الإسلام ودعا إليه ، وما جاء في باب الترهيب من فعله والنهي عنه[1] وقد أشار علماء التربية المسلمون إلى هذا الأسلوب ووضعوا له بعض القواعد لاستخدامه ، ويلاحظ أن الذهبي لم يتحدث مباشرة عن هذا الأسلوب ، إلا أن الباحث وجد له ما يشير إلى ذلك ، ومنه : مدحه أحد شيوخه ومعلميه كونه كان باراً بتلاميذه ، لا يضربهم أبدا ، واستخدامه أسلوب الترغيب للإقبال على بعض العلوم والتحذير من غيرها ، وتحذيره من بعض الأفعال التي يقوم بها بعض الجهلة مثل : تجويع النفس وتعذيبها بدعوى التعبد ، وتنبيهه الآباء وأولياء الأمور إلى ما يجب عليهم تجاه من يعولون من أمور يلزم الترغيب فيها ، وأخرى يجب التحذير منها .

أما التربية في العصر الحاضر فقد أشارت إلى هذا الموضوع ، وبين العلماء آثار كل من الثواب والعقاب على المتعلمين ، فبينوا مضار العقاب والآثار الإيجابية للثواب في العملية التعليمية / التعلمية ، إلا أن بعضهم قد أشار وهو يقارن بين الآثار السلبية ، والآثار الإيجابية للعقاب أن الحل ليس بتحريم استخدام العقاب في التربية ، بل يستخدم في حدود المعقول في اعتدال وتوازن مع الدوافع الإيجابية ، وصعود التعزيز الإيجابي لجعل التعلم أكثر نجاحاً بالنسبة إلى معظم التلاميذ (أبو حطب ، وصادق ، ١٩٧٧) .

* **أسلوب ربط العلم بالعمل :** وقد تم التعرض له ضمن المبادئ التربوية

* **أسلوب الرحلة في طلب العلم :** يعد هذا الأسلوب واحدا من أبرز ما تتميز به التربية الإسلامية ، فقد دعا الإسلام إلى الخروج والسير في البلاد والتأمل في مخلوقات الله ، وما أصاب الأمم الأخرى من خلال مشاهدة آثارهم قال تعالى:**{ قُل سِيروا فِي الأرض فأنظُرُوا كَيفَ بَدَأ الخَلقَ ثُمَّ الله يُنشِئُ النَّشأةَ الآخرة أن الله عَلى كلِّ شيءٍ قدير}**(العنكبوت:٢٠) . وقال ﷺ " **من خرج في طلب العلم ، كان في سبيل الله حتى يرجع**" [٢]

---

(١) أنظر ، مثلا: المنذري ، الترغيب والترهيب من الحديث الشريف
(٢) رواه الترمذي ،كتاب العلم عن رسول الله ﷺ ، باب فضل طلب العلم (٢٦٤٧) ص٥٩٧

وبيّن الشافعي بعض فوائد الرحلة في طلب العلم فقال شعراً :

تغرب عن الأوطان في طلب العلى وسافر ففي الأسفار خمس فوائد

تفرج هم ، واكتساب معيشة وعلم ، وآداب ، وصحبة ماجد

(ديوان الشافعي ، ١٩٨٦)

وقد اهتم الإمام الذهبي بهذا الأسلوب لطلب العلم ، فمارسه عملياً ودعا إليه ، وكان من أبرز القواعد التي قيّد ه بها أو ارتضاها له ووجدها أكثر ملاءمة :

* ضرورة استئذان ولي الأمر (الوالد) وأخذ موافقته قبل الرحلة (الذهبي ، ١٩٩٧ ، ١٦)

* الوفاء بالعهد لولي الأمر ، حول مدة الرحلة أن كانا اتفقا على ذلك (الذهبي ، ١٩٩٧ ، ١٦)

* الأخذ من علوم بلده قبل الرحلة إلى الخارج ، فقد علق الإمام على تصرف أحد أبناء الرواة ، إذ استأذن والده للرحلة في طلب العلم مع أنه كان بإمكانه تحصيل بعضه في بلده فقال – أي الذهبي – :" كان يمكنه أن يحفظ أحاديث يسيرة من جده أبي عاصم" (الذهبي ، ٢٠٠١ ، ١٤).

* تكون الرحلات داخلية أو خارجية حسب الموضوع المراد الارتحال لتحصيله ، والمعلم المراد لقياه والسماع منه (الذهبي ، ١٩٨٨ ، ٢٥) .

* الرحلة لنيل بعض العلوم ولو كان جزءاً يسيراً ، لا تذهب فائدتها سدى ، حتى لو طالت الرحلة ، قال مبينا قيمة بعض الإجازات " فمن أراد العلو الذي لا نظير له فليسمع بها فلو ارتحل الطالب لسماع جزءٍ واحدٍ من ذلك شهرا لما ضاعت رحلته (الذهبي ، ٢٠٠١ ، ١٤) وقال مبيناً قيمة أحد الكتب " ولو رحل اليوم الطالب من مسيرة ألف فرسخ لإدراكها ، وغرم مئة دينار لكان له الحظ الأوفر .(الذهبي ، ١٩٩٣، ٤) .

* أشار إلى أن تفرد العالم ببعض العلوم يوجب الرحلة إليه فقد قال مترجما للصائغ (ت ٧٢٥هـ) " ازدحم عليه القراء لتفرده ودينه وجلالته وفضله .. وكنت أحرص أصحابنا على الرحلة إليه لتفرده بالعلو " (الذهبي ، ١٣٧٤هـ ، ٥) .

* بين أن الرحلة لطلب العلم دلالة على سعة العلم : فعلق على قول عمرو بن ميمـــــون (ت ١٤٥هـ) " لو علمت أنه بقي عليّ حرف من السنة باليمن لأتيتها " وقال " هذه الدعوى تدل على سعة علمه " (الذهبي ، ٢٠٠١، ١٤) .

* الرحلة إلى بعض الأماكن تكون أكثر فائدة من الارتحال إلى غيرها ، حسب الموضوع المراد طلبه : قال معلقا على ارتحال أحد طلبة العلم إلى مصر وسماعه من جماعة " لو كان ارتحل إلى بغداد والموصل ، للحق جماعة مسندين " (الذهبي ، ٢٠٠١ ، ١٤) .

* بين أن الرحلة في طلب العلم هي أحد أوجه المقارنة بين العلماء ، فعلق على مدح أحدهم لاثنين من شيوخه هما أحمد بن صالح ، وأحمد بن حنبل ، فقال :"شتان ما بين الأحمدين في سعة الرحلة ، وكثرة المشايخ " (الذهبي ، ٢٠٠١، ١٤) .

* أشار إلى أهمية استئذان المعلم لولي الأمر ، والاستبانة ، إذا أراد الارتحال لطلب العلم: قال خلال ترجمته لأحمد بن محمد الرقي (ت ٧٤٢هـ) " لما سافرت إلى بعلبك في سنة ثلاث وتسعين (وستمائة) ، وتعوّقت ، وثب على حلقتي فأخذها لكوني لم أستأذن الحاكم، ولا استتبت " (الذهبي ، ١٣٧٤هـ ، ٥)

وقد تأثر علماء الغرب بهذا الأسلوب في طلب العلم فأشار إلى أهميته غير واحد منهم ، فقد حث مونتاني (١٥٣٣– ١٥٩٢) على الرحلة في طلب العلم أسوة بالرومان والمربين المسلمين ، وقال المربي التشيكي كومينيوس (١٥٩٢– ١٦٧٠) – وهو أحد المربين الواقعيين الحسيين – في كتابه (التعليم الكبير) : أن الطالب من ١٨– ٢٤ وهو في دور التحصيل العالي في الجامعات ، يجب أن يرحل إلى بلد أجنبي طلبا للعلم .(الرشدان ، وجعنيني ، ١٩٩٤) .

أما في العصر الحاضر فأن هذا المبدأ لم يعد مقيدا ببعض الشروط التي وضعها الذهبي، فالظروف في العصر الحاضر يسرت على طلبة العلم كثيراً إذ استغنى الكثير من الدارسين والباحثين بوجود أجهزة الحاسوب والإنترت عن الانتقال من بلد إلى آخر بحثا عن علم ، أو معلومة ما "

وهذا لا يعني توقف الرحلة في طلب العلم فاتساع رقعة البلاد مثلاً جعلت الطلبة يتنقلون داخل البلد الواحد من أماكن سكناهم إلى كليات وجامعات بعيدة عنهم طلباً للعلم كما أن بعض

الظروف تفرض على أصحابها السفر لطلب العلم خارج البلاد ومن ذلك : عدم حصولهم على مقاعد جامعية في التخصص الذي يرغبون به في بلادهم ، أو عدم قناعة بعض الفئات بهذه الجامعات ، أو حصول بعضهم على منح وبعثات علمية من جهات معينة ، أو غير ذلك من الأسباب (غانم ، ١٩٩٩) .

ولما كان سفر الطلبة – لنيل العلم – إلى بلاد الغرب فيه خطورة عليهم[١] من حيث

---

(١) أنظر مظاهر الخطورة في: سعيد إسماعيل علي ، الفكر التربوي العربي الحديث ،ص ٤٧-٥١

التأثر بمظاهر الانحلال فيها ، فقد اشترط بعضهم شروطا للتخفيف من الآثار السلبية لذلك السفر، ومنها : أن لا تقوم الحكومات العربية والإسلامية بإرسال البعثات الدراسية للجامعات الغربية ، إلا بعد الدرجة الجامعية الأولى (البكالوريوس) لأن الشباب قبل هذا السن يكون لقمة سائغة لشيطان الحضارة الغربية المادية – إلا من رحم ربك – أما بعد حصوله على تلك الشهادة من بلد عربي أو مسلم ، فأنه قد تتكون لديه على وجه العموم مناعة فكرية وخلقية وحضارية تمنعه من الذوبان في المجتمع الغربي ، بل تقوده إلى الاعتزاز بما لديه من حضارة وفكر وخلق. (فرحان ، ١٩٩١) .

ومن الجدير بالذكر أن الشرط الذي وضعه الكاتب أعلاه ، كان قد ذكر ضمن توصيات المؤتمر العالمي الأول للتعليم الإسلامي الذي عقد في مكة المكرمة سنة ١٩٧٧ ، وكان من تعليقات مرسي (١٩٨٧) وتعقيباته عليه : أن هذه التوصية ليست دعوى ضد الدراسة في الخارج ، أو أنها ضد الانفتاح الفكري والثقافي للعالم الإسلامي على تجارب وعلوم المجتمعات الأخرى ، حيث أن الرحلة في طلب العلم كانت دائما سمة مميزة للسلف الصالح من علماء المسلمين ، كما أن العلم لا وطن له ، وحيثما يزدهر العلم الذي يحتاج إليه المسلمون فأنه ينبغي الحرص على تحصيله ، إلا أنه يجب وضع ضمانات تكفل تحقيق الأهداف المنشودة من إرسال الطلبة في بعثات إلى بلاد الغرب ومنها : حسن اختيار العناصر الصالحة من الطلاب ، وتوفير الرعاية المالية والاجتماعية لهم أثناء دراستهم ، وتوفير المكان والراتب المناسبين لهم بعد عودتهم .

ومما لاحظه الباحث أن بعض البلاد قد طبقت أسلوب الرحلة واستفادت منه ، فقد توسعت اليابان في إرسال بعثاتها إلى الخارج ليحصل أبناؤها على علوم الغرب مباشرة .وعلق

أحدهم على ممارساتهم في هذا المجال فقال : أن اليابان قد استوردت (استعارت) من الأفكار ما يتلاءم مع تربيتها الحضارية ، بحيث جردت تلك الأفكار من أي مضمون اجتماعي أو عقدي . (بكر ، ١٩٩٩) .

ويعتقد الباحث أن أسلوب الرحلة في طلب العلم عند المسلمين السابقين كان الجذر والبذرة لأسلوب الرحلات التعليمية والمعمول به حاليا في المدارس والكليات والجامعات .

* **أسلوب الاختيار والتلخيص** : وقد استخدمه الذهبي تلبية لمطالب عصره ، حيث تناقص عدد العلماء المجتهدين ، ولم يعد الطلبة في همتهم الأولى للنظر في المطولات ، إضافة إلى أنه هدف من وضع المختصرات إلى التسهيل على طلبة العلم ، وإيجاد رغبة لديهم في التوسع لاحقاً

ويرى الباحث أن هذا الأسلوب هو المتبع حاليا في وضع المناهج التعليمية ، حيث يُقَدِم للطلبة نُبَذ مختصرة تتناسب مع المرحلة النمائية التي يمرون بها ، ثم يتم التوسع بها مع تقدم الطلبة في مراحل الدراسة .

* أسلوب مراعاة الأولويات والتدرج في التعليم والتعلم :ورد هذا الأسلوب لدى الذهبي بشكل كبير ، وقد تم تناول بعض الشواهد عليه في مواضع مختلفة ، يذكر الباحث منها توصية الذهبي لأولياء الأمور للأخذ بهذا المبدأ عند تعليم أبنائهم ، وتوصيته طلبة العلم أن يبدأوا بعلوم وكتب معينة ، ثم يتدرجوا في الطلب .

ويلاحظ الباحث أن الذهبي قد تنبه في هذا الأسلوب إلى مبدأين هامين في التربية ، أما الأول : فهو التدرج من السهل إلى الصعب فالمختصرات سهلة فيما المطولات تحتاج إلى جهد من طلبة العلم . وأما الثاني فهو الانتقال من الأهم إلى المهم ، فما يحتاجه الطفل من أمور العقيدة والتوحيد أهم من تناول أحكام الزنى والسرقة والدم والميتة .

* **أسلوب الحرية في اختيار العلوم والمعلمين :**

بين الباحث في الفصل الثالث من هذه الدراسة ، اتفاق أغلب علماء المسلمين على تفضيل أخذ العلم من المعلم ، على أخذه من صحيفة أو كتاب مبينين أسباب ذلك .

ولم يكن أخذ العلم عن علماء معينين فيه إجبار أو إكراه ، بل كانت الفرص متاحة للطلبة لحرية اختيار المادة التي يريدون ، حيث يجلسون في الحلقة بعد أخـذ الإذن من شيخـها (Makdisi , 1981) ، يستمعون ، ويناقشون ، وينتقلون بين الحلقات لمتابعة الدراسة في واحد أو أكثر من فروع العلم التي يرغبون فيها ، بل أنهـم قـد يسافرون ويرتحلون من أجل ذلك (Tarawneh , 1987).

وقد كان العلماء يشجعون الطلبة على أسلوب التعلم هذا ، فقد أخرج الإمام مسلم في مقدمة صحيحه بسنده عن محمد بن سيرين قولـه " أن هذا العلم دين فانظروا عمّن تأخذون دينكم " ، وقال الزرنوجي (١٩٨١) ينبغي لطالب العلم أن يختار من كل علم أحسنه ، وما يحتاج إليه في أمر دينه في الحال ، ثم ما يحتاج إليه في المآل " أما اختيار الأستاذ فينبغي اختيار الأعلم والأورع والأسن ، كما اختار أبو حنيفةً حماد بن سليمان (ت١٢٠ هـ) بعد التأمل والتفكر وقال : وجدته شيخاً وقوراً حليماً صبوراً في الأمور " .

أما الذهبي فقد ورد عنده أكثر من شاهد على أهمية هذا الأسلوب ، ومن ذلك أنتقده للطلبة الذين لا يتخيرون معلميهم فيأخذون عن شيوخ جهلة ، ويكتبون عمن درج ودب دون انتقاء ، إضافة إلى أنه وضع بعض الإرشادات والنصائح التي تعين الطلبة على اختيار معلميهم حيث قام بإيضاح بعض الشروط الواجب توفرها في المعلمين للأخذ عنهم ومن ذلك : إتقانهم لعملهم المربوط بحسن الدين والأخلاق ، إضافة إلى عدم وجود ما يمنع الأخذ عنهم مثل الهرم المربوط بالاختلاط والهذيان .

ويلاحظ مما سبق أن الحرية لم تكن مطلقة سواء في المادة أو المعلم وإنما كانت مربوطة بسياسة التعليم في ذلك العصر والعلوم الشائعة والمتداولة فيه .

أما التربية في العصر الحاضر فقد ركزت على هذا الأسلوب ودعت إليه ومن الشواهد على ذلك :

– التقرير الذي وضعته اللجنة السباعية الدولية برئاسة ادجار فور (Edgar Foure) من فرنسا والتي شكلتها منظمة اليونسكو في سنة التربية العالمية (١٩٧٠) حيث تضمـن التقرير الذي نشرته رسالة اليونسكو في عددها (١٣٨) تحت عنوان " تعلم لتكون " أو " تعلم كيف تعيش المستقبل " واحداً وعشرين مبدءاً تربوياً بهدف تطوير التعليم كان منها المبدأ العشرون والذي ينص على ما يلي " خلافاً للتقاليد المتبعة يجب أن يكون التعليم ملائماً للمتعلم ، ويجب أن تتاح للطالب حريةً أكبر في أن يقرر بنفسه ما يريد أن يتعلمـه ، وكيف يتعلمـه ، وأين يتعلمه (فرحتن ، وآخرون ، ١٩٨٤)

– أشار الوحيدي (١٩٩٠) إلى أن أسلوب " تفريد التعليم " المعروف في التربية الحديثة والذي يركز على تفريد المواقف والوقائع والمواد بشكل منهجي ، بحيث يتعلم كل تلميذ على حدة بما يتوفر بين يديه من مواد وأدوات ، وبمساعدة وتوجيه من المعلم يمكن أن يكون له علاقة بحرية اختيار المـــواد الدراسية من قبل المتعلمين وفق ميولهم الفطرية واستعداداتهم العقلية .

– نظام التعليم في الجامعات والذي يتيح للمعلم أن يختار ما يعلم في إطار خطة الدراسة ، كما يتيح للطلبة الحرية في فلاختيار من قسم من المواد (الاختيارية) في كليته ، إضافة إلى الحرية في اختيار مدرس المادة – أحيانا – .

– التجربة الأردنية لتطبيق نظام الفصول الدراسية في المرحلـــة الثانوية والذي ينطلق من فكرة " أن المرحلة الثانوية تعتبر مرحلة مفتوحة مدتها سنتان ، وفواصلها الزمنية الفصل الدراسي ، ومناهجها غنية متنوعة متخصصة مصممة على مستويات . وطلبة هذه المرحلة يدرسون مباحثهم التي يختارونها وفق ما تعرضه المدرسة في ضوء إمكاناتها وحدود جدولها الدراسي في اليوم المدرسي الطويل .."

وهكذا يستنتج الباحث أن التربية الإسلامية قد سبقت التربية في العصر الحاضر في قضية حرية الاختيار أمام المتعلمين ، بعدة قرون من الزمان .

ويرى الباحث أن توظيف هذا الأسلوب بفاعلية يتطلب قيام الدولة والمسؤولين عن التعليم فيها بالآتي :

- وضع الحوافز لتشجيع الإقبال على مهنة التعليم ، بما يوفر كوادر مؤهلة وكافية للمساعدة في التنفيذ .
- وضع شروط ومعايير لاختيار من سيقومون بمهنة التعليم ، بحيث لا يلتحق بها إلا من هو أهل لها .
- تقديم خدمات التدريب المستمر للمعلمين الذين هم على رأس عملهم لإيجاد كفاءات تتيح للطلبة فرص الاختيار وسداده .
- الإفادة من تجريب تطبيق النظام ، وسد الثغرات التي تظهر فيه ، مع التطوير المستمر له .

أنموذج تربوي وفق المستخلص من أفكار الإمام الذهبي التربوية

استخلص الباحث من خلال تتبعه لأفكار الشيخ الذهبي المبثوثة في بطون كتبه ومصنفاته، ما يمكن أن يعد سياسة تربوية ، تتمثل في الإطار العام الذي يوجه سير العملية التعليمية/التعلمية وفق أبرز الأهداف في المجتمع المسلم ، وهو السعي نحو إرضاء الله تعالى بنية خالصة . كما تتمثل هذه السياسة ببعض المبادئ التي تدور في فلكه ، ومن أهمها : توجيه العملية التربوية نحو إيجاد الإنسان المسلم الصالح المصلح ، المستوعب لعقيدته ، والمتمثل لقيمها واتجاهاتها ، من خلال توفير المناهج المناسبة التي يمكن للمتعلم أن يختار من بينها ، ما يلبي حاجاته وفق قدراته ، إضافة إلى توفير سبل التربية المستمرة ، والحرص على أن تهتم رسالة التعليم بالقواعد الأخلاقية ، التي تحكم العلاقات التربوية بين المعنيين .

ويمكن من خلال تقصي أفكار الإمام التربوية اقتراح النموذج التربوي التالي ، الذي يمكن توظيفه إلى جانب الأفكار التربوية المناسبة في العصر الحاضر :

- اجتهد الباحث أن يتضمن النموذج الأمور التالية :

– أبرز الأدوار التربوية لكل من المؤسسات التربوية المختلفة، مثل (الأسرة ، ودور العلم ، والمساجد) .

- المبادئ التربوية المتضمنة .
- المنهاج التربوي المقترح .
- أساليب التربية ووسائلها

الأدوار التربوية :

* **وزارة التربية ، والإدارات المدرسية**(١) : وتتمثل أبرز مهامها بما يلي :

- اختيار الكادر التعليمي ، وتقديم الخدمات الفنية له .
- اختيار المناهج والمقررات الدراسية المناسبة للمتعلمين في مراحل التعليم المختلفة .
- تنظيم سياسة الأجور والرواتب ونظام التقاعد .
- مراقبة تصرفات المعلمين وسلوكاتهم .

---

(١) لم يرد ذكر لهذه المؤسسات بشكل صريح في فكر الإمام الذهبي إلا أن الباحث اجتهد من مجمل أفكاره أن هؤلاء معنيون بالأمر .

- تنظيم العلاقات التربوية بين أطراف العملية التعليمية / التعلمية : أولياء الأمور ، والمعلمين، والمتعلمين .
- مراقبة خطوات السير نحو تحقيق الأهداف المرصودة .

* **الأسرة :**

وهي المسؤولة عن وضع اللبنة الأولى في تربية المتعلم ، وفق الأهداف المتفق عليها في المجتمع الإسلامي ، حيث يكمن دورها في تنشئة الأبناء تنشئةً إيمانية سليمة ، مع مراعاة عدم التفرقة بين الذكور والإناث في التربية والتعليم ، وتبصير الأبناء بعقيدة الأمة وأبرز أهدافها بأسلوب مناسب ، والتدرج في أولويات التربية والتعليم ، واستمرارية التوجيه والإرشاد، واختيار البيئة السليمة والرفقة الصالحة .

ومن أبرز ما يمكن أن تهتم به الأسرة خلال تربيتها لأبنائها أن تتدرج معهم في تقديم ما يتوافق مع ما يمكنهم استيعابه من علوم دينية وتربية أخلاقية ، ومن ذلك : مفهوم التوحيد بحيث يتم تعريف الطفل بأن الله سبحانه وتعالى هو رب العالمين ، وخالق الأشياء ، ورازق الأحياء ، وأن دينه هو الإسلام الذي يعني توحيد الله ، وطاعته ، وعدم مخالفة أوامره، كما أن رسوله هو النبي محمد ﷺ أرسله إلى الناس ليعلمهم الإسلام .

أما في مجال الفقه فيتم تناول بعض الأمور البسيطة مثل : الطهارة ، والوضوء ، والصلاة ، وفي التربية الأخلاقية تعمل الأسرة على تحذير أبنائها من الأمور المحرمة مثل : السرقة، والكذب ، وأكل الحرام ، مع بيأن أن الإنسان محاسب على أعماله متى وصل سن البلوغ .

أما ما يتعلق بالتربية الصحية فيلزم تعويد الطفل على استمرار شكر الله على نعمة العافية ، ثم إيجاد اتجاهات صحية سليمة لدى الأطفال مثل :العادات الغذائية السليمة كالأكل عند الحاجة ،

وعدم الإسراف في ذلك ، وتجنب تناول الأطعمة الضارة ، وعدم الجمع بين غذاء ين متضادين مثل البارد والساخن ، وتجنب كسر الأشياء الحادة بالأسنان ، وعادات النوم السليمة ، مثل : عدم السهر دون سبب ، وضرورة أن يأخذ الجسم حاجته من النوم ، وتعوّد عدم النوم مباشرة بعد تناول الطعام، بل لا بد من إعطاء المعدة الوقت الكافي لهضمه ، والقيام بالألعاب والتمرينات الرياضية الخفيفة المناسبة للجسم في هذه المرحلة ، إضافة إلى المحافظة على الصحة العامة في الجسم والمكان : مثل المحافظة على النظافة والتركيز على ذلك .

ومن الطرق والأساليب التربوية المناسبة في مرحلة الأسرة : الوعظ ، والنصح ،والإرشاد، بشكل مباشر وكلما اقتضت الحاجة ، والاستمرار في التعليم حتى يألف الصبي ما يراد تعليمه له، واصطحاب الأبناء إلى المسجد للاستماع إلى المحاضرات والدروس ، والاستعانة بالاخوة الأكبر سناً للمساعدة في عملية التعليم ، والقدوة الصالحة من قبل الوالدين والاخوة ، واستخدام أسلوب القصة والمثل ، والاستعانة بالرفاق الصالحين .

*** المكتب :**

ويمكن الاستعانة عن جزء من نظامه وفترته بما يعرف اليوم بـــ (الروضة) بحيث يكون المنهاج فيها قريباً من المطبق في الأسرة ، ويضاف إليه الأشعار ، والأناشيد والقصص الهادفة ، والألعاب الصغيرة .

أما الأساليب فلا تبتعد كثيراً عما ذكر في الأسرة مع التركيز هنا على : الرحلات البسيطة ، وتبادل الزيارات بين البيت والروضة ، والتعلم من خلال الممارسة واللعب .

*** المسجد :**

يسهم مسجد الحي في تربية الناشئة ، خاصة في الجانب الإيماني العملي ، حيث يطبق فيه المتعلم الصلاة مع المسلمين ، وحضور الدروس المناسبة ، كما يمكن للمسجد أن يقوم بدوره من خلال عقد دورات في القراءات ، والتجويد ، وعلوم الحديث الشريف ، والأحكام الشرعية ، وعقد دروس تفسير للقرآن الكريم ، وأخرى في الوعظ وإلارشاد ، ويضاف إلى ذلك التعاون مع مؤسستي الأسرة ، والمدرسة في عملية التنشئة ، بحيث لا يكون هناك تعارض في ذلك .

*** وسائل الإعلام :**

وهذه تقوم بدورها التكميلي التوضيحي لما تمّ تناوله في المؤسسات السابقة ، حيث يستفاد من برامجها المسموعة والمرئية لدعم ذلك .

*** المدرسة ودور العلم الأخرى من كليات وجامعات :**

ويكمن دورها في التوسع في المفاهيم التي تم تناولها في مؤسسة الأسرة مثلاً ، مع الاستمرار في ذلك كلما تقدم المتعلم في مراحل التعليم وهو ما يسمى (التدرج في البناء المفاهيمي) . ومن الأمور التي يجب أن تراعيها دور العلم المختلفة :

- القيام بدورها في عمليات التنقيح والتطهير والتقويم ومحاربة الجهل والخرافات ، إضافة إلى مساعدة المعلمين عن طريق تلخيص المواد المنتقاة ، بما يتلاءم مع قدرات التلاميذ .
- تدريب المتعلمين على عملية البحث بصدق وأمانة سواء في التلقي أو التبليغ أو التعليم والتعلم .
- تنظيم المواد التعليمية بطريقة تعين المتعلم على الاختيار من بينها بحرية ضمن قدراته ورغباته .
- ضرورة أن لا تتضمن المقررات المختارة الخلافات بين العلماء ، خاصة في المراحل المبكرة من التعليم .
- المساهمة في خدمة طالبي العلم من خلال المساعدة في تنظيم برامج التربية المستمرة ، خاصة لكبار السن .
- تبصير المتعلمين بالأهداف الرئيسة للعملية التربوية لتبقى دائما نصب أعينهم .
- الاهتمام بذوي الحاجات الخاصة (الموهوبين ، وذوي الإعاقات) .
- مراعاة الفروق الفردية بين المتعلمين .
- مراعاة المراحل التعليمية وتقديم ما يناسب الطلبة فيها .
- تدريب الطلبة على التدرج في الطلب كان يبتدئوا بالملخصات قبل المطولات .

ويمكن تقسيم العلوم التي يتضمنها منهاج دور العلم إلى ثلاثة أقسام هي :

العلوم الدينية : القرآن الكريم والقراءات ، والتفسير ، والحديث النبوي الشريف ، والفقه ، والسيرة النبوية ، والوعظ وإلا رشاد .

علوم العربية : اللغة ، والشعر ، والنحو ، وإلا رشاد ، والتعبير ، والكتابة والخط .

علوم أخرى : السير والمغازي والتاريخ العام ، وعلوم الصحة والطب ، والحساب والهندسة ، والعلوم الطبيعية .

ومن الطرق والأساليب التربوية التي يمكن أستخدمها في دور العلم : الملازمة (معلم الصف) والتلقين والحفظ وهذه تصلح مع الطلبة الصغار ، والسماع والقراءة والعرض والمذاكرة شريطة أن يتم تطويرها لتتناسب مع التربية في العصر الحاضر .

ومن الأساليب الأخرى : الترغيب والترهيب بوسائل غير العقاب البدني ، والاختيار والتلخيص ، والسؤال وآدابه ، والممارسة العملية ، والعلم والعمل به ، وحرية الاختيار ومراعاة الأولويات ، والرحلات العلمية ، والأحداث والقصص ، إضافة إلى أسلوب القدوة الصالحة

ويمكن للباحث المتتبع لأفكار الإمام التربوية والآداب التي نص عليها أن يلاحظ الأمور الآتية والتي يمكن أن تعطي صورة عن خطوات سير الحصة أو مجلس العلم وما يدور فيه ، ومن ذلك :

- البدء بالاستعانة بالله والتلفظ ببعض الأدعية المناسبة .
- بيان هدف الدرس ضمن الهدف العام.
- تنظيم أنشطة الحصة ، بحيث يستثمر الوقت بطريقة سليمة .
- استخدام الأسلوب المناسب للسير في الحصة (تلقين ، حفظ ، مناظرة ..) .
- تنظيم النقاشات الدائرة في الحصة بحيث يراعي فيها آداب احترام الرأي الآخر .
- تقبل فلانتقادات الموجهة للمعلم ، والاعتراف بالخطأ ، والتراجع عنه .
- الحرص على الاعتناء بالمظهر ، والسمت من كل من المعلم والمتعلم.
- تواصل المعلم مع جميع الطلبة ، مراعياً الفروق الفردية بينهم .
- التنبه إلى بعض الممارسات التي يحاول الطلبة من خلالها تملق المعلم ، والإساءة إلى غيره و هذا العمل يجب زجره بشدة .
- التواضع و عدم التكبر سواء على المعلمين أو المتعلمين .
- الحرص على الابتسام و طلاقة الوجه ، و الممازحة والضحك في وقته دون إسراف .
- الصبر على أخطاء المتعلمين ، و الحذر من سرعة الغضب .

- الحرص على تنظيم أوقات للمحاسبة ، والتأمل الذاتي سواء خلال الحصة أو بعد الانتهاء منها ليتم التعديل وفق ما يتمخض عن هذه المحاسبة ، مع الأخذ بعين الاعتبار أن تكون العملية من المعلم والمتعلم سواء بسواء ، كل حسب دوره .
- يتنبه المعلم أن كل سلوكاته وتصرفاته تكون مراقبة من قبل التلاميذ ، فهو يسعى أن يكون قدوة صحيحة لهم .

الاستنتاجات والتوصيات

استنتاجات الدراسة :

هدفت الدراسة إلى إبراز جوانب الفكر التربوي عند الإمام الذهبي ، للكشف عن إسهاماته في مجال التربية والفكر التربوي ، من خلال البحث والتنقيب في المتوافر من مؤلفاته .

وقد اهتم الباحث – من خلال إستعراضه لأفكار الذهبي – باستخراج ما يتعلق بموقفه من علوم عصره والمشتغلين بها ، وأساليب التربية المستخدمة ، والآداب الواجب توافرها في كل من المعلم والمتعلم ، والعلاقات التربوية بين كل من أولياء الأمور والطلبة ، والمعلمين والمتعلمين ، ثم بين المعلمين أنفسهم ، وختم دراسته بمناقشة أبرز الأفكار التربوية لدى الإمام ، وبيان علاقتها بكل من مصادر التربية الإسلامية من جهة ، والتربية في العصر الحاضر من جهة أخرى .

وقد خلص الباحث الى الاستنتاجات الآتية التي تم إستخلاصها من خلال الاجابة عن أسئلة الدراسة :

أ. ما طبيعة العلم والعلوم وأهدافها في فكر الإمام الذهبي :

- ركز الذهبي على وجوب طلب العلم وأهمية نشره ونقله للآخرين في عصر كان أقرب الى الجمود والتخلف مع قلة عناية الدولة بالتعليم بشكل رسمي بسبب الظروف والعوامل التي أحاطت بذلك العصر من إضطرابات سياسية ، وكوارث طبيعية وما شابه .
- رأى أن أهداف التربية والتعليم يجب أن تدور حول أبرزها وهو ، خشية الله وتقواه والسعي نحو إرضائه ، إضافة الى أهمية توافق العلم مع العمل ، وإمكانية طلب العلم لكسب الرزق ، أو محبة فيه لذاته .
- نبع تقسيم الذهبي للعلوم وفق الاحكام التكليفية ، والضارة والنافعة من عقيدة الدينية ،وما يحمله من أفكار سلفية .

ب. ما موقف الامام الذهبي من العلوم التي كانت سائدة في عصره ، والعاملين المشتغلين بها ؟

- شدد الذهبي النكير على بعض الممارسات الخاطئة – حسب رأيه – والتي يقوم بها بعض المشتغلين في بعض العلوم وبخاصة الشرعية منها مثل القرآن الكريم ، والحديث، والفقه .

- حث الامام على ضرورة الاهتمام بالعلوم الدينية من قراءات وحديث وفقه ، إضافة الى العلوم المرتبطة بها كعلوم الفقه ، والنحو .
- حذر الامام من قضية التعصب المذهبي ، مبيناً بعض عواقبه على حياة الناس بعامة .
- رفض الذهبي الاقبال على بعض العلوم أو تعليمها وبخاصة ما يتعلق بالفلسفة الالهية ، والمنطق ، والشعوذة ، والتنجيم ، والسيمياء ، والكيمياء ، لما كان يرى لها من تأثيرات سلبية على عقيدة الناشئة .
- كان لعلاقة الذهبي بمن حالفوه من أصحاب المذاهب آثار على أحكامه الـي أطلقها وبخاصة ما يتعلق بعلم التفسير ، وعلم أصول الدين وما يتعلق بها ، بحيث كانت أحكامه مناسبة بحقهم.
- ركز الامام على ضرورة تعلم علوم الطب وشارك في تقديم الكثير من الافكارحول الصحة الجسدية والنفسية ، والتي تقترب في صورتها من بعض أفكار العصر الحاضر.
- أظهر الذهبي رأيه في الصوفية وأهل التصوف ، مبيناً بعض سلوكاتهم التي جانبوا فيها الصواب ، ومقارناً ذلك مع التصوف الصحيح – كما يراه – وهو ما كان يصدر عن الرعيل الاول من سلف المسلمين.

- وجد الذهبي أن أفضل لبناء شخصية الفرد هي طريقة أهل السلف ، التي تجمع بين العقل والعقيدة بعيداً عن تهويمات أصحاب الفرق الصوفية ، وغيرهم من أتباع المتكلمة.

ج. ما الطرق والاساليب التربوية الواردة في فكر الامام والمتعلقة بتحصيل العلوم في عصره ؟

- لما كان الذهبي من أهل الحديث ، فقد ركز إهتمامه حول طرق التحمل وصيغ الاداء الخاصة بهذا العلم ، وهذه الطرق في مجملها قد لا تصلح لتحصيل علوم العصر الحاضر ، ومع ذلك فقد وردت لديه بعض الاساليب التي تتناسب والمعمول به حالياً .

د. ما صورة الآداب والعلاقات التربوية بين أطراف العملية العلمية التعليمية/التعلمية في فكر الإمام الذهبي ؟

- قدم الامام في كثير من وصاياه التربية على التعليم ، ويظهر ذلك من خلال تركيزه على الآداب التي يجب أن يتحلى بها كل من المعلم والمتعلم ، والتي تعمل على تحسين العلاقات التربويه بينهم .
- وضع الذهبي – كحال أهل الحديث – شروطاً يرى ضرورة وجودها في الراوي ، للأخذ والتلقي عنهم دارت في مجملها حول صلاح الدين والعقيدة إضافة الى سلامة الحواس ، وحسن التصرفات ، و لئن كانت هذه الشروط خاصة بالمحدثين إلا أن بعضها

مما يصلح للمعلمين كافة مثل الاتقان ، والصدق , وتجنب التفحش في الكلام ، وما أشبه.

- رأى الذهبي أن من أبرز واجبات الآباء تجاه أبنائهم ومن يعولون ، الاجتهاد في تعليمهم، وتوفير البيئة الصحية السليمة والآمنة التي تحمي الأبناء وتصونهم .
- إعتقد الذهبي أن الاختلافات بين العلماء هي من الأمر الطبيعية إذا لم تتجاوز حدودها وتصل الى السباب والشتائم والكيد والدسائس .

وقد رأى الباحث أن هذه الامور وإن كانت متعلقة بالعلماء فهي تنطبق على المعلمين ، فالعالم هو معلمبحد ثاته ، حين ينقل علمه الى الاخرين .

- أكد الامام على أن العمل القائم على أس خلقية : عقائدية فكرية ، وإجتماعية مجتمعية ، ومهنية ، طريق يجب على الامة بعامة ، والمعنيين بالتربية بخاصة خط مسارات المتعلمين ، إنطلاقاً من العقيدة السليمة .

هـ . ما المبادئ والأسس التربوية المتضمنة في فكر الامام الذهبي ؟

و . بم تتفق أفكار الامام التربويه مع الفكر التربوي المعاصر وبم تختلف عنه ؟

ثمة نظرات تربوية التقى فيها الذهبي مع عدد من الافكار التربويه في العصر الحاضر ومن ذلك:

- إشترط الصدق ، وتحري الدقة في النحث والتنقيب ، ونقل العلوم وتبليغها .
- التنبيه على مراعاة الاولويات ، والتدرج في تقديم العلوم للمتعلمين ، فهناك معارف ينبغي أن يلم المتعلم في المراحل الاولى ، وأخرى نقدم اليه في مراحل لاحقة .
- التأكيد على أتاحة الفرصة للمتعلم في إختيار العلوم التي يرغب بها ، والمعلمين الذين يفضل بعضهم الاخذ عنهم ، مبيناً دور التوجيه والارشاد في هذا الامر ، ولهذا يقترب من نظام الفصول الدراسية الذي بدء بتنفيذه .
- قوله بأهمية الزامية التعليم واستمراريته ، ودعوته الى إحترام الوقت وإستثماره .
- تنبيهه الى ضرورة مراعاة الفروق الفردية بين المتعلمين ، ومعاملتهم وفق قدراتهم .
- تركيزه على دور الاسرة ، فهي صاحبة الدور الاول والاهم في تنشئة الابناء ، وتربيتهم خلقياً ودينياً .
- أخذه بمفهوم التربية الوقائية – الاصلاحية ، حين أخضع نظره الى علوم عصره ومعارفه لمبدأ الخشية لله ، والنظر الى المصلحة العامة للمسلمين .

- لعل الذهبي قد اقترب من استخدام المنهج المحوري المتمركز في العلوم وتعليمها ، فهو يجعل (رضى الله سبحانه وإخلاص العبودية لــه) في المركز ، ويرى ضرورة ارتباط كل العلوم والعاملين بها بهذا المركز ارتباطا وثيقاً يؤثر فيها .
- كما يمكن القول بأن رأيه في حاجة العلوم بعضها الى بعض – وذلك حين بين حاجــة المشتغلين بالعلوم الدينية الى إتقان اللغة العربية مثلاً – يكاد يقترب من مفهوم المــنهج المترابط (العلوم المترابطة)
- دعوته الى محاسبة النفس ، فيقوم المعلم أو المتعلم محاسبة نفسه ، ويعدل مــن عملــه باستمرار فإذا أحس المعلم – مثلا – أنه غدا غير قادر على أداء دوره أو أن النفع منــه قد قل لسبب أو لآخر ، فإنه يغادر موقعه ويترك المجال لآخرين ، فهو من جهة أحفــظ لهيبته ، ومن جهة أخرى أنفع للتلاميذ .
- تبين للباحث أن فكر الذهبي لم يكن جامداً او متخلفاً ، كحال عصره ، يشهد لــه بــذلك بعض أفكاره التربويه المتعلقة ببعض الامور مثل : السماح للمرأة بــالتعلم والتعلــيم ، وقوله بأهمية الصحة النفسية والجسدية في بناء شخصية الفرد ، وتركيزه على أهيمــة تحري الدقة في البحث والتنقيب سواء في التعلم أو التعليم .

<u>توصيات الدراسة :</u>

في ضوء النتائج التي تم التوصل اليها ، وفي سبيل ربط الحاضر بالماضي ، والانتفاع من كليهما في رسم السياسة التربويه المستقبلية ، إجتهد الباحث أن يقسم توصيات الدراسة الى قسمين : أولهما يتوجه الى المعنيين بالعملية التعليمية بشكل عام ، وثانيهما يخاطب الباحثين وطلبة العلم بشكل خاص .

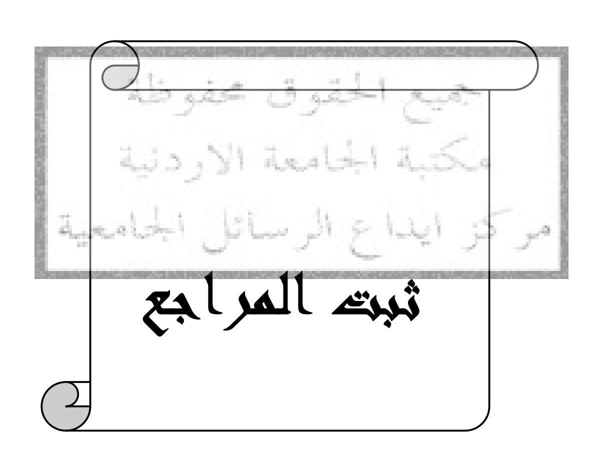
أ. توصيات للمعنيين بالعملية التعليمية/التعلمية بشكل عام .

- حسن إختيار الراغبين في مهنة التعليم وفق معايير وشروط محددة ، وإيجاد الدوافع والحوافز المشجعة للمختارين ليعطوا أفضل ما لديهم ، وليكونوا قدوة حسنة للمتعلمين في تصرفاتهم وأخلاقهم .
- وضع قوانين تشجع غير القادرين على مواصلة العمل بشكل سليم مثمر – بخاصة في مهنة التعليم – ليستقيلوا من أعمالهم ، ويعطوا الفرصة لغيرهم لأكمال الرسالة .
- التوسع في تطبيق نظام الفصول الدراسية بما يعطي مزيداً من الحرية للمتعلمين ليختاروا المواد الدراسية الملائمة لميولهم وقدراتهم ، والمعلمين القائمين عليها .

- التأكيد على أهمية تدريب المعلمين والمتعلمين على أسلوب التفكير التأملي ، والمحاسبة الذاتية بهدف التعديل والتحسين بأستمرار .
- التأكيد على أهمية تدريب الطلبة على عمليات البحث والتنقيب والدقة في ذلك ، منذ الصفر والتدرخ في ذلك وفق تقدمهم في المراحل النهائية .
- التأكيد على مهارة حسن تقديم النصيحة للمتعلمين في إطار إحتياجاتهم وقدراتهم .
- التركيز على التربية الاسلامية في المؤسسات التعليمية المختلفة ، حيث أنها تبدو أكثر إلحاحا وأهمية في زمن تراجعت فيه كثير من القيم الاخلاقية والفكرية أمام طوفان المادة والحضارة المادية .
- أن يركز القائمون على المناهج في تضمين المقررات الدراسية أقوالاً وآراء للمفكرين المسلمين وبخاصة تلك التي تتوافق مع المعمول به في العصر الحاضر ، عملاً بقاعدة نسبة الفضل لأصحابه .

ب. توجيهات للباحثين وطلبة العلم بشكل خاص :

- القيام بدراسة مقارنة حول تأثير الاضطرابات السياسية ، والكوارث الطبيعية على العملية التعليمية/التعلمية وآثار ذلك من حيث العوامل المتشابعة ، وأساليب المواجهة بإستخدام التربية والتعليم .
- إجراء دراسة مقارنة حول الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية وآثرها في تطور الفكر الاسلامي عبر العصور .
- إجراء دراسة متخصصة حول الرتيبة الاخلاقية عند الامام الذهبي .
- إجراء دراسة حول أسلوب حرية إختيار المواد المدرسية ، ومعلميها في الفكر التربوي الاسلامي ، مقارنة مع المحاولات المعمول بها في التربية في العصر الحاضر .


ثبت المراجع

١- الآجري ، أبو بكر بن الحسين بن عبد الله ،١٩٨١، **أخــلاق العلمــاء** ، ط٢ ، دار الكتــب العلمية ، بيروت .

٢- الأبراشي ، محمد عطية ،١٩٨٩، **تاريخ علماء المسلمين وآثارهم في التربية** ، ط٣ ، دار المعارف ، القاهرة .

٣- ابن أبي أصيبعة ، أحمد بن القاسم ، د.ت ، **عيون الأنباء في طبقات الأطباء** ، تحقيق نزار رضا ، دار مكتبة الحياة ، بيروت .

٤- ابن بطوطة ، محمد بن عبد الله ، ١٩٨٥، **تحفة النظار في غرائــب الأســفار** ، ج١، ط٤، تحقيق علي المنتصر الكتاني ، مؤسسة الرسالة ، بيروت .

٥- ابن تغري بردي ، جمال الدين يوسف ،١٩٩٤، **المنهل الصافي والمستوفي بعد الــوافي** ، تحقيق محمد محمد أمين ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة .

٦- ________ ،١٩٩٢، **النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة** : تقديم وتعليق محمد حسن شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

٧- ابن الجزري ، شمس الدين أبي الخير محمد بن محمد ،١٩٨٠ ، **غاية النهاية في طبقــات القراء** ، ج٢، ط٢ ، عني بنشره ج ، برجستراسر ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

٨- ابن حجر العسقلاني ، شهاب الدين أحمد بن علي ، ١٣٥٠هـ ، **الدرر الكامنة فــي أعيــان المئة الثامنة** / ج٣، دار الجيل ، بيروت .

٩- ________ ، ١٩٨٧،**فتح الباري بشرح صحيح البخــاري** ، ط٢، دار الريان للتراث ،القاهرة .

١٠- ________ ،د.ت، **هدي الساري** ، **مقدمة فتح الباري شرح صــحيح البخاري** ، دار المعرفة ، بيروت .

١١- إبن الحسين ، الشيخ الطيب بن عمــر ، ١٩٩٥ ، **الســلفية وأعلامهــا فــي موريتانيــا (شنقيط)عرض لنماذج السلفية والاشعرية وما له علاقة بذلك من الحركة العلمية والجهاديــة من دخول الاسلام الى القطر سنة ٦٣الى سنة ١٤١٣ هـ** ، دار ابن حزم ، بيروت .

١٢- ابن جبير ، أبو الحسن محمد بن أحمد ، د.ت ، **رحلة ابن جبير** ، الشركة العالمية للكتاب، بيروت .

١٣- ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد ، د.ت ، **مقدمة ابن خلدون** ، دار إحياء التراث العربي، بيروت .

١٤- إبن سلام ، أبو عبيد القاسم ،١٩٨٦، **الخطب والمواعظ** ، تحقيق رمضان عبد التواب ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة

١٥- ابن شطي ، محمد جميل ، ،١٩٨٦، **مختصر طبقات الحنابلة** ، دار الكتاب العربي ، بيروت .

١٦- ابن طولون ، محمد ،١٩٨١، **القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية** ، ج٢، تحقيق محمد أحمد دحمان ، مطبوعات مجمع اللغة العربية ، دمشق .

١٧- ابن عبد البر ، أبو عمر يوسف ،١٩٧٨، **جامع بيان العلم وفضله ، وما ينبغي في روايته وحمله** ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

١٨- ابن العماد الحنبلي ، أبو الفلاح عبد الحي ،د.ت ، **شذرات الذهب في أخبار من ذهب .** دار إحياء التراث العربي ، بيروت .

١٩- ابن قاضي شهبه ، أبي بكر ، أحمد بن محمد بن محمد تقي الدين ،١٩٨٧، **طبقات الشافعية** ، ج٢، دار الندوة الجديدة ، بيروت .

٢٠- ابن كثير ، عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن عمر ، د.ت ، **الباعث الحثيث في اختصار علوم الحديث** ، دار الفكر ، دمشق .

٢١- ________________ ، ١٩٩٧ ، **البداية والنهاية** ، ج٢ ، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي ، مركز البحوث والدراسات العربية الإسلامية بالتعاون مع دار هجر ، جدة .

٢٢ - ________________ ، ١٩٨٠ ، **تفسير القران العظيم** ، ج١ ، دار المعرفة ، بيروت

٢٣- إبن ماجه ، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني ، د.ت ، **سنن إبن ماجه** ، حكم على أحاديثه و آثاره وعلق عليه ، محمد ناصر الدين الألباني ، اعتنى به أبو عبيده مشهور بن حسن سلمان ، مكتبة المعارف ، الرياض.

٢٤ – ابن منظور ، جمال الدين محمد بن مكرم ،١٩٩٠، **لسان العرب** ، دار صادر ، بيروت .

٢٥ – ابن منقذ ، أسامة ،١٩٨٧ ، **كتاب الاعتبار** ، تحقيق قاسم السامرائي ، دار الأصالة ، الرياض .

٢٦ – ابن ناصر الدين ،١٩٩١، **الرد الوافر على من زعم بأن من سمي ابن تيمية شيخ الإسلام كافر** ،ط٣، تحقيق زهير الشاويش ، المكتب الإسلامي ، بيروت .

٢٧ – ابن الوردي ، زين الدين عمر بن المظفر ،١٩٦٩، **تاريخ ابن الوردي** ، ج٢ ، المطبعة الحيدرية ، النجف ، العراق .

٢٨– أبو حطب ، فؤاد ، وآمال صادق ،١٩٧٧، **علم النفس التربوي** ، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة .

٢٩– أبو داوود السجستاني ، سليمان بن الاشعث ، د.ت ، **سنن أبي داوود** ، حكم على أحاديثه و آثاره وعلق عليه ، محمد ناصر الدين الألباني ، اعتنى به أبو عبيده مشهور بن حسن سلمان ، مكتبة المعارف ، الرياض .

٣٠– أبو زيد ، بكر عبد الله ،١٤١٥هـ ، **حلية طالب العلم** ، ط٥، دار ا لعاصمة ، الرياض ، السعودية .

٣١– أبو غازي ، محمد بن زكريا بن علي ،١٤١٩هـ ، **مصنفات حذر منها الإمام الذهبي فــي كتاب سير أعلام النبلاء** ، تخص طلبة العلم ، مجلة الحكمة ، لندن ، العدد ١٥ ص ٤٠٩–٤٣٣.

٣٢– أبو يعلى ، أحمد بن علي بن المثنى التميمي ، ١٩٨٦ ، **مسند أبي يعلى الموصلي** ، حققه وخرج أحاديثه حسين سليم أسد ، ج٧ ، دار المأمون للتراث ، دمشق .

٣٣– أحمد بن حنبل ، ١٩٩٩ ، **مسند الإمام أحمد بن حنبــل** ،ط٢، ج٢٨ ، تحقيــق شــعيب الارنؤوط واخرون ، مؤسسة الرساله ، بيروت .

٣٤– أمين ، عثمان ،١٩٦٥، **فلسفة اللغة العربية** الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة .

٣٥– أنيس ، إبراهيم ، وآخرون ،١٩٧٢، **المعجم الوسيط** ، ط٢، مجمع اللغة العربية ، القاهرة.

٣٦– الباز العريني ،السيد ،١٩٦٧ ، **المماليك** ، دار النهضة العربية ، بيروت .

٣٧ – البدري ، أبو البقاء عبد الله ،١٩٨٠، **نزهة الأنام في محاسن الشام** ، دار الرائد العربي ، بيروت .

٣٨ – البغدادي ، إسماعيل باشا ، ،١٩٨٢، **هدية العارفين ، أسماء المؤلفين وآثار المصــنفين من كشف الظنون** ، دار الفكر ، بيروت .

٣٩– بكر ، عبد الجواد ،١٩٩٩، **نظم التعليم و الشخصية القومية في أندونيسيا و اليابــان** ، مكتبة زهراء الشرق ، القاهرة .

٤٠– بلقيس ، أحمد ،١٩٨٧، **التواصل في غرفة الصف ودوره في إدارة الصف وتنظيم التعلّم فيه** (Ed.4/87) معهد التربية ، دائرة التربية والتعليم ، الأونروا / اليونسكو ، عمان .

٤١– البنا ، عائدة عبد العظيم ،١٩٨٤، **الإسلام والتربية الصحية** ، مكتب التربية العربي لدول الخليج ، السعودية .

٤٢- الترمذي ، محمد بن عيسى بن سورة ،د.ت، **سنن الترمذي** ، حكم على أحاديثه و آثاره وعلق عليه ، محمد ناصر الدين الألباني ، اعتنى به أبو عبيده مشهور بن حسن سلمان ، مكتبة المعارف ، الرياض.

٤٣- التل ، سعيد ، محرر، وآخرون ،١٩٩٣، **المرجع في مبادئ التربية** ، دار الشروق ،عمان.

٤٤ – الجبري ، عبد المتعال ، ١٩٧٧، **المرأة في التصور الإسلامي** ، مكتبة وهبة ، القاهرة .

٤٥ – جرادات ، عزت ، وذوقان عبيدات ، وهيفاء أبو غزاله ، وخيري عبد اللطيف ، ١٩٨٤، **التدريس الفعال** ، ط٢ ، (د.ن)

٤٦ – الجلاد ، ماجد زكي ، ٢٠٠٠، **التربيه الاسلامية في الاردن ، دراسة تحليلية ببليوغرافية** ، المعهد العالمي للفكر الاسلامي/ مكتب الاردن ، وجمعية الدراسات والبحوث الاسلامية ، بالتعاون مع دار المنار ، عمان .

٤٧ – الجندي ، أنور ،١٩٨٢، **أخطاء المنهج الغربي الوافد في العقائد والتاريخ والحضارة واللغة والأدب والاجتماع** ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت .

٤٨ – __________ ،١٩٧٨، **شبهات التغريب في غزو الفكر الإسلامي** ، المكتب الإسلامي، بيروت .

٤٩ – __________ ،١٩٨٠، **مَعْلَمة الإسلام** ، ط٢، ، المكتب الإسلامي ، بيروت .

٥٠ – الحجاج ،صالح فلاح ، ١٩٩٧ ، **التعليم في مدينة دمشق في العصر المملوكي الأول،** ٦٥٨- ٧٨٤ هـ، ،١٢٦٠ – ١٣٨٣م ، رسالة ماجستير ، جامعة مؤتة ، الأردن

٥١ – حسن ، إبراهيم حسن ،١٩٩١، **تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي،** ط١٣، ، دار الجيل ، بيروت .

٥٢ – حسن ،عثمان علي ، ١٩٩٩، **منهج الجدل والمناظرة في تقرير مسائل الاعتقاد** ، دار إشبيليا .

٥٣ – الحسني ، عبد الحي فخر الدين ،١٩٧٨، **تهذيب الأخلاق** ، ط٢، المكتب الإسلامي ، بيروت .

٥٤ – الخداش ، جاد الله حسن ،١٤١٨هـ، **نصائح الإمام الذهبي لطلبة العلم من كتابه سير أعلام النبلاء** ، مجلة الحكمة ، لندن ، العدد ١٢، ص : ٢٧٦-٢٩٥ .

٥٥ – الخرابشة ، سليمان عبد العبد الله ، ١٩٨٥، **نيابة طرابلس في العصر المملوكي** ، رسالة ماجستير ، الجامعة الأردنية ، الأردن .

٥٦ – خطاطبة ، أنعام بسام ، ١٩٩٨، **النفقات في العصر المملوكي الأول** ، رسالة ماجستير ، جامعة اليرموك ، الأردن .

٥٧ – الخطيب البغدادي ،١٩٨٤، **اقتضاء العلم العمل** ، ،ط٥، ، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني ، المكتب الإسلامي ، بيروت .

٥٨– الدارمي ، عبد الله بن عبد الرحمن ،٢٠٠٠، **سنن الدارمي** ، تحقيق سيد ابراهيم ، وعلي محمد علي ، ج١ ، دار الحديث ، القاهرة .

٥٩ – الدجوي ، أحمد سعيد ،١٩٩١، **فتح الخلاق في مكارم الأخلاق** ، تهذيب عبد الرحيم مارديني ، مكتبة دار المحبة ، دمشق .

٦٠– دوترنز ، روبرت ، د .ت ، **منهج المدرسة الابتدائية** ، ترجمة نجيب بدوي ، دار الفكر العربي ، القاهرة .

٦١ – دوزي ، رينهارت ،١٩٨٢، ، ،١٩٩٠، **تكملة المعاجم العربية** ، ترجمة محمد سليم النعيمي ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد .

٦٢ – الذهبي ، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز ،١٤١٣هـ، **الأربعين في صفات**

١ **رب العالمين** ، تحقيق عبد القادر بن محمد عطا صوفي ، مكتبة العلوم و الحكم ، المدينة المنورة .

٦٣ – ـــــــــــــــــــ ،١٩٩٣، **الإعلام بوفيات الأعلام** ، تحقيق

٢ مصطفى بن علي عوض ، وربيع أبو بكر عبد الباقي ، مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت.

٦٤ – ـــــــــــــــــــ ،١٩٨٦، **الأمصار ذوات الآثار** ، تحقيق

٣ قاسم علي سعد ، دار البشائر الإسلامية ، بيروت .

٦٥– ـــــــــــــــــــ ،١٩٩٣، **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام** ،

٤ تحقيق عمر عبد السلام تدمري . دار الكتاب العربي ، بيروت.

ملاحظة : الأرقام الواردة تحت الأرقام المتسلسلة في قائمة المراجع خاصة فقط بكتب الذهبي ، وقد تم اعتمادها في المتن للدلالة على الكتاب ، الذهبي ، سنة النشر ، رقم الكتاب ، ، الذهبي ، ١٩٨٨، ٧، فالرقم ،٧، يعني كتاب تشبيه الخسيس بأهل الخميس .

٦٦- ________ ، ١٣٧٤هـ ، **تذكرة الحفاظ** ، دار الفكر العربي .

٥

٦٧- ________ ،١٩٩٤، **ترتيب الموضوعات** ، تعليق كمال

٦ بن بسيوني زغلول ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

٦٨- ________ ،١٩٨٨، **تشبيه الخسيس بأهل الخميس**

٧ **في رد التشبه بالمشركين** ، تحقيق علي حسن عبد الحميد ، دار عمار ، عمان .

٦٩ - ________ ،١٩٩٧ ، **جزء فيه أهل المائة**، تحقيق أبو

٨ يحيى ، عبد الله الكندري ، وأبو عبد الله ، حسام بو قريص ، دار ابن حزم ، بيروت .

٧٠ - ________ ،١٩٨٥، **حق الجار** ، تحقيق هشام بن

٩ إسماعيل السقا ، عالم الكتب ، الرياض .

٧١ - ________ ،١٩٨٥، **دول الإسلام** ، مؤسسة الأعظمي

١٠ للمطبوعات ، بيروت .

٧٢ - ________ ،١٩٨٨، **الدينار من حديث المشايخ الكبار**،

١١ تحقيق مجدي السيد إبراهيم ، مكتبة القرآن ، القاهرة .

٧٣ - ________ ، ١٤٠٤هـ ، **زغل العلم** ، تحقيق محمد

١٢ بن ناصر العجمي ، مكتبة الصحوة الإسلامية ، السعودية .

٧٤ - ________ ، ١٩٨٨، **ست رسائل : مسائل في طلب**

١٣ **العلم وأقسامه** ، تحقيق جاسم سليمان الدوسري ، الدار السلفية ، الكويت .

٧٥- ________ ، ٢٠٠١، **سير أعلام النبلاء** ، تحقيق عدة

١٤ محققين ، إشراف شعيب الأرناؤوط ، مؤسسة الرسالة ، بيروت .

٧٦- ________ ، ١٩٨٧ ، **الطب النبوي** ، تحقيق مجدي

١٥ السيد إبراهيم ، التعليق من الناحية الطبية ، د. محمد كمال عبد العزيز ، مكتبة القرآن ، القاهرة .

٧٧- ________ ، ١٩٩٧، **طبقات القراء** ، تحقيق أحمد

١٦ خان ، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ، الرياض .

٧٨- ________، ١٩٦٦، **العبر في خبر من غبر** ، تحقيـــق
١٧ صلاح الدين المنجد ، وزارة الإرشاد و الأنباء ، الكويت .

٧٩- ________، ١٩٩٢، **العلو للعلي الغفار** ، تحقيق عبـــد
١٨ الله بن صالح البرَاك ، دار الوطن للنشر ، الرياض .

٨٠ - ________، ١٩٨٣، **الكاشف في معرفة من له رواية**
١٩ **في الكتب الستة** ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

٨١ - ________، ١٩٨٨، **الكبائر** ، تحقيق مشهور حســـن
٢٠ سلمـــان ، مكتبة المنار ، الزرقاء .

٨٢ - ________،١٩٩٩، **كتاب العرش** ، تحقيق محمـــد بن
٢١ خليفة التميمي ، مكتبة أضواء السلف ، الرياض .

٨٣- ________،١٩٩٣، **مختصر الأباطيل والموضوعات** ،
٢٢ تحقيق محمد حسن الفحماوي ، دار البشائر ، بيروت .

٨٤- ________،١٩٦٢، **المشتبه في الرجال** ، **أسمائهم**
٢٣ **وأنسابهم** ، تحقيق على محمد البجاوي ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة .

٨٥- ________، ١٩٨٨، **معجم الشيوخ (المعجم الكبيـــر)**
٢٤ تحقيق محمد الحبيب الهيلة ، مكتبة الصديق ، الطائف ، السعودية .

٨٦ - ________، ١٩٨٨، **المعجم المختص (بالمحدثيـــن)**
٢٥ تحقيق محمد الحبيب الهيلة ، مكتبة الصديق ، الطائف ، السعودية .

٨٧ - ________، ١٩٨٧ ، **المغني في الضعفاء** ، تحقيـــق
٢٦ نور الدين عتر ، إدارة إحياء التراث الإسلامي ، قطر .

٨٨ - ________، ١٩٩٣، **مناقب الإمام سفيان الثـــــوري.**
٢٧ دار الصحابة للتراث . طنطا – مصر .

٨٩ - ________، ٢٠٠٠، **الموقظة** ، **كفاية الحفظة شـــرح**
٢٨ **المقدمة الموقظة في علم مصطلح الحديث** .شرح أبو أسامة سليم بـــن عبـــد الهلالـــي السلفي، مكتبة الفرقان ، عمان .

٩٠ - ________،١٤٠٥هـ، **الموقظة في علم مصطلـــح**

٢٩ **الحديث** . اعتنى به عبد الفتاح أبو غدّة ،مكتب المطبوعـات الإسلامية، حلب – سوريا

٩١ – ______________________ ، ١٩٦٣، **ميزان الاعتدال في نقد الرجال** ،

٣٠ تحقيق على محمد البجاوي ، دار المعرفة ، بيروت .

٩٢ – ______________________ ، ١٩٩٢، **وصية الإمام الذهبي لمحمد بن**

٣١ **رافع السلامي** ، تحقيق جمال عزون ، دار الريان ، الإمارات العربية المتحدة

٩٣ – رسلان ، محمد بن سعيد ، ١٩٩٣، **آداب طالب العلم** ، دار ابن حزم ، بيروت.

٩٤ – الرشدان ، عبد الله ، ٢٠٠٢، **تاريخ التربية** . دار وائل ، عمان .

٩٥ – الرشدان ، عبد الله ، و نعيم جعنيني ،١٩٩٤، المدخـل إلى التربية والتعليم ، دار الشروق، عمان .

٩٦ – الزركلي ، خير الدين ،١٩٨٤، **الأعلام** ، ج٣ ، ،ط٦، ، دار العلم للملايين ، بيروت.

٩٧ – الزرنوجي ، برهان الإسلام ،١٩٨١، **كتاب تعليم المتعلم طريق التعلم** ، تحقيق مـروان قباني ، المكتب الإسلامي ، بيروت .

٩٨ – زعرور ، إبراهيم ،١٩٩٠، **الحياة الاجتماعية في بلاد الشام في العصـرين الأيوبي والمملوكي** ، رسالة دكتوراة ، جامعة دمشق ، سوريا .

٩٩ – الزنيدي ، عبد الرحمن بن زيد ، ١٩٩٨ ، **السلفية وقضايا العصر** ، مركز الدراسـات والإعلام ، دار إشبيليا ، الرياض .

١٠٠ – زيعور ،علي ،١٩٨٥، **التربية وعلم نفس الولـد فـي الـذات العربيـة** ، دار الأندلس، بيروت.

١٠١ – السبكي ،تاج الدين أبي نصر عبد الوهاب بن علي عبد الكافي ،١٩٧٤، **طبقات الشافعية الكبرى** ، تحقيق محمد محمد الطناجي ، وعبد الفتاح محمد الحلو دار إحياء الكتـب العربيـة ، القاهرة .

١٠٢– ______________________ ،١٩٩٦، **معيد النعم ومبيد النقم** ، تحقيق محمد علي النجار ، وأبو زيد شلبي ، و محمد أبو العيون . مكتبة الخالجي ، القاهرة .

١٠٣ – السخاوي ، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن بن محمد ، ١٩٨٣، **فتح المغيث شـرح ألفية الحديث للعراقي** ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

١٠٤ – ______________________ ،١٩٩٩، **الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسـلام ابن حجر** ، تحقيق إبراهيم باجس عبد الحميد ، دار ابن حزم ، بيروت.

١٠٥ – سعد ، قاسم ،١٩٨٦ ، **صفحات في ترجمة الحافظ الذهبي** ، دار البشائر الإسلامية ، بيروت .

١٠٦ – السلامة ، ناصر بن سعود بن عبد الله ، ٢٠٠٢ ، **معجم مؤلفات الإمام الذهبي المخطوطة** ، المحفوظة بمكتبات المملكة العربية السعودية ، دار الفلاح ، مصر .

١٠٧ – السلامي ، محمد بن رافع ،١٩٨٥، **الوفيات القسم الأول** ، تحقيق عبد الجبار زكار ، دار إحياء التراث العربي ، دمشق .

١٠٨ – سلمان ، أبو عبيدة مشهور بن حسن ،١٩٩٤ ، **عناية النساء بالحديث النبوي ، صفحات مضيئة من حياة المحدثات حتى القرن الثالث عشر الهجري** ، دار إبن عفان ، الخبر ، السعودية .

١٠٩ – سليم ، محمود رزق ،١٩٤٧ ، ، ١٩٤٩، ، ١٩٥٥، **عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي** ، القسم الثاني من ج١ ،و القسم الأول من ج٢ ،و المجلد الخامس .مكتبة الآداب، القاهرة .

١١٠ – السمرقندي ، أبو نصر أحمد بن محمد ،١٩٨٧ ، **كتاب الشروط وعلوم الصكوك** ، تحقيق محمد جاسم الحديثي ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد .

١١١ – السمعاني ، عبد الكريم بن محمد بن منصور ،١٩٨١، **أدب الإملاء والاستملاء** ، تحقيق ماكس فايسفايلر ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

١١٢ – سيف ، أحمد محمد نور ، ١٩٩٧ ، **من آداب المحدثين في التربية والتعليم** ، دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث .

١١٣ – السيوطي ، جلال الدين ، ١٩٥٢، **تاريخ الخلفاء** ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة ، مصر .

١١٤– ______________ ،١٩٨٣ ، **طبقات الحفاظ** ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

١١٥ – ______________ ، ١٩٩٨ ، **جزء فيه طرق حديث طلب العلم فريضة على كل مسلم** ، تحقيق علي حسن عبد الحميد ، دار عمار ، عمان

١١٦ – الشاطبي ، القاسم بن فيرة ، ١٩٩٦ ، **متن الشاطبية المسمى حرز الأماني ووجه التهاني في القراءات السبع** ،ط٢، مكتبة دار الهدى ، المدينة المنورة

١١٧ – الشافعي ، أبو عبد الله محمد بن إدريس ، ١٩٨٦ ، **ديوان الشافعي** ، ، ط ٢ ، ، تحقيق عبد المنعم خفاجي ، دار ابن زيدون ، بيروت

١١٨ – شبير، وليد شلاش نايف ، ١٩٨٩ ، **مشكلات الشباب والمنهج الإسلامي في علاجها** ، مؤسسة الرسالة ، بيروت

١١٩ – شميساني ، حسن ، ١٩٩٠ ، **الحافظ شمس الدين الذهبي** ، دار الكتب العلمية ، بيروت.

١٢٠ – ــــــــــــــــ ، ١٩٨٣ ، **مدارس دمشق في العصر الأيوبي** ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت .

١٢١ – شهلا ، جورج ، وعبد السميع حربلي ، وإلياس حنانيا ، ١٩٧٢ ، **الوعي التربوي ومستقبل البلاد العربية** (د. ن) .

١٢٢ – الشوكاني ، محمد بن علي ، ١٤٣٨ هـ ، **البدر الطالع بمحاسن مَنْ بعد القرن السابع** ، دار المعرفة ، بيروت .

١٢٣ – الشيباني ، عمر التومي ، ١٩٨٣ ، **دور التربية في بناء الفرد والمجتمع** ، ط٢ ، ، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس ، ليبيا .

١٢٤ – الصالح ،صبحي ،١٩٨٢، **علوم الحديث ومصطلحه** ، ،ط ١٤، ، دار العلم للملايين، بيروت .

١٢٥ – صالح ، محمد أديب ، ١٩٨٥ ، **لمحات في أصول الحديث** ، المكتب الإسلامي ، بيروت

١٢٦ – الصفدي ، صلاح الدين خليل بن أيبك ، ١٩٤٩ ، **كتاب الوافي بالوفيات** ، ج٢ ، اعتناء س. ديدرينغ ، مطبعة وزارة المعارف ، استانبول .

١٢٧– صقر ، عبد البديع ، ١٣٩٦هـ ، **التجويد وعلوم القرآن** ، ط٦ ، مكتبة وهبة ، القاهرة .

١٢٨ – صمويلسون ، وليم ج ، وفريد أ ماركو ويتز، ١٩٨٨ ، **مقدمة في فلسفة التربية** ، ترجمة ماجد عرسان الكيلاني ، دار الفرقان ، عمان .

١٢٩– الطبراني ، سليمان بن أحمد ،١٩٩٥، **المعجم الأوسط** ، أبو معاذ طارق بن عوض الله بن محمد ، وأبو الفضل عبد المحسن الحسني ، ج٦ ، دار الحرمين ، القاهرة .

١٣٠ – الطحان ، محمود ، ، ١٩٨٥ ، **تيسير مصطلح الحديث** ، ط٧ ، ، مكتبة المعارف ، الرياض .

١٣١ – الطويبي ، عمر بشير ، ١٩٩٢ ، **التدريس والصحة النفسية للتلميذ** ، الدار الجماهيرية، مصراته– ليبيا .

١٣٢ – عبد الدائم ، عبد الله ، ١٩٨١ ، **التربية عبر التاريخ (من العصور القديمة حتى أوائل القرن العشرين)** ، ط٤ ، ، دار العلم للملايين ، بيروت .

١٣٣- عبد الحميد ، رشيد ، ومحمود الحياري ، ١٩٨٥ ، **أخلاقيات المهنة** ، ط٢ ، دار الفكر، عمان .

١٣٤- عبد الرحيم ، عبد الرؤوف يوسف عبد القادر ،١٩٩١، **أخلاق العالم والمتعلم عند أبي بكر الآجري** ، دار عمار ، عمان .

١٣٥- عبد الله ، عبد الرحمن صالح ،١٩٩٦، **دراسات في الفكر التربوي الإسلامي** ج٢ ، دار البشير ، عمان .

١٣٦ – عبد النور ، فرنسيس ،١٩٧٧، **التربية والمناهج** ، دار النهضة ، مصر – القاهرة .

١٣٧ – عبد الواسع ، عبد الوهاب أحمد ،١٩٦٩ ، **مدارسنا والتربية** ، الدار السعودية للنشر ، جدة .

١٣٨ – عبود ، عبد الغني ،١٩٧٧، **في التربية الإسلامية** ، دار الفكر العربي ، القاهرة .

١٣٩- عبيدات ، سليمان ، وعبد الله الرشدان ،١٩٩٣، **التربية والتعليم في الأردن من عام ١٩٢١ – ١٩٩٣** (د.ن) ، عمان .

١٤٠ – عتر ، نور الدين ، ١٩٧٧، **معجم المصطلحات الحديثية** ، مطبوعات مجمع اللغة العربية ، دمشق .

١٤١ – علي ، سعيد إسماعيل ،١٩٩١، **اتجاهات الفكر التربوي الإسلامي** ، دار الفكر العربي ، القاهرة .

١٤٢ – ______________ ،١٩٩٨، **التعليم على أبواب القرن الحادي والعشرين** . عالم الكتب ، القاهرة .

١٤٣ – ______________ ، ١٩٨٧، **الفكر التربوي العربي الحديث** ، سلسلة عالم المعرفة عدد ،١١٣، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت .

١٤٤ – علي ، نبيل ،٢٠٠١، **الثقافة العربية وعصر المعلومات ، رؤية لمستقبل الخطاب الثقافي**، سلسلة عالم المعرفة ، العدد ،٢٧٦، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت.

١٤٥ – علي ، محمد كرد ، ١٩٨٢، **خطط الشام** ، مطبعة المفيد ، دمشق .

١٤٦ – علوان ، عبد الله ،١٩٧٨ ، **تربية الأولاد في الإسلام** ، ط٢، ، دار السلام ، بيروت .

١٤٧ – العلواني ، طه جابر فياض ،١٩٨٧، **أدب الاختلاف في الإسلام** ، سلسلة قضايا الفكر الإسلامي ،ط٣، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، واشنطن .

١٤٨ – عليان ، هشام عامر ، وهندي ، صالح ذياب ، ،١٩٨٤، **علم النفس التربوي** ، دار الفكر ، عمان .

١٤٩ – العمايرة ، محمد حسن ،٢٠٠٠، **الفكر التربوي الإسلامي** ، دار المسيرة ، عمان .

١٥٠ – العمري ، أحمد بن يحيى ،١٩٨٦ ، **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، دولة المماليك الأولى** ، تحقيق دوروثيا كرايفوسكي ، المركز الإسلامي ، بيروت .

١٥١ – غانم ، بسام عمر ذياب ،١٩٩٩، **الفكر التربوي في نماذج من الرسائل والوصايا الموجهة إلى الأبناء والمؤدبين والمعلمين في العصر العباسي الأول** ، رسالة ماجستير ، الجامعة الأردنية ، عمّان .

١٥٢ – الغماري ، عبد العزيز محمد بن الصديق ،١٩٨٢، **التأنيس بشرح منظومة الذهبي في أهل التدريس** ، مؤسسة الرسالة ، بيروت .

١٥٣ – فالوقي ، محمد هاشم ، ١٩٨٧ ، **اتجاهات حديثة في التربية (مقالات في الفكر التربوي الجديد والتربية المستديمة)** ، الدار الجماهيرية ، طرابلس ، ليبيا .

١٥٤ – فرحان ، إسحق أحمد ،١٩٩١، **التربية الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة** ، ط٣، دار الفرقان ، عمان .

١٥٥ – فرحان ، اسحق أحمد ، و توفيق مرعي ، و أحمد بلقيس ،١٩٨٤، **المنهاج التربوي بين الأصالة والمعاصرة** ، دار الفرقان ، عمان .

١٥٦ – فودة ، محمود بسيوني ،١٩٨٦، **نشأة التفسير ومناهجه في ضوء المذاهب الإسلامية** ، مطبعة الأمانة ، القاهرة .

١٥٧ – القاضي عياض ، بن موسى اليحصبي السبتي ،١٩٨٢، **بغية الرائد لما تضمنه حديث أم زرع من الفوائد** ،ط٢، مكتبة ابن تيمية ، القاهرة .

١٥٨ – القرضاوي ، يوسف ،١٩٨٣، **غير المسلمين في المجتمع الإسلامي** ،ط٣، ، مؤسسة الرسالة ، بيروت .

١٥٩ – القنوجي ،صديق بن حسن ،١٩٧٨ ، **أبجد العلوم الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم**، دار الكتب العلمية ، بيروت .

١٦٠ – ______________ ،١٩٨٣، **التاج المكلل من جواهر مآثر الطراز الآخر والأول** ، ،ط٢، تصحيح وتعليق عبد الكريم شرف الدين ، دار اقرأ .

١٦١ – الكتبي ، محمد بن شاكر ،١٩٨٤، **عيون التواريخ** ،تحقيق نبيلة عبد المنعم ، وفيصل السَامر ، وزارة الثقافة والإعلام ، بغداد .

١٦٢ – ______________ ، ١٩٧٤، **فوات الوفيات والذيل عليها** ، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت .

١٦٣ – كحالة ، عمر رضا ، ١٩٩٣، **معجم المؤلفين ، تراجم مصنفي الكتب العربية** ، مؤسسة الرسالة ، بيروت .

١٦٤– كرزون ، أنس أحمد ، ١٩٩٦ ، **آداب طالب العلم في ضوء الكتاب والسنة وسيرة السلف الصالح** ، دار نور للمكتبات ، جدة .

١٦٥– الكيلاني ، إبراهيم زيد ، وهمام عبد الرحيم سعيد ، وصالح ذياب هندي ،١٩٨٩ ، **دراسات في الفكر العربي الإسلامي** ، ط٢، دار الفكر ، عمان .

١٦٦ – الكيلاني ، ماجد عرسان ،١٩٨٥ ، **تطور مفهوم النظرية التربوية الإسلامية** ،ط٢، دار ابن كثير ، دمشق .

١٦٧ – مالك بن أنس ،١٩٥١، **الموطأ** ، صححه وخرج أحاديثه وعلق عليه ، محمد فؤاد عبد الباقي ج٢ ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة .

١٦٨ – محمود ، علي عبد الحليم ،١٩٩٤، **تربية الناشئ المسلم** ، ط٣، دار الوفاء،المنصورة– القاهرة .

١٦٩ – المجدوب ، عبد العزيز ،١٩٨٠ ، **الإمام الحكيم فخر الدين الرازي من خلال تفسيره** ، الدار العربية للكتاب ، ليبيا ، تونس .

١٧٠ – مرسي ، محمد منير ،١٩٨٧ ، **التربية الإسلامية أصولها وتطورها في البلاد العربية** ، ،ط٤، ، دار المعارف ، القاهرة .

١٧١ – المزروعي ، حمدان مسلم مكتوم ،١٩٩٥، **القيم التربوية للموضوعات العقدية في أقوال الإمام الذهبي ، من خلال كتابه سير أعلام النبلاء** ، رسالة ماجستير ، جامعة اليرموك ، الأردن .

١٧٢ – مسلم بن الحجاج ، أبو الحسن ،د.ت ، **صحيح مسلم بشرح الإمام النووي** ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

١٧٣– المشعبي ،عبد المجيد بن سالم،١٩٩٨،**التنجيم والمنجمون وحكم ذلك في الإسلام**، مكتبة أضواء السلف ، الرياض .

١٧٤- مصطفى ،شريف ،٢٠٠٠، **دور مدير المدرسة والمشرف التربوي في تنمية قدرة التفكير التأملي للمعلمين في ممارساتهم التعليمية ،(Ed,1/93)** ،معهد التربية ، دائرة التربية والتعليم، الأونروا/ اليونسكو ، عمان .

١٧٥ – مصطفى ، فائق ، وعبد الرضا علي ، ١٩٨٩ ، **في النقد الأدبي الحديث ،منطلقات وتطبيقات** ، دار الكتب، الموصل .

١٧٦ – معروف ، بشار عواد ،١٩٧٦، **الذهبي ومنهجه في كتابه " تاريخ الإسلام "** ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، القاهرة .

١٧٧ – المقريزي ، أحمد بن علي ،١٩٩٨، **كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية** ، ج٣ ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

١٧٨ – المنجد ، صلاح الدين ،١٩٧٨ ، **أعلام التاريخ والجغرافيا عند العرب** ، دار الكتاب الجديد ، بيروت .

١٧٩ – ____________ ،١٩٨١، **تصحيح كتاب الدارس في تاريخ المدارس** ، دار الكتاب الجديد . بيروت .

١٨٠ – المنذري ، زكي الدين بن عبد العظيم بن عبد القوي ،١٩٦٨، **الترغيب والترهيب من الحديث الشريف** ، ط٣، دار إحياء التراث العربي ، بيروت .

١٨١ – موسى ، محمد بن حسن بن عقيل ،١٩٩٦، **نزهة الفضلاء ، تهذيب سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي** ، دار الأندلس الخضراء ، جدة .

١٨٢ – موسى ، محمد الثاني بن عمر ،٢٠٠٠، **ضوابط الجرح والتعديل عن الحافظ الذهبي** ، إصدارات الحكمة ، بريطانيا .

١٨٣ – ميالاريه ، غاستون ،١٩٨٥، **مدخل إلى التربية** ، ترجمة نسيم نصر ، منشورات عويدات ، بيروت .

١٨٤ – الميداني ، عبد الرحمن حسن حبنكة ،١٩٨٠ ، **قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل (تأملات)** دار القلم ، دمشق .

١٨٥ – ناصر ، إبراهيم ،١٩٩٤، ، **أسس التربية** ، ط٣، ، دار عمار ، عمان .

١٨٦ – النحلاوي ، عبد الرحمن ،١٩٨٩ ، **الإمام محمد الذهبي ، ترجمته وبعض آرائه وأساليبه التربوية** ، دراسة تحليلية ، في أعلام التربية العربية الإسلامية ، المجلد الرابع ، مكتب التربية لدول الخليج ، ص: ٢٩-٦٥ .

١٨٧ – ______________ ،١٩٨٨، **الإمام الذهبي ، دراسة موضوعية تحليلية تربوية** ، دار الفكر ، دمشق .

١٨٨ – ______________ ،١٩٨٢، **التربية الإسلامية والمشكلات المعاصرة** ، المكتب الإسلامي ، بيروت .

١٨٩ – الندوي ، أبو الحسن علي الحسيني ، ١٩٨٠ ، **التربية الإسلامية الحرة** ، مؤسسة الرسالة ، بيروت.

١٩٠ – النّسائي ، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي ،د.ت، **سنن النسائي** ، حكم على أحاديثه و آثاره وعلق عليه ، محمد ناصر الدين الألباني ، اعتنى به أبو عبيده مشهور بن حسن سلمان ، مكتبة المعارف ، الرياض.

١٩١ – النعيمي ، عبد القادر بن محمد ،١٩٨٨، **الدارس في تاريخ المدارس** ، تحقيق جعفر الحسيني ، دار الكتاب الجديد.

١٩٢ – النووي ، أبو زكريا يحي بن شرف الدين ،١٩٨٨ ، **التبيان في آداب حملة القرآن** ، دار المصطفى ، بيروت – دمشق .

١٩٣ – ______________ ، ١٩٧٠ ، **رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين** ، تحقيق عبد الله أحمد أبو زينة ، وكالة المطبوعات ، الكويت .

١٩٤ – ______________ ،١٩٩٥، **كتاب المجموع ، شرح المهذب للشيرازي** ،تحقيق محمد نجيب المطيعي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت .

١٩٥ – نويهض ، عجاج ،١٩٨٤، **بروتوكولات حكماء صهيون** ، دار طلاس ، بيروت .

١٩٦ – الهيثي ، نور الدين علي بن أبي بكر ، ١٩٩٤ ، **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد** ، تحقيق حسام الدين القدسي ، مكتبة القدس ، القاهرة .

١٩٧ – وافي ، علي عبد الواحد و ابراهيم والي ، والسيد محمود زكي ، وأبو الفتوح رضوان ، وكامل السيد محمد باقر ، ومحمد عبد الحميد أبو العزم ،١٩٥٥، **أصول التربية ونظام التعليم** ، مطبعة الرسالة ، القاهرة .

١٩٨ – الوحيدي ، أحمد عياد محمد ،١٩٩٠، **الفكر التربوي عند برهان الإسلام الزرنوجي وتطبيقاته التربوية** ، رسالة ماجستير ، الجامعة الأردنية ، عمان .

١٩٩ – وزارة التربية والتعليم ، المديرية العامة للمناهج وتقنيات التعليم ، **دليل المعلم في التربية الصحية** ، عمان ،١٩٩١ .

٢٠٠ – وزارة التربيه والتعليم ، المديرية العامة للمناهج وتقنيات التعليم، **منهاج التربية الاجتماعية والوطنية وخطوطه العريضة لمرحلة التعليم الأساسي** ، عمان ،١٩٩١ .

٢٠١ – وزارة التربية والتعليم ، المديرية العامة للمناهج وتقنيات التعليم ، **منهاج العلوم وخطوطه العريضة في مرحلة التعليم الأساسي** ، عمان ،١٩٩١.

٢٠٢ – ياقوت الحموي ،١٩٧٩ ، **معجم البلدان** ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت .

٢٠٣ – اليماني ، عبد الباقي بن عبد المجيد ،١٩٨٦ ، **إشارة التعيين في تراجم النحاة واللغويين**، تحقيق عبد المجيد ذياب ، شركة الطباعة العربية السعودية ، الرياض .

٢٠٤ – اليونسكو ،١٩٨٢، **تعليم الكبار و التنمية** ، ج ٢ ، المطبعة الكاثوليكية ،عاريا ، لبنان.

205 - AD – Dhahabi , Mohammad bin Uthman ،1999، **The Chief Sins Al-Kaba`r** , Rendered into English by Mahmoud Ibrahim , Dar Al-Kotob Al-Ilmiyeh , Beirut .

206 - Dodge , Bayard ،1962، **Muslim Education In Medieval Times** , The Middle East Institute , Washington DC.

207 - Houtsma , M.Th , Arnold , T.W , Bassel .R , Hartman , R ،1913، **The Encyclopaedia of Islam , A Dictionary of The Geography Ethnography And Biography of The Muhammadan Peoples** . V .I ،A-D، Lozac & Co , London .

208 - Makdesi , George ،1981، **The Rise of Colleges .Institutions of Learning in Islam and the West ,** Edinburgeh University Press .

209 -Tarawneh , Taha Thalji ،1994، **The Province of Damascus During The Second Mamluk Period** ، 784 / 1382 – 922/ 1516 ، Publications of the Deanship of Research and Graduate Studies , Mu`tah University .

210 - Tritton , A.S ،1957، **Materials on Muslim Education in the Middle Ages** . Luzac, London .

211 - Ziadeh, Nicola , A ،1953، **Urban Life in Syria under the Early Mamluks** , American University of Beirut .

Abstract

Al Imam Shams Aldeen Al Dhahabi Educational Thought

Prepared by
Bassam Omar Diab Ghanem

Supervised by
Professor Abdallah Zahi Al Rashdan

This study aimed at pointing out Al Imam Al Dhahabi educational thought, contributions in education and educational philosophy. Also, to investigate the extent of his perspectives into the contemporary educational philosophy.

This research attempted to answer the following question: “What are the features of Al Imam Al Dhahabi educational thought?” This major question divided into seven sub-questions related to his perspectives of the sciences and the scholars of his era, the educational techniques and approaches to gain knowledge, the image of moral, the relationship among the elements of the teaching learning process, and the extent to which his perspectives agree or disagree with contemporary educational thought.

To answer these questions, the researcher used the historical approach supported with the description and the analysis techniques to what are available of his works and what was written about him.

The study concluded that Al Imam Al Dhahabi thought was inspired of his Islamic belief (al-salaphi) which clearly appeared in his concentration on religious sciences, the distinction between sciences according to the degree of strictness of religious instructions, his perspective of the sciences and the scholars of his era, or his perception of the concept of “preventive-curative education” based upon fear of Alaah. In his recommendations, Al Dhahabi also gave priority to education over instruction. This was obvious in his perspectives of the ethics that both the teacher and the learner should stick to and control their relationships. The study also concluded that some of AL Dhahabi perspectives match nowadays educational thought: focusing on precision in investigation and research, giving priority to gradation in seeking knowledge and in presenting it, giving the learner the freedom of selecting both the tutor and the subject matter, paying attention to the individual differences, the importance of the family in the educational process, the compulsory education, and the reflective thinking and self accountability.

The study recommended researchers to carry out:

- A study to investigate Al Dhahabi moral education.
- A study to investigate the political, economical, sociological, and intellectual conditions and their impact upon the Islamic thought throughout the ages.

- A study to investigate the impact of political disorder and natural disasters upon the teaching learning process besides the factors, the effects, and the educational techniques of handling them.

- A comparative study to investigate the freedom of selecting the tutor and the subject matter in the Islamic thought and the same trends in contemporary education.